

محمد عبد الرحمن عمار

البيوت

قصّة إسحاق
الضبيّ (القوى)

لباب نبوطويل

تأليف

محمد عبد الرحمن علال

الكتاب: الباب نبوطويل " باب بوطويل "
قصة ايش

المؤلف :محمد عبدالرحمنن علال

البريد الالكتروني

tradumonde@gmail.com

رقم الإيداع القانوني

2018MO4882

الرقم الدولي : -1

590-36-9920-987

إهداء

الى كل اساتذتي الذين علموني كل حرف كتبت به روايتي
الى كل تلامذتي الذين لأجلهم كتبت روايتي
الى كل اهلي في ايش الذين اثروا خيالي في طفولتي
الى كل اهلي في فجيح الذين علمني معنى الوطنية
الى كل اهلي في جبل بوخوالي الذين علموني التحدي و
ركوب المغامرة وفضيلة الصبر
الى كل اهلي في عين بني مطهر الذين علموني فضيلة
التسامح والعفو عند المقدرة
الى كل زميل لي في العمل حيث رسخت معه فضيلة
التعاون والاحترام
الى امي وابي واخواني الذين علموني التواضع والخلق
الكريم
الى زوجتي وابنائي وبناتي الذين وقفوا الى جانبي في أيام
العسرة حتى أخرجت هذا الكتاب
الى كل هؤلاء : كل الحب والاحترام

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

ان اجمل الكتابات، هي تلك الكتابات التي يكتبها الانسان عن نفسه، ويكشف بها عن خباياها وما يخالجها..

بدءا من "عرس في القرية " حتى "باب بوطويل" الذي هو عنوان الكتاب او بالأحرى السيرة الذاتية ، نحس بان الرواية تقدم لنا حياة شخصية شامخة كشموخ جبل بوخوالي الذي قضى فيه المؤلف ريعان شبابه وزهرة عمره باذلا كل ما يملك في سبيل تربية الناشئة، وهو هدف نبيل حمل مسؤوليته واداه بتفان وإخلاص.

يلمس القارئ الكريم وهو يتصفح رواية باب بوطويل، ان الأستاذ علال موهوب، لديه ما يقوله وكيف يقوله، ويدرك جيدا ان الكتابة هي فن اجتذاب القارئ. لذا فهو يسرد وقائع واحداث حياته بكل صدق وعفوية بكلمات تلامس ذلك الشعور الداخلي الحزين الذي ابتداه ككاتب بتيمة الموت - موت أخيه - وانهاه بتيمة الموت - موت الطفلة اسلام - ذلك الحدث الأليم الذي اثر في الجميع ، دون ان ننسى محطات تتخلل الرواية بمثابة متنفس للكاتب من حين لآخر . فحياته مرت بمراحل كمراحل الطريق ودرجات كدرجات السلم؛ ولكنها تنم عن ذوق رفيع للأشياء تحكيها بصدق دون مبالغة لتسجل تجربة النمو والتغيير والصراع بين قوى الخير والشر حتى تجعل لحياة الانسان مذاقا ومعنى.

فباب بوطويل ،سيرة ذاتية وتاريخية في الوقت نفسه ،ويظهر ذلك من خلال سرد احداث تاريخية تخللت السيرة اثناء كتابتها ،احداث سجلها ككاتب بكل دقة وتفصيل ،اترك للقارئ الكريم اكتشافها والاستمتاع بها في هذه السيرة الذاتية الرائعة من خلال أبوابها: "عصفور في الجنة وأبو جمعة والليل ورقص الذباب وغيرها من الأبواب التي انتقاها الأستاذ علال لتكون عوالم يسبح فيها بخياله في سيرته الممتعة.

الأستاذ محمد سويح

قصة ايش

عرس في القرية

إستيقظ ذلك الصباح و الفصل ينحو في مهل نحو الربيع، بدت له من على الدرج أوراق شجر الرمان كثيفة وقد بدأت ترتدي فستانها الأخضر وتوشح الحمرة زهرات ثمارها، وكأن الطبيعة رسمت للوطن على صفحاتها علما.بين يديه، كانت قطعة خبز من فرن الطين ترقص على نغمات أسنانه الصغيرة البيضاء، يلوكها في فمه مع قليل من لبن، وتنتشي أذناه بزقزقة العصافير تحط قريبا على جدار تبني أعشاشها داخل ثقوبه لتضع بيضا وتطعم بعد ذلك فراخها وتحميها. كانت الساقية في "اورتو" تسليه بخير مائها غير بعيد تحت كرمة نشرت أوراقها و تدلت عناقيد تحتها تحمل حبات عنب خضراء صغيرة.استيقظ على صوت رجال يرددون في حماسة:"مرحبا مرحبا ---- برجوع الملك".مد بصره فرأى رجلا منهم يدفع عربة بها تربة بيضاء اعتاد أهل البلدة أن يسموها "تازيست"، يزينون بها أرضية أزقة القرية عند كل مناسبة.كان "مو بلحسن"رحمه الله،يلبس سروالا ومعطفا

رماديين. يضع حذاء طويلا يمتد حتى ركبتيه. صار يضرب الأرض بقدميه منقادا لذلك الصوت القادم من بعيد كما يفعل الجنود عند كل استعراض. خلفه، ظهر بساط أبيض يتبع خطواته وهو يتقدم عبر جانب شبه مظلم من الزقاق أسفل



غرفة الضيافة بمنزل إمام جامع القرية. كانت الحماسة تملأ عينيه، كان شابا. من على ذلك الدرج، مد الصغير بصره إلى بعض الأبواب المجاورة، فإذا هي مزينة بأقواس من جريد النخل منسوجة بعناية فائقة. ورايات حُمر تعلو أسطح منازل مرتفعة عريضة الجدران بنيت بالحجر والطين. لم يكن يعلم بأي ملك يتغنون، ولا لم أخذت قرينه زخرفها وازينت ذلك اليوم - ولم تمض على عودة محمد

الخامس من المنفى سوى أعوام- كان يقف أعلى الدرج المؤدي إلى منزل عائلته التي شهدت ميلاده بعد ذلك ببضع سنوات. كان ذلك في الشهر التاسع من بداية ستينيات القرن العشرين، في قرية صغيرة وديعة على الحدود الشرقية للمملكة المغربية مع الجزائر "إيش"، حيث رأى ذلك الصغير "تيمح" النور تحت سقف من خشب صبغه دخان الكانون بالسواد، يقف محركا رجله ثملا من حسن ما يرى، ويترنج تحت تأثير ذلك الصوت القادم من هناك، من ساحة المحطة الطرقية "تلات نَعْلُو". يفتح عينيه على تلك الخضرة تمتزج في تناسق وصفرة الرمال الصحراوية. كان أبواه من البدو الأمازيغ؛ لم يتلقيا أي تعليم إلا ما كانا يسمعانه من قرآن كريم من شفاه فقيه القرية عندما يأتي دور عائلته في إعداد وجبة الغذاء أو العشاء على شرفه ومعه كل كبار البلدة، أو من بعض الأحاديث النبوية عن "سي عباس" في ساحة الجامع وقرب دكاكين القرية. كانا ورعين تقيين، تطبع البساطة عيشهما. لم يتذكر من الأيام الأولى في حياته الكثير، سوى اللعب تحت أشعة الشمس الحارة، على الرمال الصفراء الحارقة التي

كانت تغطي قرينته آنذاك، صفراء ذهبية، يلمع بريق حباتها من بعيد كلما مدت إليها الشمس خيطا رفيعا من أشعتها الصافية. عدا تلك الصور للأشجار التي كانت تملأ بساتين القرية على مد البصر وتزيدها نضارة واخضراراً. لم يتذكر من السنة الخامسة من عمره، سوى الحفل الذي أقامته عائلته بمناسبة زفاف عمه. يذكر زوجته الشابة الجميلة وهي في غرفتها "الحجبة"، في فستانها الأبيض ومنديلها الأحمر يعلو رأسها ويزيدها بهاء كأنه تاج على رأس أميرة في إحدى حكايات السندباد. وذلك الكحل في عينيها، يجعلها آية في الروعة لا مثيل لها بين فتيات القرية، في تلك الليالي التي محى ظلمتها ضوءً قناديل قديمة. لقد أحبته كثيرا. لا يدري لماذا. ربما لأنه الصبي الصغير الوحيد الذي وجدته أمامها في عائلته. ربما كان جميلا هو أيضا. يتذكرها شابة في إحدى الأعراس بالقرية وعليها فستان أبيض فتنت به كل فتيات ذلك الوقت هناك. في غرفتها، كانت تخبره عن أشياء لم يكن يفهمها. حدثته عن نبع خلف السد يسمى "طيطنيسلان" عين العرسان.



نبع بين صخور ضخمة أعلى الوادي. تنبت حوله نباتات خضراء طويلة السيقان. أخبرته أن عريسا غرق في هذا الينبوع وهو يستحم بعد أن عجز مرافقوه عن إنجاده. منذ ذلك الحين، أصبح الناس يخشون على العرسان من أبنائهم. تفردت العين كمكان وحيد لاستحمام كل مقبل على الزواج. تقليد لا محيد منه. لكن، يجب على العريس أن يحذر، وعلى أصحابه أن يكونوا فطنين لهذا الخطر. خاف تيمح أن يحدث ذلك لعمة. مرت أمامه صور ذلك العريس الغريق. صور مُصاحبيه وهم لا يملكون لإنقاذه غير مناداته و الصراخ. صورة عروسه وهي تتلقف الخبر وهي في فستانها الجميل تنتظره. صورة أمه وأبيه. صورة أهل القرية وهم يرون العرس قد تحول

إلى ماتم. كانت صورا مرعبة حقا أخافته كثيرا. تخيل ماءها ذا الوجه البشع وقد لبس السواد مستعدا لابتلاع الشاب بلا رحمة. مرت أمامه صورة العريس في لحظاته الأخيرة. فيم كان يفكر؟ في عروسه؟ في أمه؟ في عرسه؟ أم في الموت الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى منه؟ كانا من خلال نافذة في غرفتها يسمعان ما يدور خارج تلك الأسوار العتيقة. حتى إذا جاء المساء، انطلقت الأهازيج بالدفوف وزغاريد النساء، زغاريد كان لها طابع مميز في قريته. كن يدخلن غرفتها بأعداد كبيرة وبصخب يصم الآذان. صخب الطبول وصخب ضحكاتهن تتعالى. كن يرددن أغنيات لا توشك تبدأ حتى تنتهي "أوهنا طاح لويژ أوهنا نلغبو عليه". أكثرهن زهرات في مثل عمرها. ومنهن شمطاوات العجائز لا تتوقفن عن إصدار الأوامر هنا وهناك، لهذه أو لتلك. في أيديهن أوانٍ من صلصال تحمل جمرا يتصاعد منه دخان طيب الريح، مسك وبخور وعنبر اقثني بأعلى الأثمان. وقنينات عطر لا تكف أيدي بعضهن عن رشه على الحاضرات. كان بعضهن يسخرن من العروس بكلمات لم يكن يفهم منها سوى الضحكات التي تليها. ضحكات تهتز لها جدران غرفتها وكأنها

دوي رعد في إحدى مساءات الخريف الماطرة. كان جمالهن يزيد الشابة رونقا وهي تبتسم لهن في استحياء... وتنطلق السهرة التي يحظى فيها المزمارة "الغيطة" بمكانة هامة ويفعل فعلته في الحاضرين، حتى لتراهم يتمايلون



وتهتز أجسادهم وهم قاعدون ينظرون وينتظرون. كان "بوجمعة الغياط" صاحب المزمارة متميزا، محبوبا لدى سكان البلدة؛ ذا إعاقة على مستوى رجليه. كان يتلاعب بالمزمارة تلاعب هبات النسيم بغصن مورق في أصباح الربيع الندية. كان

ينظر إليه وهو يعطي انطلاقة حفل الزفاف عصرا في تلك الساحة ذات الرمال الكثيفة "ثلاث نَعْلُو".ساحة،أقل ما يمكن أن يقال عنها،أنها المحطة الطرقية التي تتوقف عندها كل وسيلة نقل وطأت أرض البلدة.كان ينظر إلى خدوده المنتفخة المحمرة من شدة النفخ على آلتة الطبيعة،إلى عمامته كجلد ثعبان تلف رأسه وتطل على وجهه الصغير الأسمر.إلى عباءته البيضاء المنسدلة.إلى مزماره ذي القاعدة العريضة المقعرة.إلى كل شيء في هذا الرجل.كان الكبار من رجال القرية يحملون بنادق البارود،و الجبل يطل عليهم من هناك من أعلى،جبل "تاويرت"، والوادي بأشجاره ومائه وصخوره يحملق فيهم من أسفل المنحدر.حتى إذا كف "الغياط" وصاحبه " بلخير" عن الضرب على الأداتين،صاح أحد الراقصين وكان مميّزا جدا ويسمى "مُو مسعود:"ياجاه النبي". يرددها مرتين أو ثلاثا،ثم يرددها الآخرون بعد ذلك، وقد علت وجوههم قسما شدة وجِدّة واستعداد وتجهم، وكأنهم أمام عدو في ساحة معركة - لم يكن أثر المعارك مع الفرنسيين أو الجيش الجزائري قد زال بعد-يدورون دورتين أو ثلاثا؛تميل أجسادهم يسرة حتى توشك

تلامس الأرض، يهمسون بكلمات غامضة. ترتجف أطرافهم بحركات سريعة كأنها جناحي عصفور أخذه البرد على حين غرة و عيونهم إلى الأرض؛ بعدها، تسمع طلقات متتالية للبارود، بعضها في الهواء والأخرى على الرمل تجعله يتطاير في كل الاتجاهات. كان الصبي يضع أصبعيه على الأذنين كي لا يسمع دوي ذلك البارود. كان الصغار يخافون صوته الصاعق فيهربون بعيدا. كان "حمو دحان" و"خالي" "دودة" و"دابوكر"، كانوا هناك، يجوبون المكان ذهابا وإيابا. تتسع عباة أتهم وتضيق أسفل أجسادهم، والبندقيات ترتفع في أيديهم تارة، و طورا تأخذ وضعيات على أكتافهم؛ فوهاتها إلى الخلف، وعلى راحة اليد قاعدة بنية ملساء لامعة. تستوي القاعدة بعدها على بطونهم فتحيط بها اليدان وتشدانها إلى البطن شدا، والفوهات إلى الأمام تهتز لها الأكتاف طيعة منجذبة لإيقاع ذلك الطبل وذلك المزمار. كانت هذه الحركات تعني بالنسبة لهؤلاء العقلاء من أهل القرية الكثير. تذكرهم بالذي خلا من الأيام، أيام الشباب، أيام الكفاح، أيام الأفراح والأتراح. لا يتم عرس إلا وكان الغياط أول المدعوين. كان "بلخير" صاحب

الطبل "البندير" متفردا أيضا في إيقاع قرعه على تلك الاداة. إستطاع تيمح أن يكوّن معه صداقة رغم صغر سنه. كان "بلخير" محبوبا لديه، وكذلك كان تيمح بالنسبة لذلك الرجل. لا يمر عام إلا وانتظره عند كل عرس. ويوم انقطعت أخباره، حزن كثيرا. يومها، وهو في تلك الساحة ينتظره والغياط، ينتظر هناك وحيدا على صخرة في ركن قريب وقد أقبلت الشاحنة بما تحمل من ناس ومتاع، نهض مسرعا من مكانه وجرى نحوها يغمره الفرح. أخذ يتفحص الركاب واحدا واحدا، لكنه لم ير ممن كان ينتظر سوى الغياط. صار يشرب بناظره إلى الأمام لعله يبصر من بين الكل، ذلك الذي هو في حاجة إلى أن يراه، أن يرى "بلخير". أخبره أحدهم أن بلخير لم يأت اليوم ولن يأتي أبدا. لقد هاجر إلى أرض يسمونها "للّمان". عاد الصغير إلى داره وفي قلبه حسرة. منكسر الخاطر. دامع العينين. لم يستطع نسيان ذلك الرجل. ترك فراغا في حياته خلال تلك الفترة لم يستطع التعويض عنه. كانت الأعراس من دونه لا تمثل أي قيمة لديه. باتت مجرد حركات لأشخاص لا عنوان لهم في عقله. لم يتخلص من هذه الصور إلا في السنوات اللاحقة من

حياته.ينطلق الموكب الاحتفالي من تلك الساحة يتقدمه الراقصون وبنادقهم تتلاعب بها الأيدي المتمرسه،وخلفهم الغياط وبلخير.ينحدرون عبر ذلك الزقاق.ينسابون كماء الساقية.يتدفق خلفهم جمع من الشباب والشيب والأطفال إلا النساء.هؤلاء كن يشرفن عليهم من أعلى السطوح الممتدة على طول الزقاق. يسير الموكب حتى يبلغ ساحة العرس؛هناك يأخذ الجميع مكانهم أملا في سهر ينسيهم بعضا من تعب النهار.في تلك الليلة،وبينما الشباب يرقصون في فرح،دخل عليهم إلى ذلك"الحوش"- وكان مكانا فسيحا تستعمله العائلة حظيرة للماشية.فرش بحصائر من نبات الحلفاء وأغطية صوفية من صنع أهل البلد.حوش نظف بعناية،ثم أضيئت أرجأؤه بفوانيس تشتغل بمادة يسمونها "الكاربيل".اصطف الشباب في جوانبه ينظرون وينتظرون،ينتظرون الدور في رقصة قد تجذب إليها عين شابة من المتفرجات في أعلى السطوح القريبة،فيصيبها عشقه،وتلج سهام حبه قلبها،ثم تدميه عاطفة ومودة وسعادة، وتنتهي عروسا له في الصيف التالي.في تلك الليلة،دخل رجلان يلبسان زيا عسكريا ويحملان ما يشبه بنادق

رشاشة يضعان القاعدة منهما تحت إبطيهما. دخلا يرددان بصوت مرتفع "حبس حبس" توقف توقف". هرع الجميع واقفين من الخوف. هموا بمغادرة مكان العرس. تدافع الناس وصرخ بعضهم في وجه بعض متسائلين عما يحدث. عم هرج ومرج ولغط لبعض الوقت، والرجلان يحاصران المكان ويطبقان على أنفاس الحاضرين. إنجلي الأمر بعد ذلك بدقائق، إنهما رجلا ن أحدهما يدعى "سليمان أعاشور"، والثاني "دحان أملود"، وقد ساهما في تنشيط العرس بطريقتهما الخاصة. كاد العرس يفسد في ذلك الليل؛ كانت النافذة تتسع وتتسع كلما تقدمت أحداث العرض وازدادت تشويقا وتعقيدا، والرأسان عليها تتقدمان إلى الأمام، تدفع إحداهما الأخرى حتى تدلتا كثيرا عبر ذلك الفراغ الأسود الرهيب. كانت تنظر من خلالها إلى عريسها قلقة تخاف أن يختطفه هؤلاء الجنود المزعومون؛ بينما ظل الصغير يراقب عبرها المشهد عن كئيب، وعمه يبدو في حلة بيضاء تميزه بين وزرائه، وخيط رفيع أحمر يلف رأسه. يتدلى على الصدر من عنقه كيس صغير من جلد يحمل كحلا ومرودا. كان منشغلا في حديث طويل مع أحدهم.



لا يدري تيمح لم اتفق الجميع على مناداته "مولاي السلطان". كان يعتبر نفسه سلطانا بالفعل. يأمر وينهى. كل طلباته مجابة. الأشياء الجميلة كلها من نصيبه. ربما استفسر أحد جلسائه للحظة عما يجري. قد يكون الحديث دار حول طريقة الانسحاب من الحفل بأقل الخسائر. ربما تذكر ذلك العقيد الجزائري الذي كان يريد اعتقاله لولا شجاعة أمه. ربما اعتقد لوهلة أنه سيكمل زفافه معتقلا في إحدى مخافر الجيش الجزائري على الحدود. ظل ساكنا منتظرا هامسا. اشتد التدافع بين الرأسين على النافذة حتى انتهى بابتسامة من العروس. أمسكت برأس الصغير تعيدها إلى داخل الغرفة وهي

تدغدغه حتى طالت ضحكاته أسطح الدور المجاورة. حاول أحدهم الاتصال بثكنة الجيش بالقرية. لقد أصيب الحاضرون بالفزع والرعب بسبب ذلك العرض المفاجئ. إن حمل السلاح ممنوع. فقد يتسبب بالأذى لأحدهم. خالهم الحاضرون من القوات الجزائرية وقد اقتحمت البلدة من جديد. استمر العرس بعدها على أطباق من الكسكس واللحم الوفير واللبن الصافي والرقص على أنغام المزمارة والطبل وضوء القناديل القديمة. في الغد، اصطحبه أبوه إلى أحد البساتين، حيث الخراف تشوى على قدم وساق تحت الأشجار المثمرة. يتصاعد دخانها المحمل بروائح الدهن يعانق الوريقات، و تحضنه الثمار اليانعة. كان الدهن يقطر على النار فيزيدها اشتعالا. تفوح رائحة اللحم لتخترق أنوف الحاضرين فتزيدهم شوقا إلى إنهاء ذلك العمل، وحمل الخراف المشوية إلى حيث يجري حفل الزفاف، لتتعلق حولها تلك الجموع المنتظرة في باحات لطيفة الهواء، وتستقبلها معداتهم استقبال مشتاق إلى من يحب

جنة في المغرب

نشأ تيمح في قرية هي واحدة من جنان المغرب
الخلافة. جنتان عن يمين ويسار. يتوسط الجنتين واد
دائم جريانه ولو بماء قليل. بنى أهل البلدة عليه
سدين صغيرين، يسمون أحدهما "أكوي تيج"، لأنه في
أعلى الوادي، والآخر "أكوي
نواداي" أو "نووولين"، لأنه في أسفل الوادي. بنيا

لسقي المزروعات في الحقول المترامية على أطرافه.جنتان تسمُقُ بهما أشجار النخيل باسطة أذرعها إلى السماء.تجاورها أشجار التين وأشجار فاكهة أخرى ،مما يجذب العين و يستهوى النفس ويمنيها.وعلى أرضها من كل الخضروات،لفت وجزر وفول و يقطين وخضر كثيرة متنوعة.أرض غنية وجنة فيحاء.مرتع الفراش ومأوى النمل يسرح فيها



حيث يشاء.جنة تمرح فيها الحيوانات في بئر.منتدى الذئب والقنفذ والثعالب.مسرح الخنازير البرية والثعابين.مزار الكنغر-كمارأته زوجة تيمخ وهي صغيرة لا تزال،يحمل صغاره في جيبه.لقد قطع

الصحراء الشاسعة ليسجل حضوره في ذاك الملتقى الطبيعي الجذاب-كنغر أسترالي في القرية!؟ أهى حقيقة أم خدع الصبىة بصرها؟ أرض الحمام واليمام والهدهد والحجل.جنتان تعلوهما أجراف حفر الماء على واجهاتها أخاديد عمودية تتدلى.تزينها رمال ذهبية ملتبهة.أجراف قد بنى الحمام بها أعشاشا ليحتمي فيها على مر السنين ويتكاثر في هدوء،



منشدا أغنية البقاء، تحت نغمت حفيف الريح على
الشجر، وخريرمياه "بَرْكة"، تباركها يدا الولي الصالح
"سيدي إبراهيم" وتحرسها عيناه اللتان تراقبان
المكان باستمرار. لم يتقاعس الناس عن زيارته يوما.
يتقربون بالذبائح، يضعون الشموع ويتبركون بتربيته
وأحجاره، وقد شبعوا من نبق على شجرة سدر اتخذت
لنفسها قرارا قبالاته. لا يتوانون في وضع حفنة دراهم
في جانب من قبره. لم يكن أحد لياخذها إلا عابر
السبيل. كانت "بَرْكة" جزءا من الوادي. بها صخور
ضخمة عملاقة زرقاء اللون، ناعمة
الملمس، مخيفة، يتضاءل جسد المرء إلى أدنى حدود
الصغر وهو يقف بينها. على إحدى جنباتها نبع ماء
عذب فرات، عين "مُو حُو". يتردد عليه السكان بلا
انقطاع. ينهلون من مائه الزلال، يحملونه إلى القرية
في قارورات تروي ظمأهم و عطش من يعجز عن
زيارة المكان من الصغار أو العجزة الذين لا
يستطيعون ضربا في الأرض ولا يملكون إليها
مسيرا. ينبوع سائغ الماء سلسبيل؛ ينتاب زائره شعور
بأنه في جنة من جنات الآخرة، تلك الجنات التي
أسهب القرآن الكريم في وصفها خصرة وماء

وظلالا.عين جارية صافية،تجاورها برك ماء صغيرة
وسط الوادي.تقفز إليها الضفادع من



على الصخرات كلما أحست بحركة تقترب
منها؛وسمكات صغيرة تسبح هنا وهناك في
أمان.كانت عيناه لا تفارقان حركاتها الصغيرة.يراقبها
باهتمام.يحاول الإمساك بها."ها هي،ها هي..ها هي
واحدة.لقد أمسكت بها.هاهي تحرك جسمها
بقوة.ذيلها يرتج يمينة ويسرة.أوه!إنها لزجة.إنها لزجة
جدا.لا تستقر في اليد.
انتظري..انتظري.تعالى..تعالى..آي.لن تفتني
مني..آي!لقد اختفت.اختفت.اللعة،اللعة".وتختفي

السمكات تحت الصخور. كانت يده تغوص عميقا لتعاود الإمساك بها. يصبح الماء عكرا، فتصعب رؤيتها. ينقلب حزينا غاضبا ينفذ يديه من تراب علق بهما وطين. يمسك بحجر صغير ويضرب بها السمكات المختلفة؛ يتطاير الماء على وجهه فيصيب عينيه؛ يصيح بأعلى صوته فلا يسمع إلا صخور الوادي ترد عليه صداه. يتعالى صدى تلك الأصوات وهو يتسرب بين الصخور؛ ينتابه خوف من المكان فلا يبالي. يسمع أصواتا غريبة تتسلل خلال النبات الكثيف كصفييرٍ خفيفٍ يمتد عبر الزمكان بلا مدى. يستفحل داخله الخوف. تتضاعف دقات قلبه فيقوم بسرعة، يقلب بصره في كل صوب يتحسس مصدر الصوت فلا يجد شيئا. يتوجس خيفة من ذلك الصمت الرهيب والهدوء القاتل اللذين يغلفان المكان فجأة؛ يقشعر بدنه من الرعب ثم... ينتبه على صوت ضفدع ينط على صفحة ماء البركة المجاورة. يمسح عينيه بأسفل عباته ثم يصعد إلى أعلى صخرة كبيرة، يجلس و إحدى يديه على خده، يمسك بالأخرى عمودا صار يضرب به الصخرة غاضبا. يتشبث بالصخرة بأصابع قدميه مخافة انزلاق يحطم أنفه. ينتظر صفاء الماء لينزل بسرعة

عسى أن يصير له حظ هذه المرة من تلك السمكات. لكن ظلال جبل "أجضيض" بدأت تطرد الطفل من المكان. ها هو الجبل يبعد الشمس و يوارىها خلفه. يعود الصبي يندس وسط الوادي، ينتقل بين صخوره وبركه ونباتاته. يدفع النسيم المتدفق بصدرة فيتطاير شعر ناصيته عاليا. صار الوادي يلفظه ببطء وهو يتقدم نحو القرية حتى يدركه الليل بين أحضان أمه. غير بعيد، كان فرن الجير أسفل ذلك الموضع. كان يرغب كثيرا في رؤيته. ظل اسمه يرسم في خياله حكايات غامضة. لم يكن يعرف ما هو. يخشى أن يتقدم صوبه. يخاف أولئك الرجال الواقفين هناك قريبا منه على الحدود مدجين بسلاح يرفعونه ولا يفارق راحت أيديهم. كان يخاف سلاحهم الأهوج. كانوا يطلقون الرصاص في الهواء عشوائيا ليهلع أهل القرية المترددين على هناك بانتظام، أو ربما ليقتلوا حيوانا برياً يجوب المكان بلا رحمة. لقد رغب جدا في معرفة كيف يستخرج الجير. تلك المادة التي رأى الناس يطلون بها جدران بيوتهم فيفارقها السواد. لم يكن يعلم شيئا عنها ولا عن كيفية استخراجها آنذاك. كان يتلقف اسم الفرن

بسمعيه من أفواه الكبار فقط، فيسبح به في غياهب الشوق إلى بلوغه. طلب من "أحمد أيّدريس" ذي النظارات البيضاء والشعر الناعم يتدلى على جبهته الضيقة، طلب أن يصحبه إلى ذلك المكان يريد اكتشافه. كان يتمنى ذلك بجموح. ظل ينتظر أن تتحقق رؤيا هذا الرجل بسرعة. لقد أخبره أن رؤية فرن الجير ترتبط بظاهرة غريبة يجب أن تحدث. ظاهرة إذا ما حدثت، فسوف تغير الكثير من الأشياء في العالم، عالم قرينته الصغيرة؛ بل ربما تتغير معها كل قوانين الفيزياء. يجب أن يرى الملح و قد نبت وصارت له أغصان، ثم أزهر بعدُ وصارت له ثمار. كان هذا شرط الرجل ليقبل بمرافقة الصبي إلى الفرن الغريب. ظل تيمح حتى عهد قريب من طفولته ينتظر حدوث الأمر. لم تكن لديه أية فكرة عن موعد زرع الملح، ولا عن المكان الذي سيتم فيه ذلك، ولا متى سيبدأ بالإنبات، ولا حتى شكل ثمراته. ظل ينتظر فقط و ينتظر، فقد يحدث ذلك يوماً، فيتيح له فرصة الذهاب هناك. لكن بدل ذلك، كانت القوات الجزائرية تعتدي على المكان باستمرار، لتسيطر عليه، فتبخر حلمه. كان نبات "الدفة" بزهراته الملونة يقف على أطراف الوادي،



"الطريش"،



كان يحلو له ولأقرانه قطع غصن منها ونثر سداته
على رؤوس بعضهم البعض،والشمس تفتت

لهم، وتعلو الفرحة محياهم، وتزيد زهرة الصبي
وجوههم اهتلالا.

نشأ في هذه الجنة، بلدة طيبة ورب كريم. يجاور
الوادي حقل واسع يدعى عند الناس هناك
"مَخْلُوفٌ". تطل عليه نخلات طالت سيقانها حتى
بلغت زرقة السماء. قد استقرت في وسطه مائلة
كثيفا



جريدها، تتعانق في سلام، وترصد من عل كل حركة تدب فيه، وكل مخلوق يطأ أرضه. تعزف الشمس بأشعتها الصافية على سعف الجريد لها نغما؛ متعة للناظرين، وسلوى للعابرين، وذكرى للعابدين. مكان لا تزيله الظلال أبدا. ظلال

نخلات تتبختر و هبات الرياح الخفيفة القادمة من خلف الجبل القريب، جبل "أجضيض". ظلال تمده بالنسيم البارد اللطيف أيام الحر. مكان لقنص الحجل، ومقام للعrsان يحتفلون فيه وأقرانهم بانقضاء الأيام الثلاثة الأولى من العرس. أجراف "بَرْكَة" قد ترك الماء عليها آثارا لا تزول، آثارا تدل على أن القرية قديمة وعريقة، وأنها ربما نشأت نتيجة انزلاق و انجراف شديدين للتربة حدثا



منذ ملايين السنين.على الأجراف فراش رمل ناعم
يبسط يديه يمينا ويسارا.تزداد حرارته كلما صافحته
الشمس عند كل شروق.تعلوها جبال أحدها يأخذ
شكل قرن يُعتقد أن اسم القرية منسوب إليه " إشن "
أي "القرن" عند تأمله جيدا،يبدو كنسر جارح يحرس
القرية منذ الأزل،بل هو كتاب مفتوح الصفحات
لمن تاق إلى فهم أسرار الحياة على هذه
الروضة.على رأسه حجر كبير متحرك مفصول
عنه،متقدم بطرف منه صوب القبلة تماما.ظل
تيمح يدفعه ذات يوم لَمَّا بلغ تلك القمة بشياه
جدته.يدفعه ويدفعه يبغي زحزحته من مكانه. صار
الحجر يتحرك متلكئا.كاد الطفل أن يغير معلمة
نحتها الطبيعة منذ حقب ولت.أوشك أن يدخرجه
من خلال السفح السحيق.كان في نظره مجرد
لعب،مجرد تسلية.تذكر أن ذلك سيجر عليه غضب
أهل القرية فأحجم عن فعلته.خاف دعواتهم عليه.
وهو يتقدم بالشاء عبر منحدر شديد، كاد يسقط

ذلك اليوم وتفتت عظامه و يتلاشى جسده عبر
صخور جبل



"مَنَعَة" لولا أن تداركته عناية الله، وتردده في دفع
الصخرة. انقلب عائدا بالشاء وقد ترك الجبل على
حاله. يؤدي وظيفته الطبيعية. كان بوصلة لمن يريد
أن يعلم اتجاه القبلة. وغير بعيد منه، يتراى جبل
"أجضيض" وقد اتجه برأسه نحو القبلة كأنه أسد
يقف صامدا ينتظر الشروق.



لا تفصل الجبلين سوى إحدى الشعاب التي دأب السكان على تسميتها "ثلاث نوبيان" شعبة "أبيان"، وهو ربما أحد القادة الفرنسيين الذين حملوا هذا الاسم، والذين وطئوا تلك الأرض خلال الإستعمار الفرنسي البغيض. ذهب هناك وجدته وبعض النسوة. كان المكان أبيض اللون، ذا تربة سريعة التفتت يطلق عليه السكان اسم "أشنكيل" وهو الجبس. حفر الصبي بحجر على جانب من المكان يريد استخراج قطعة منه. كان يشبه الطباشير، لكنه سريع التكسر لا يصلح للكتابة على لوحته. أخذت جدته تحذره من الذهاب بعيدا

في تلك الشعاب، فقد يختطفه جندي فرنسي ممن
كان المكان يعج بهم يوما ما.



رمى بالحجر بعيدا يحسب أنه لا يزال يحمل شيئا من أثر
الغزاة.أخذ يلقي به بعيدا وبعيدا وهو يتقدم مبتعدا
عنهن.يبتعد ويبتعد،تستدرجه تلك الشعاب إليها رويدا
رويدا حتى تكاد تبتلعه.فإذا اتسعت المسافة بينه وبين
مرافقاته،سمع إحداهن تناديه:"إرجع،إرجع.هناك

رومي...خلفك رومي". يدير قفاه للقبلة، ثم ينطلق مسرعا إليهن وهو فرح بإبعاد الحجر الذي لمسَه الفرنسيون عن قريته. لم يغب عنه أيضا ذلك المكان المسمى "تلات نعقيد"، والتي كانت عبارة عن شعاب تكون مع نهاية أحد الأجراف شلالا تتدفق عبره مياه سيول سفح الجبل القريب فتغرق جانبا من البساتين المجاورة. ربما ارتبط المكان باسم عقيد فرنسي أو جزائري كان المكان منطلقا لأحدهما لتهديد سكان القرية. كان ينظر إلى الأخاديد التي خلفتها تلك السيول بخشية ورهبة وهو يتخيل ذلك العقيد- الذي لم يخل حديث كبار القرية من ذكر اسمه في ساحاتها- وقد اتخذ من المكان مخابأ له، يتربص بمن يمر فيقتله أو يحتجزه في انتظار اقتياده إلى معسكرات التعذيب. لا يتحدث هؤلاء عن أمر ولا شخص ولا مكان إلا كان له قدر من الصدق في الواقع بالقرية. كان الطفل يثق بهم، ولذلك كان يقترب كثيرا من مجامعهم ليتزود بما لا يعرفه أطفال القرية الآخرون من معلومات مثيرة.



في الجهة الغربية، يقف جبل "تاويرت" شامخا
يفترش قدمه رملا ناعما تعلوه حمرة. تغطيه نباتات
شوكيه قصيرة وسدر أثيث. ينمو في أرجائه نبات
الدّوم. ما يفتح عينيه صباحا إلا قابله بصخوره
الصماء، وقمته الشاهقة. ثم يلقي ببصره شمالا،
ليجد وادي "المشّمَن" على الحدود بين مرتفعين
قليلي العلو، اتخذ الجزائريون من أحدهما نقطة
مراقبة،



وكان شاهدا على أحداث جسيمة. أشجار باسقات
غضة طرية الثمرات: لوز وجوز وكروم ونخيل وظلال
وارفة. ما يبهر العين، ويأسر القلب، ويذهب بالألباب
إلى درجات الجمال العالية. تتخللها أصوات
العصافير من كل الأصناف. أكثر ما كان يجذبه إليها
وهو صغير، هو الهدهد. لقد ارتبط في ذهنه بتلك
القصة القرآنية "هدهد سليمان"، والتي كان يستمع
إليها في "أخربيش" المسجد أو الكتاب القرآني فجر
كل يوم وهو يقبل يد فقيهه ويقدم له الواجب
اليومي، بيضة وعشرين فرنكا. كان الصغار ملزمين
بالقيام فجرا. يصعدون درجات سلم
الصومعة. يدخلون بعدها إلى غرفة واسعة بها نافذة
تطل على ساحة الجامع؛ سقفها من جذوع أشجار

قوية. فراشها حصير. هناك، حيث لا أحد غيرهم
والفقيه، كانوا يتلقون الدروس الأولى في
الحياة، دروس تهذيب النفس. دروس الإنضباط
والإمتثال لعادات المجتمع ومبادئه
ومعتقداته. وتغرب الشمس على المكان بخيط رفيع
من شعاع يغادر جدار



المسجد بطيئا. يبدو من تلك النافذة شاحبا فاترا
يزحف وكأنه يودع المكان بلا عودة. كان الهدهد
ملونا. ذو عرف يعلو رأسه بريش جميل. رآه ذات يوم
على جذع نخلة سمقت وحيدة وسط أحد
الحقول، في جانب من تلك الجنة دأب القرويون
على تسميته "بوغبول". أرض اليمام ينشد فوق

نخلاته لحن الوجود؛ وتغني الساقية مع اليقطين
فيها سمفونية الحياة.



نشأ في هذه القرية ذات البساتين الخضراء، والجبال
الشماء، تتنفس من نقي الهواء، وتشرب من عذب
الماء. كان خالي "عمار" صاحب البقرة الوحيدة
بالقرية رجلاً كثير الدعابة. كان يطرب سامعيه
بكلمات تجعلهم يضحكون من الأذن إلى الأذن. كان
غناؤه كلمات ملحنة لم تكن ذات معنى
أحياناً. مفرداتها مزيج من لغات قد لا تكون موجودة
في ذلك العالم: "أَبَهَانُ دَوْسْتَانُ أَوْشُ مِدَلِّي أَوْتِرِينُ
كَازِلُ فِرْلِي". كلام غريب كان الطفل يقف أمامه

مشدوها شاردا الذهن يتمنى ألا يتوقف صاحبه عن ترديده أبدا. كان يغنيه راقصا وهو يمد يده إلى كتف هذا بعد أن ينزعها من كتف ذاك، يمسكها لبرهة، ثم ينتقل إلى كتف الآخر، وهكذا إلى أن ينتهي به الحال إلى آخر الزقاق، فيغادر متوعدا من يدخل بساتينه بتقديمه فريسة لبقرته وعجلها. كان تيمح يعتقد جازما أن البقرة تأكل البشر. لكن ما كان يخيفه أكثر، هو تلك القرون الحادة التي تمتلكها. كان يخاف أن تنطحه فتبقر بطنه. كان الرجل يملك حقلا به شجرة مشمش ليس لها مثيل بين اشجار بساتين القرية. كانوا يسمونه مشمش "فرانسيس"



كانت ثمرة المشمش بها كبيرة حلوة المذاق. ليس لأحد أن يقترب من شجرتها أو يحصل ولو على حبة فاكهة منها دون إذن خالي عمار، ما عدا تلك التي تسقطها الرياح على الأرض. كان تيمح يلتقطها إن مر بالمكان، يتقاسم تذوقها مع الأقران بعد أن يمررها فوق ماء الساقية- ماء لم ينضب لعشرات السنين- ثم يمسحها بظرف عباءته. صارت الأيدي تمتد إلى فم كل من جاء دوره في تذوق تلك الفاكهة. تنتزعها بعد قضة واحدة صغيرة. تتقاذفها الأيدي الصغيرة. يعم الصراخ المكان. هاهي تسقط بين الأعشاب. هاهي كومة من الرؤوس تتراكم فوقها، والأيدي تتشابك بحثا عنها في فوضى. يزداد الصراخ تعاليا، والمكان صخبا، وضحكات تخترق ذلك الضجيج بين حين وحين. تلتقطها يد فيفر صاحبها مبتعدا وقد وضعها في فمه فامتلات بكل ما علق بها. تنتفخ وجنتاه. ينطلق ممسكا بالطرف العلوي من سُرِّيِّه الذي يكاد يسقط من شدة ما جرى و التفت خلفه ليتأكد إن كان أحدهم يتبعه. كان خالي عمار يخيفهم ببقرة وعجلها. كانوا فعلا يخافون خوارها وقرونها. كانوا يفهمون فيه تهديدا لهم، فكانوا يبتعدون. وتبقى الفاكهة لخالي عمار، لا يتملى

بمنظرها ،ولا ينال لبها أو يستمتع بمذاقها ،سوى من
أذن له بذلك، أو رضيت له بقرته وعجلها الإقتراب
منها. كأنه قانون معلق بين تلك القرون لا يظهر إلا
لمن استهواه الحقل بما احتواه من نبات وثمار.
نشأ في هذه القرية ذات الجنتين، ناس طيبون
تحكمهم أعراف القبيلة وتقاليدها. لم ينس أبداً ذلك
الخصام بين والديه ذات مساء. قرر أبوه
إبعاده إلى مرتع الشاء الجبلي؛ هناك بعيداً عن أمه،
إلى منطقة تبعد عن القرية بكيلومترات عديدة.
تحيط بها جبال ذات صفائح صخرية حيث
الإنكسارات و الإلتواءات تبدو للعين جلية ،وتدل
على ما شهدته



الأرض هناك من اضطرابات وهزات عنيفة خلال العصور القديمة. منطقة معشبة. على أرضها رمل تعلوه نباتات مختلفة ترتع فيها الأغنام عند الربيع. ودعته أمه في ذلك المساء عند سلم منزل أهلها. كان يتردد على السلم وهو صغير ما يزال. كان مظلما. يدخله عبر باب ضخمة سوداء وحيدة تؤدي إلى بهو شبه مظلم "الرحبة" لا تزوره الشمس إلا من خلال قيس يلامس ظلقتها عند الظهيرة إذا توسطت الشمس السماء وفصل الحربة غرفة مظلمة كانت بمثابة مستودع لمؤونة العام. بابها من خشب ضخم أيضا. لها مفتاح كبير ثقيل من المعدن. ما من أحد يستطيع الإقتراب منه لكثرة الظلام والظلال فيه. كل شيء كان هناك في تلك الغرفة المقفرة المخيفة. سمن وبطاطس وفلفل أحمر ومسحوق الطماطم، وتَمْرٌ مُخَزَّنٌ داخل جلد عزة تم دَبَّعُهُ بمسحوق قشور الرمان. تين جاف منسم بأعشاب العرعر والشيخ داخل جرة عظيمة "تخابيت"



صوف أغنام ولحم مقدد. كانت الدجاجات تسرح في حوشه بأمان. تلتقطن كل ما يلقي إليهن من فوق، من فجوة غير ذات سقف تواجه السماء وتنتفح عليها مباشرة. ترتبط بمطبخ عائلة "آت بلحسن". ومنها دأبت النساء على رمي ما تبقى من فتات خبز أو بقية طعام. كانت البناية تشبه عمارة من طابقين. كانت أربع ساريات، وهي أعمدة من صخور ضخمة وطين، كانت تحمل الأبنية التي تعلو البهو والمطبخ وغرف النوم وغرفة الضيوف المزركشة بألوان يغلب عليها الأزرق، ثم أخرى تحمل سطح الدار الذي



تعلوه شرفة بها كوة تقع العين من خلالها مباشرة على ساحة المحطة. إنها وسيلة النساء الوحيدة لرؤية العالم الخارجي دون إذن أزواجهن. على سلم أهلها، كانت أمه تلتحف "أعبان" الحايك وهو عبارة عن إزار أبيض يغطي كامل الجسم - كانت تبكي. ربما لم يعد مسموحا لها برؤية ابنها بعد ذلك الخصام؛ أو ربما اعتقدت أن ذلك المساء، سيكون آخر عهد لها به. همست له بكلمات لم يعد يتذكرها. ربما حتى في ذلك الزمان لم يفهمها. ربما تعلقت بما جرى بينها وبين أبيه...

إنطلقا واصفرار الشمس، تحملهما بغلة بيضاء. كان يركب خلف ذلك الرجل "محمد أعبال"، يراقبهم من بعيد، جبل "منعة" ذو المنحدرات الوعرة. وخلفه الشمس تخفي أشعتها رويدا رويدا في استحياء. لم يكن يفهم من الحياة وهو على متن تلك الراحلة، سوى ما كان يحيط بهما من جبال، والطريق التي لا تنتهي أمامه، و الوادي الذي كان أسفل الجبل تماما، والظل الذي كان يمشي الهوينى زاحفا عبر الجبل المقابل، يحرك في هدوء بعض الأعشاب الصغيرة المنتشرة على سفحه. لم يكن يعرف عن مرافقه سوى أنه قريب لأمه. كان طول الطريق ينظر أمامه دون أن يلتفت إليه أو يكلمه. طويل الظهر هزيل المنكبين. يضيق ظهره عند الكتفين قليلا. يمسك اللجام ولا يفارقه. على رأسه عمامة بيضاء يتدلى جزء منها على رقبتة وبعضها من ظهره. كان تيمح يلبس جلبابا صوفيا. ظلت رياح أبريل تصفع وجهه كلما حاول اختلاس النظر إلى الطريق أمامه بعد أن تجاوزا المنعرج المسمى هناك "تاغيت". تصفح المكان ببصره مليا وهو يضع يديه حول خاصرة الرجل. كانت البغلة بطيئة تسمع لحوافرها وقعا وهي تصعد الممر الذي



نحتته أقدام الناس وحوافر الدواب على مر الأيام. لم يكن يفهم- وهو على ذلك المسلك الجبلي، وتتردد على سمعه ولا تفارقه- سوى كلمة "لمخلف" وتعني عند أهله آنذاك "مرتع الشاء". لم يتذكر متى وصل هناك، لكن في الصباح الباكر، وجد نفسه ينتقل بين أكوام الرمل الناعم، يقفز عليها كالفراش. يجري خلف جدي وجدية هنا. ويداعب حملاً أو يهرب من كبش ذي قرون حادة ملتوية هناك. لقد نسي القرية ونسي أمه ونسي تلك الخصومة تماماً. اجتمع كبار القرية أثناء غيابه وتم الصلح بين والديه. عادت أمه إلى الدار وعاد هو إلى القرية. لم يجد أباه. لقد غادر دون أن يراه، دون أن يودعه. وجد أمه وقد عادت إلى دورة الحياة اليومية الرتيبة. إلى أيام سود. أيام بؤس وشقاء ومشاكل

تتكاثر كالجراد الذي هاجم بساتين القرية في أيام نحسات "عام الحريرة" كما اتفق الجميع على تسميته.أخذ الناس الجراد يومها لهم غذاء ،يطهونه داخل قدور.كان عام مجاعة حقيقية ضربت البلدة بمن فيها وما فيها.وجد أمه تكسر عيدانا وتضعها في الكانون. كانت سعيدة برؤيته من جديد. كانت تراه ضمانتها للإستقرار في ذلك المنزل.لكن نظراتها أخفت الكثير. لقد كانت الجدة هناك، لقد عادت.كانت في نظرها متسلطة، تمثل الشطط داخل تلك العائلة. تضرر لها السوء، وتتحين الفرصة لتفرق بينها وبين زوجها ، لتبعدها عن ابنها، لتستبدلها بأخرى تراها خيرا منها. ربما كانت هذه الأمور مجرد خيال تنسجه المرأة يوميا بحكم ملاحظاتها و تصرفات الجدة وطريقة تعاملها معها. أدرك الصبي بعدها بسنين أن الذهاب إلى " لمخلف" لم يكن سوى مظهرا جليا للعلاقة التي ربطت بينه و بين جدته، تلك الرابطة التي جعلته يفارق أمه وهو في المراحل الأولى من حياته، ليواجه الخلاء، حيث لا شجر ولا ماء ولا بناء .



ظل ينظر منبها إلى تلك الطبيعة الموحشة. رمال صفراء تتوزع عليها في غير انتظام، نباتات شوكية تقاوم الطبيعة في صبر. جبال متماسكة الصخور تظهر على مد البصر غرابيب اسودت وتشكلت صخورها في صور عجيبة كأن نحاتا مر بالمكان منذ ملايين السنين.



ووديان غار ماؤها، تحرسها جلاميد استقرت على
حواف ضفافها. وخيمة انعزلت هناك تتأمل من
بعيد ذلك الفضاء



الشاسع الممتد على أرضية تلك الصحراء المقفرة.
وفوق هذا وذاك ،شمس تراقب كل شيء وتمد
دفئها بسخاء.

الجزائريون يعتقدون

لم يذكر من أيام حياته الأول، سوى ما حدثته به
جدته خلال ليالي البرد الشديد،عن اقتحام القوات
الجزائرية للقرية، وانتشارها في أزقتها،وهي مدججة
بالسلاح تبحث عن الشباب لاقتيادهم إلى
معسكراتها غير بعيد من الحدود،تنوي تعذيبهم.-
حكّت ذلك في غرفة مظلمة "لَقْسَر"،لم يكن يعرف
منها غير جانبها المجاور لبابها،حيث يصل بريق من
ضوء يجليه قليلا؛وركن على يساره ترسو به جرة
تملؤها فاكهة التين المجفف.أما جانبها الأيمن،فكان
نفقا لم يكن يعرف منه سوى ما يلفه من ظلام
حالك السواد،سوى أنه كان يمثل غرفة جدته التي
تحفظ فيها أسرارها ،وغوامض حياتها المثيرة-
وحدث أن طرق أحد القياد الجزائريين باب منزل
عائلته؛أخذ يصرخ بأعلى صوته غير مبال بفرع

النساء والأطفال، ولا بتعاليم الدين، ولا بما قدمه أهل القرية من مساعدات وتضحيات إبان الإستعمار الفرنسي لبلاده. كان المجاهدون يختبئون في دهاليز القرية وكهوف أجرافها، ويخبئون بها متاعهم وأسلحتهم. كانت منطلقهم عند كل إغارة على العدو. أكلوا مع أهلها مما تنبت أرضهم، وتعطي ماشيتهم؛ كما شربوا من سواقيها ماء عذبا زلالا. وقفت جدته رحمها الله خلف الباب تخاطب العقيد الجزائري. لقد كانت امرأة مغربية بحق. حديدية بما للكلمة من معنى. محبوبة محترمة. رأها صلبة يوم لدغتها أفعى سامة وهي تحطب من الحقل البعيد هناك. كان الناس ينادونها بـ "ناتّا". في ذلك اليوم، جاء "أحمد أعبّال"، الخبير في لدغات الحيات؛ وضع بعض الأعشاب على مكان اللسعة، وربط الذراع بقماش أبيض بال، ثم شد يدها إلى عنقها. كانت في بهو الدار ممددة، واتخذت من تربة الأرض لها سريرا. كانت تئن بشدة. اقترب منها الصغير باكيا يمسح بكمه عينيه الدامعتين. تقدم ببطء. لم يكن يريد أن تتعرض جدته لذلك الحادث. خاف أن يلمس جرحها فيزداد ألمها. جلس بجانبها. كان يحبها كثيرا. حزن لما أصابها

فبكى بحسرة. ظلت عشبة "الرمث" ويسميتها أهل القرية "تيسايت"، أكثر الأعشاب البرية نجوعا في هذه المواقف. لا يعرض عقرب أو أفعى شخصا إلا كانت له تريباقا من سمها. كانت حاضرة في كل البيوت. ربما استعملها ذلك الخبير يومذاك. مات زوجها وتركها. غادرها وبين يديها الفقيرتين أبناء وبنات. فقيرة إلا من بعض البساتين وقليل من الأغنام فتح عينيه عليها وهي تتغو مع خرافها الصغار في حوش أسفل الدار. بساتين لا من يقلب تربتها، ولا من يزرع بذرها، ولا من يغرس شتلات شجرها غير تلك اليدين اللتين ستربيان هؤلاء اليتامى. كانت جدته تخرج باكرا ومعها بنات القرية. تجتمعن ما يصادفنه من حطب. ترتبه في حزم تربطها بحبل ذي عقد، وبحركة خفيفة مدروسة، تضع كل حزمة على ظهر صاحبه من أولئك الصغيرات، ثم تحزم بعدها ما حطبت وتفعل به ما فعلت بحزم الأخريات؛ تضعه على ظهرها ثم تنطلق و الوادي يردد صدى أغنياتها، مشفقا لحالها. أغنيات تحمل كل عناوين الأسى والحزن على فراق زوجها. لقد تركها وحيدة بلا سند.... وهاهي اليوم وحيدة أمام ذلك العقيد الجزائري تحمي من غطرسته يتاماها. ومن

الحقول المجاورة صارت تجمع ثمرها تخلت عنه شجرة هنا أو أخرى هناك.تحمله إلى البيت حيث هؤلاء اليتامى و تلك الشياه ينتظرون.كان عمه حاضرا يومها.كان يسمع طرق الجندي على باب الدار.كان عليه أن يتقدم ويخاطبه.كان عليه أن يخرج لملاقاته.كان عليه وهو الرجل في ذلك المنزل أن يرد أذاه.أن يبعده.أن يصده حتى لا يستمر في إفزاع من بالداخل.ظل صوت ابن أخيه الصغير يزعج مسامعه.كان يصرخ بقوة فجر ذلك اليوم.كان رضيعا في الأشهر الأولى من حياته.لم يكن عمه منشغلا به أكثر من انشغاله بما قد يُقدم عليه الجندي الجزائري.لقد كان خائفا جدا وهو ضمن المبحوث عنهم.نادى من تحت الغطاء بصوت خافت،نادى مستهزئا بالصغير مخاطبا أمه:"أسكتيه،أسكتيه،إنه يناديهم،إنه يدلهم على مكاننا .سيفضحنا..."وتحكي الجدة أن العم في ذلك الصباح،كان في أقصى الغرفة التي جمعت فيها العائلة المرتعبة،بينما جلست النسوة وسط المكان.أما الجدة،فقد اختارت الخروج.آثرت المواجهة.تقدمت خلف الباب وأخبرت العقيد "المتعنتر"أن لا أحد من الشباب في المنزل.وقفت

خلف الباب تحدثه أنهم خرجوا كلهم وذهبوا إلى فجيح. إستشراط العقيد الجزائري غيظا وغضبا وأخذ يضرب الباب بكل قوة. يضربه بقاعدة سلاحه العريضة... لو أطلق رصاصة لفتق بطنها. لأخرج أحشاءها. لو أطلق النار، هل كان ابنها المختبئ و المطلوب لدى الجيش الجزائري، هل كان سيخرج من مخبئه ويبيكي أمه أمام ذلك الجندي؟ كان السلاح بيده. قد يقتله هو أيضا. صاح الجندي في وجهها: "أين دار بوعزة؟ أين دار بوعزة؟"

بوعزة "هذا، هو زوج عمه تيمح المجاهدة "الزانة" ، التي طالما آوت الجزائريين وقدمت لهم الطعام والحماية. لا يذكر شيئا عن حياة عمته في ذلك التاريخ غير كونها سكنت خلف باب بوطويل، غير كونه ذهب إليها صغيرا مرات ومرات عبر تلك الباب الرهيبة- ربما مر الجزائريون من هناك أيضا طلبا للإختباء أو الطعام أو لوضع الخطط. كانت الباب شاهدة على تواجدهم وما قدم لهم خلفها من عناية. لقد رحبت به في دارها، سقته لبنا شهيا وأطعمته زبدة خالصة. كانت عمته وطنية عربية أصيلة. دافعت عن الوطن، ومدت يد العون للعرب

من الجزائريين في محتهم، تمرا ولبنا ورغيفا وسترا. كان بوعزة زوجها، وكانوا يُطلقون عليه احتراماً له اسم "باعزة". كان سياسياً محنكا في بلده على ذلك العهد. عرف كيف يصرف الفرنسيين عن المجاهدين بدهاء وذكاء. كما وأن دهاءه امتد إلى صرف الجزائريين عن أبناء قريته. كانوا يدخلون داره، يقدم لهم الطعام وتلين لهم كلماته. يذكرهم بما قدم شباب القرية وأهلها للمجاهدين أمام القوات الفرنسية فينصرفون والكبرسحتهم. يغادرون متوعدين بالعودة، وقد وقى البلاد والعباد شهرهم. كان فلاحاً تاجراً سياسياً، ليس بما تعنيه السياسة اليوم، بل ذا شخصية محاورة فطنة. عرف كيف يجادل ويقنع ويمتص غضب المعتدين. حديثه متأن مُتَرَوِّ. يختار الكلمات المناسبة للموقف الذي يواجهه. كان العقيد الجزائري يريد "دار بوعزة". كان الوحيد في القرية القادر على فهمه - كانت الجدة تحاول إبعاد هذا المعتدي عن يوجود داخل الدار. أخذت تخاطبه وتناديه برفق "يا ولدي، إن الأولاد ليسوا هنا. لا توجد غير النساء والصغار من الأطفال". يشدد طريقه على الباب أكثر وأكثر. وما تزال تحاوره وتهدهه حتى

يمضي متوعدا بأسوأ ما يمكن أن يقال ويفعل. في طريقه إلى دار "باعزة" كما حكت جدة الطفل، كان وقع أقدام الدورية الجزائرية يصم الآذان، ورائحة سجائر قائدهم تسد الأنوف وتخنق الأنفاس. خطواتهم تبعث الرهبة في قلوب الأطفال والنساء هناك.... كان الصبي من بين المحاصرين داخل الغرفة. لا يعلم شيئاً عما يجري. كانوا فقط خائفين...

في تلك الفترة التي لم يتمكن من تذكرها والتي كان مصدره الوحيد فيها هو حكايات أمه وجدته، وهي الفترة التي كانت مزيجا من حالة السلم والحرب باعتبارها على الحدود، استطاع أن يستحضر بريقا من ذكريات نساء على سطوح المنازل في يوم النحس ذاك الذي دخل فيه العسكر الجزائري إلى البلدة وأراد بأهلها سوءا. املأ الزقاق الرئيسي "اسقاق" نائعبد الصادق "بعناصره المسلحة وحول البلدة إلى ساحة لعربدته. طفقت النساء تلوحن بأطفالهن الصغار العراة إلا من سريل قصير يستر الجزء الأسفل من أبدانهم. يفعلن ذلك لعل الجندي الجزائري آنذاك، يستحيي من ضعفهن وبراءة

أطفالهن،أو يتذكر ما أسداه أهل القرية من تضحيات لصالح قضيتهم الوطنية.تلك صورة لا يمكن أن ينساها عن تلك الفترة،صورة محفورة في ذاكرته لا تمحى.في تلك الأيام سُرق أثار جامع القرية،استفاق الناس ذلك الصباح على خبر السرقة،وتمر أمام مخيلة تيمح صور الجنود يمرون جيئة وذهابا عبر الزقاق بين الجامع وثكنتهم.رأى الصبي شاحنة عسكرية طويلة هناك،جسمها من فلاد صلب تتدلى منه سلاسل كبيرة.كانت العجلات ضخمة-رأى بعض الجنود يمشون،ويسير الهولة آخرون.ربما سمع أنهم أمسكوا بأحد السارقين اللذين باتا في الجامع متنكرين بصفة وزى أعرابين من أعراب البادية وانصرفا مع الفجر يحملان ما كان به من فراش و مصاحف.في هذا الوقت،كان رجال القرية وشبابها ينتقلون بين السطوح،يتوجهون جنوبا إلى فجيج في جنح الظلام.كان مبحوثا عنهم بدعوى معاونة الفرنسيين.ربما استغل السارقان فرصة انشغال السكان بهذه الأحداث؛إذ لزم الجميع ديارهم،وفرغت الأزقة تماما وخلت من أي حركة لبشر.قد تكون القوات الجزائرية هي من أرسلتهم،أو هي نفسها من قامت بالسرقة.

كان في غير ما مرة يرى الطائرات النفاثة تخترق سماء القرية وهو يلعب مع الأقران على الرمال في ساحة "تلات نعلو". حينها، كان يمسك بحجر و يرمي به الطائرة المحلقة في السماء. يتتبع بعينه ذلك الحجر ليعرف مكان إصابتها و مدى ما لحق بها من ضرر. ينظر إلى ذلك الجسم الفولاذي وهو ينفث دخانا أبيض يتبعه كطفل يمشي خلف أمه قبل أن يتلاشى بعد أن تبتعد عنه كثيرا- كان يعلم من الكبار آنذاك أنها طائرات فرنسية متوجهة لضرب الجزائريين. كان صوت إلقاء قنابلها يسمع في القرية واضحا- كان الحجر يسقط في الوادي المجاور فيفرح الطفل ويقفز ويصيح بأعلى الأصوات. كان يسبها ويلعنها ويشتم. كان يعود إلى منزله تعلقو محياه فرحة. يخبر أمه وجدته بعمله البطولي. لا ينتظر أن يسألنه، بل يبادر أنه ضرب طائرة معادية و أسقطها بعد أن أشبعها سبا وشتما. ها هو ذلك الجسم يتدحرج عبر المنحدر. لقد بلغ أحد الحقول. ها هو قد تحول إلى أجزاء مفتتة. بعض القطع تجاوزت الساقية واستقرت مع بقية الصخور في الوادي. كان حجرا كبيرا ذلك الذي

قذف به الطائرة الفرنسية. ظل يعتقد أنه اعترض طريقها وأصابها فانتقم بذلك منها للجزائريين.

نشأ في هذه القرية المحاذية للحدود، هناك ،حدثته أمه ذات ليلة عن أخ له يسمى "عبد العزيز"،رضيع مات أياما قليلة بعد ذلك اليوم المشؤوم الذي اقتحمت فيه القوات الجزائرية القرية كعادتها مستبيحة كل مكان بها ،وقد نصبت مدافع المورتر على بعض أجرافها.خاف السكان بطشها،فهرعت النساء والأطفال إلى الكهوف طلبا للاختباء؛.قطع و أمه والصغير المسافة عبر منزل قريب،ثم عبّر زقاق مظلم،ليصلوا إلى كهف تحت جرف مجاور؛



دخل تيمح أولا.ثم،وهي تحمل أخاه على ظهرها،مدت رأسها تحاول الدخول،لكن شيئا ما جذبها إلى الخلف.ومن شدة فزعها وخوفها،أخذت تدفع جسدها بقوة وهي لا تدرك أن المانع من دخولها هو رأس ذلك الصبي الصغير الذي كلما ارتطم بحافة الجرف،أعاق حركتها نحو الأمام.كانت خلفها نساء أخريات يردن الاختباء أيضا.كن يدفعنها من جراء خوفهن.مات أخوه متأثرا بما حدث يومها وقد اندلعت حرب الرمال وحصار الأشهر الستة.

شخصيات وأماكن غريبة

كانت شخصيات وأماكن وأحداث تثير فيه الفضول للتأكد من صدقها ووجودها وحدوثها. كان "خالي بَكَّاكَا" و"مامًا سُولَ" و"بَجَّ وَلَحَزَمَ" شخصيات ملأت فضاءات القرية بمواقف مثيرة. وكانت "مُومَنَا" و"تُوونْتُ تَبَزْشَانْتُ" الصخرة السوداء و"طُوطُونْتُ نُبَلْعَزْدَ" طوبة الفأر، أماكن محظورة على الصغار بسبب ما تحفظه من أسرار كان لها بالغ الأثر على نفسياتهم و في عقولهم. وكانت الأحداث التي ارتبطت بهذه الأماكن والشخصيات كافية لتذهب بعقله إلى أبعد حدود الخيال. حكى جدته ذات ليلة أن "خالي بكَّاكَا" و"بَجَّ والحرمة"- و كلمة خالي لا تعني أخ الأم، بل هي لإظهار الاحترام لكبار القرية. وكلمة "بَجَّ" تعني أبو فلجة- خرجا مساء إلى البادية القريبة حيث يتفقدان قطيعهما. قررا أن يبينا بجوار سد القرية. ناما عميقا بعد أن أصابهما التعب وأدركهما الليل بظلامه. فاجأهما الجن ودخل بهما الصخرة السوداء، وكانت صخرة عملاقة على الطريق المؤدية

إلى خارج البلدة، إلى هناك، إلى العالم الخارجي، إلى
المدينة.



صخرة سوداء انسلخت من ظهر جبل تاويريت او كانت بين مقذوفات أمواج الوادي العاتية منذ آلاف السنين. صخرة كبيرة ضخمة رست كباخرة في ذلك المكان بين الجبل والوادي وقد تركت متسعا من الأرض طريقا للمواصلات. صخرة تزن أطنانا كثيرة تثير فيه العجب والتساؤل. لم تخلى عنها الجبل يا ترى؟ لم حجزت لنفسها هناك مقرا ولم تقطع الطريق ولم تغلق الوادي إن كانت من بين ما جرفت أمواجه؟ لماذا كانت سوداء على عكس باقي صخور الجبل؟ لم انزوت هناك وحيدة واتخذت شكلا بيضاويا؟ لقد آمن أن الجن هم من اختاروا لها ذلك المكان و ذلك اللون و ذلك الشكل. عاش الرجلان رعبا وعذابا مريرين. كانت الصخرة تضغط على

جسميهما حتى لتكاد تفجرهما.أخذا ينقلان الرماد على
ظهريهما إلى أماكن يجهلونها خلال تلك الممرات
الضيقة الممتدة إلى ما لا نهاية،بعيدة تضيق مظلمة
كالأبد.كان بها قوم آخرون يقومون بكل شيء.كانت نساء
الجن وصغارهن يحملون سياطا من لهب يضربونهم بها
على سيقانهم العارية.كانت ضحكاتهم تخرس كل لسان
وتبعث القشعريرة في كل بدن.عند الفجر،إستيقظا
ليجدا نفسيهما أمام الصخرة بعيدا عن المكان الذي ناما
فيه قرب السد بأمتار كثيرة.مرضا بعدها وصارا يهذيان
لأيام من هول ما رأيا و لاقيا خلال تلك الرحلة
العجيبة.أضحت الصخرة بعد هذا الحادث مكانا مريبا
مروعا يصعب المرور به بعد الغروب.لم تغب عن
مخيلته أيضا صورة ذلك المكان الذي يسمى
"مومنا"،وهو ممر صغير شبه مظلم يؤدي إلى منزلين
قديمين ل "آت كاك" و"آت بلحسن"



زعموا أن به قبرين تدل عليهما صخرتان صغيرتان تنتصبان وسطه. لم يكن يعرف لمن كانتا. لقد رأى الصخرتين حقا. زعموا أن صاحبيهما كانا يئنان ليلا، وأن شبحيهما يجوبان الممر بعد كل غروب. أصبح المكان مبعثا لخوف الجميع. إرتبط المكان في مخيلته وصغار القرية بوجود العفاريت ذات الرؤوس الغربية. ربما كان لها ذيل أيضا. حين يمر بالمكان ليلا، يتحسس أنينهم وصرახهم وضحكاتهم. ها هو يراهم يطبخون في قدور سوداء يخرج اللهب من فوهاتها. ها هم يجلسون إلى موائدهم، يطعمون صغارهم بمخالب من نار ودماء. كان يتعذر على الصغار المرور من هناك ونزول الظلام دون صُحبةٍ. كل شيء في قريته كان مخيفا، غريبا كغرابة هذا المكان. كانت حكايات جدته عن "لونجا" و" يَرْخَمَانْ وَيَرْزَمَانْ " عالمه الخرافي عندما يحل الليل بسواده. تفتحان أمامه عوالم الخيال الغامضة الفسيحة ، وأسرار العفاريت والغول والأشباح

والشخصيات الإنسانية التي ربما لم يكن لها من وجود إلا في مخيلة من يحكيها . وحكاية الذئب "عمي بنيعكوب" الذي ضبطه أحد المزارعين في حظيرة أغنامه فسلخ جلده وظلاه بالفلفل الأحمر الحار ،حتى اذا عاد الى غاره ، وأبصرت به انثاه من بعيد لم تتعرف عليه فنادته: "وَا مَوْلُ الكَابِّ الحَمْرَا ، وَاشْ مَشْتَّ لِي عَمِّي بَنُ يَعْكُوبُ ؟ وترجمة الكلام "يا صاحب الجلد الأحمر ، ألم تر زوجي الذئب ؟ كانت جدته تطلق على الذئب "العم ابن يعقوب" كانت تتقن ذلك النداء اتقانا .قالت الجدة : " فكان يجيها : انا هو انا هو شينتْ لَمْتَامْ عَلِيَّ عَوْوُؤُ" وترجمته : "انا الذئب الملقب ابن يعقوب يا من كانت رؤياها علي شؤما" .مرض الذئب مرضا شديدا و أدركه ألم فظيع، وهو مَن بشرته أنثاه بصيد ثمين كما رأت ذلك في منامها؛ عاد بعده سقيما وفارق الحياة.

لكل مكان كانت قصة وألف رواية.من أعلى سطح منزل عائلته، أطل عبر جدار الطوب المشرف على الزقاق، ليرى الوادي أمامه وكل البساتين القريبة. من هناك، تظهر له عملاقة ضخمة، تلك الكتلة من الطين في قدم جبل "تاويرت"، وقد اتخذت شكلا

مميّزا، شكل نبات الفطر متسعة قاعدته. لم تستطع عوامل التعرية التأثير فيها. نسجت حولها حكايات وحكايات. كانت مستعمرة للجن، يحبس بها أشخاصا لمئات السنين. إنهم اليوم في انتظار من يحررهم. لكن ثمن تحريرهم بات مكلفا جدا. وهذا يساوي ذبح عجل أسود ورجل أسود من أهل البلدة، يلي ذلك تلاوة طلاسمة معينة. لكن من أين بهذا العبد الأسود وليس بالقرية من أبنائها ملون واحد. قريته لم تنجب رجلا بالموصفات المطلوبة لإنقاذ هؤلاء. يا للحسرة! سيمكثون هناك لوقت طويل. لا يعلم شيئا عن هؤلاء. من يكونون؟ لأي عائلة ينتمون؟ من أي الأقوام ينحدرون؟ ما نوع الفعل الذي أغضب الجن منهم وتسبب في اختطافهم وحبسهم؟ كلما نظر إلى تلك الصخرة، انتابه شعور بالأسى والحزن على هؤلاء الأحياء الذين يقبعون هناك. من يطعمهم؟ من يسقيهم؟ هل تعذبهم هذه القوى المخفية؟ هل تضعهم في الظل أم في الحرور؟ هل تقيدهم بسلاسل وأغلال كتلك المذكورة في القرآن الكريم؟ لم يكن يقترب منها حتى وهو على الطريق إلى سد القرية. يسترق النظرات من بعيد لعله يرى أحد القابعين هناك وهو يُخرج رأسه عبر فتحة في

الصخرة، وهو يلوح بيده يطلب المساعدة. كأنه يسمع صراخه. صراخ بكاء من شدة التعذيب. من شدة الجوع والعطش، من شدة الظلام الدامس. بدا رأس الصخرة في مخيلته كغطاء فم القدر. كان ثقيلًا جدا. كم تمنى أن يزول ذلك الغطاء



سريعا ويصبح فم الصخرة مكشوفًا يسمح بفرار هؤلاء المساكين. يعانقون الحرية لأول مرة. كم سيكون طعمها لذيذا تلك الحرية! كم سيفرحون! ستمتلئ القرية بهم وبضحيجهم. عادت به مخيلته

وهو ينتظر خروج هؤلاء إلى تلك المرأة المسماة "مامّا سُولَ"، و التي أناطت بدور القابلة أو المولدة في القرية. ما من أحد في القرية إلا ناداها "حَنّا سُولَ" وكانت بحق جدة الجميع. سكنت في الجانب الأيمن الداخلي خلف باب "إنوراز"، سمراء الوجه حسنته. لم تكن من أهل البلد الأصليين. قدمت من بلاد قريية وراء الحدود. ظلت "حنا سُولَ" تُنقذ نساء القرية على مر السنين حتى في الولادات الأكثر عسرا، فاستحقت حب الجميع، واستحقت أن تحصل على الهدايا من أُسر أبنائها عند كل عيد. كانت الوحيدة ممن يتكلم غير لغة أهل البلد. تتحدث العربية. تتخللها كلمات تعلمتها مع الوقت من اللهجة المحلية. كانت بالنسبة له شخصا غريبا، سواء من حيث كلامها أو لونها. نظر إليها كمخلص لهؤلاء القابعين في الصخرة. لم يكن يريد لها أن تذب أو تموت. فهي جدته أيضا. كانت طيبة جدا، وكان لها أولاد. لكنه لا يعلم لِمَ لم يذبحوها من قبل أن تكون جدة أحد؟ يجب أن تبقى حية لتنجذ المزيد من النساء. قد أنقذت وستنقذ أخريات. ثم إن المطلوب لفك هؤلاء من أسرهم هو رجل. كان سيحزن عليها كبيرا لو أصابها مكروه. كان سيبكي جدته بكاء

شديدا. بقي هؤلاء لعذابهم وبقيت الصخرة تحتجزهم بقسوة وتحكي مأساتهم إلى الأبد. غير بعيد من هناك، وكان في السنة السادسة من عمره، حين مر لأول مرة أمام جثث لأشخاص مغطاة بقماش أبيض. لم يكن يفهم شيئا مما يدور في تلك الساحة القريبة حيث مدرسة القرية، والتي سوف يبدأ بها دراسته بعد عامين من هذا الحادث، وحيث تقف عادة شاحنة " أتغلي " التي يقودها السائق المميز آنذاك "معمر". ها هي اليوم تتخلف عن موعدها مع ذلك المكان. "آت علي" هو إسم محلي معناه "أولاد علي"، كان فخدا مهما في القرية. هم من كانوا يدبرون شؤونها بعد القائد الحرمة. بدا القائد " ابن الدين " شخصية قوية. وصارت "تاغمرت" مكان إقامته ، مكانا يخيف الصغار و الكبار



على السواء. إنها تعني القانون، و خصوصا قانون القبيلة كما اتفق عليه الجميع منذ عقود وأجيال. لم يدخل تيمح المكان في صغره، لكنه رسم له صورة قاتمة في ذهنه. كان يمثل العقاب، ذلك العقاب الذي طالما تحدث عنه شيوخ القرية أمام الجامع وهم يذكرون "السي عباس" الإسم المرادف "لابن عباس" راوي الحديث المعروف. يحتكم أهل القرية إلى القائد في ذلك المكان عند أي خلاف وفي كل ما شجر بينهم. كانت بها بئر مخيفة. لكنها لم ترتبط بالجن، بل بالحكم والعقاب والزجر أساسا. كان القائد يجلس إلى باب مقر إقامته. أحمر الوجه. تعلق رأسه عمامة بيضاء. وعلى البدن جلابب أسود من الصوف. كان يصعب المرور بالمكان وهو جالس

هناك. كان محترما، مهيب الجانب. يصدر من أعماق حنجرته صوتا تقشعر له الجدران ، ويهتز له الزقاق ، ويفر من وقعه الصغار والكبار. كانت الشاحنة تقل الكثير من المسافرين من أهل البلدة القادمين من بوعرفة. وحدث أن انقلبت في إحدى الأماكن العالية على الطريق الرابطة بين إيش وتلك المدينة، جبل "كُتُو" ذي الإرتفاع الشاهق و المنعرجات الوعرة. سقط من سقط من ضحايا وجرح من جرح. في ذلك المساء، مر الصبي امام تلك الأجساد الممددة على الرمل، كان الظلام آخذا في النزول يغطي المكان ولا يبالي. بقيت تلك الصورة الضبابية عالقة بذهنه دون أن يفهم لِمَ كانت تلك الأجسام تلتحف البياض، وتفترش الرمل، جاثمة لا يكلمها أحد. لم ير الشاحنة يومها. لكن حديث الناس وتلك الأجساد الهامدة، كانا يدلان على مرورها من هناك. من مكان ما في ذلك العالم البعيد. العالم الذي لا تدل عليه في نفسه إلا كلمات يلقيها الناس في سمعيه بين فترة وفترة، أو حين يطول غياب المسافرين من أبناء القرية عنها. عاد إلى الدار بعد أن حل الليل ضائق النفس دون أن يدري ماذا حدث لهؤلاء، ولا إلى أين تم اقتيادهم في ذلك الديجور؛ يظن ظن اليقين أن الأهل قد

تخلوا عنهم هناك، وصاروا الآن في قبضة من يحكم "طوطوبت نبلغردا" من تلك المخلوقات الغريبة الأطوار؛ أو أن تلك الصخرة تنازعتهم والصخرة السوداء ؛ وضمت كل واحدة منهما أشلاء فريق منهم في احشائهما المظلمة، حيث يَحْيُونَ من جديد، وينالون قسطهم من العذاب، ثم ينتظرون هم أيضا مع هؤلاء الآخرين ظهور ملون في البلدة يوما، فيكون ذبحه خلاصا لهم..

قبل أن ينام، كان يسترق السمع إلى أولئك الجالسين حول الكانون، يتسامرون في هدوء بـ "تَحْنَجَائِي" القصص المثيرة عن وجود "أَزْغُوعُ" الغول في أحد البساتين. زعموا أن الغول كان يئن كلما مر شخص بالمكان. لم يسبق له أن سمع صوته وهو يئن. لكنه كان يؤمن بوجوده كباقي أطفال القرية. كان الكبار أثناء حديثهم وهم مجتمعون للسمر يؤكدون ذلك. إنه صوت غول جندي فرنسي مات مقتولا. ربما قتله القائد الحرمة أو ابنه "باعزة" وهما يدافعان عن الأرض والعرض، ولذلك ارتبط وجوده بحقلهما دون غيره. ربما لم يكن هناك غول على الإطلاق. لم يقدر أحد على الإقتراب من هذا

البستان خصوصا وقت الظهيرة. كان الغول سيفترسه بعد أن يقوم من مرقدته. كان تيمح إذا مر وحده قريبا من الحقل المذكور "تابحيرت نبا عزة" نهارا، جعل سبابتيه في أذنيه، طأطأ رأسه ونظر إلى الأمام مباشرة كي لا يسمع ولا يرى شيئا من الغول وهو يردد "سَمَ اللهُ الرحمن الرحيم". يسارع الخطى، يمزق الخوف فرائصه. لم تكن في عقله أية صورة لذلك الجندي الذي يرقد هناك بين الأشجار، وسط الخضروات والزهور وماء الساقية. كان الطفل دائما يتساءل: هل كان هذا الجندي محظوظا وهو ينام هناك وسط كل هذه الخضرة؟ هل ضبطه صاحب البستان يسرق، أم كان اختباؤه جزءا من المعركة؟ لماذا كان يئن؟ عبر تلك الممرات إلى بستان جدته حيث يرسله الأهل لإحضار قليل من النعنع لإعداد شاي الصباح، كان هيكل الغول خلف الطفل تماما. عاريا ينزف بغزارة. تصطك أسنانه وتمتد أنيابه الطويلة



لتقضم أذنيه. كانت يداه عبارة عن عظام ليس بها مزعة لحم. تحضره كلما مر من هناك صورة تلك المرأة التي ماتت وظلت تئن داخل قبرها إلى أن فطن أحد المارة لها فحفر القبر وأخرجها، وبدلا منها، ماتت على التو امرأة أخرى. خبر حيز له مكانا في ذاكرة الناس تلك الأيام. لا يفارق ألسنة النسوة في كل ناد. ظل يطارده هذا الحادث باستمرار. إنه الدليل على وجود الغول وإمكانية عودة الجندي من جديد وخروجه من وسط ذلك الحقل. فكلا الحداث يثيران فيه الخوف ويدفعانه إلى الإحجام عن المرور من ذلك المكان حتى عند الضرورات القصوى. ظل هذا البستان مرتبطا في ذهنه أيضا ببئر هناك بعيدا في الجبل "أنو نبويسحاق" بئر "أبو إسحاق". كانت مكانا

مخيفا يشغل مساحات واسعة من عقول الأطفال أيضا. كان ينسج له في مخيلته صورا خرافية. تواجد هناك في مكان بعيد بالقرب من إحدى جبال ايش الشاهقة. سكنته الجن قديما . رآه حقيقة لا أسطورة من عالم الأساطير التي عششت في القرية وتناسلت فيها وأنجبت خيالا لا يحده زمان ولا مكان. بئر في أعلى الجرف! في قدم الجبل! أي ماء ستحتويه هذه البئر إن لم تكن مياها مسكونة؟ وصل إلى هناك يوما والقيظ يقتل الطير في السماء. يومها ضاعت إحدى نعاج جدته. ظلت الرمال تحت قدميه ملتهبة حارقة. اندفع يبحث في كل اتجاه والظهيرة قد حجزت لها مقعدا فوق تلك الرمضاء. كانت نباتات العرعر شاهدة على ذلك اللقاء بينه وبين هذه الطبيعة القاسية ،وتلك المخلوقات غير المرئية التي احتواها المكان وتحتويها البئر بوضوح أكبر. كان الخوف يسيطر عليه وهو يدنو منها. اختلس النظر إليها لبرهة ثم انطلق بعدها متظاهرا بالبحث عن النعجة مرتعدا مما قد يخرج عليه من خلال ذلك العمق السحيق الذي شغل أعماقه، وسكنت أسراؤه وجداته، وغذت مخاوفه. أخذ يضرب بقدميه الرمل الساخن ،يدخلهما

بسرعة ويرفعهما بأسرع من ذلك يمنعهما من أن تحترقا، وها هو ينتعد شيئا فشيئا، و البئر خلفه يغشاها سراب كان يبدو له من قبل ماء .قد تكون النعجة اختبأت بين صخور الجبل أو خلف البئر. أو لعل الجني الذي يسكنها اختطفها وهي الآن في جوفه تحاول الإفلات وتطلب لنفسها النجاة. ربما أن ذئبا تائها ساعده الحظ في قنصها فأخمد أنفاسها بسرعة. ترك النعجة -من خوفه -لمصيرها، وانقلب إلى بلدته وصور البئر ومن يسكنها، والنعجة التي تاهت قريبا منها يحبسان أنفاسه و لا يفارقان مكان ذاته .

كان "تُوُو" شخصا بارزا في القرية أيضا. كانت له لقاءات مثيرة مع الجميع. لقاءات تملؤها الدعابة والضحك. كان يقف دائما أمام باب بوطويل. كان راقصا مميزا. يستعمل فمه لإحداث صوت الطبل، وعلى إيقاعه يحرك رجله في نشوة وغبطة؛ تتبعه عصاه ولا تفارق يده البتة. كان يغضب من الأطفال. يزعجون كثيرا أثناء مرورهم أمام تلك الباب. يتعمدون إثارته. تحلو لهم ردة فعله العنيفة ويسرهم توتره. كان يضربهم بعصا الخيزران. يرسلها

بقوة لعلها تصيب أحدهم. كم تمنى أن تصيب أحدهم بحق فيضحك ويسخر منه. يتقاذف الأطفال العصا بأقدامهم الصغيرة كالكرة، يحملها أحدهم بعيدا فيصرخ "نونو" مناديا أحد المارة من الراشدين فيعيد له عصاه ويطرد عنه الصغار. كان دائم الوقوف إلى الجانب الأيمن من باب بوطويل. لا ليستريح، بل كخطيب جمعة يعتلي منبره. يقلب وجهه يمينا ويسارا، يضرب بالعصا أرض الممر، يحيي هذا وينادي على ذلك ويتوعد آخرين. كان "حُنا" يخرج أغلب صوته من أنفه. وهذا ما دفع الكثيرين إلى تعمد استفزازه. رغبوا كثيرا في سماع هذا الصوت، صوت فريد لرجل فريد أيضا. مات "نونو"؛ وبقيت باب بوطويل يتيمة حزينة، تمشح دموعها هبات نسيم فجر كل يوم. ما من احدة يوجه إليها ناظريّة إلا وبرزت أمام عينيه صورة "نونو" كما نسختها يد القدر على ألواح البالية.

عصفور في الجنة

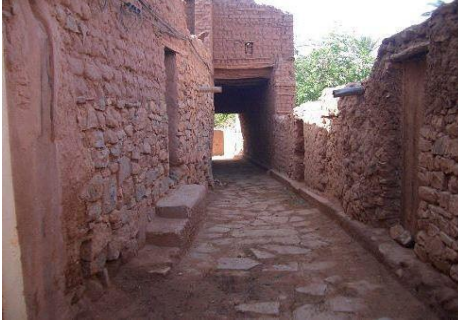
ذات صباح من أصباح الربيع الباردة وهو صغير لا يزال، خرج وجدته لالتقاط حبات التمر "الرّشْم" - عند أهل البلدة، وهي الحبات المتساقطة من أعلى

النخلات حين تهب رياح الصباح على البساتين هناك- فوجد عصفورا صغيرا يعجز عن التحليق. التقطه بلطف يحذر أن يؤذيه. فرخ ربما سقط من العش وهو يبحث عن الطعام، أو ربما تاه عن أمه وهي تدربه على الطيران. لقد هَوّت به رياح ذاك الصباح من مكان عال مجبرا. وهو عائد به إلى المنزل في نشوة واغترباط، يحضنه في حنان ويداعب ريشه الناعم برفق، ويرسم في عقله صورا لا تمحى لطبيعة العلاقة التي ستجمعهما، إذا برجل من كبار القرية يأخذه منه. تأمله الرجل لبرهة، قلبه بين يديه وقلّبه، ثم كسر ساقيه و أعاده إليه وهو يبتسم وكأنه ما فعل شيئا. أحس الصبي بغبن شديد بقدر ما آلمه أنين عصفوره بعد ذلك الفعل الشنيع. حمله بين يديه بعناية تامة ثم أخذه إلى جدته : "لقد أخذ مني عصفوري وكسر ساقيه يا جدتي. أريدك ان تعاقبيه" قال ذلك و انتظر طويلا أن تعاقبه. إنتظر ذلك بشغف. تمنى أن تعاقبه بأي طريقة .كان ليطلب منه أن يعيد عصوره ذا الساقين المجهورتين ؛كان ليطلب منه أن يعيد عصفوره إلى حالته الأولى. أمسكت جدته بالعصفور وأخذته إلى مكان بعيد لا يوجد فيه أمثال

هذا الرجل فيظلموه ثانية. أرض حيث يتوفر الماء و الحَب. إلى هناك، حيث الظلال والأشجار وديدان الأرض سميئة دسمة. حيث الدفاء والجو الواسع، حيث يغني مع بقية العصافير أنشودات الصباح الجذابة. كان مطمئنا لتصرف جدته. رغب كثيرا في معرفة ذلك المكان. لكنها أخفته عنه ؛ربما لأنها لم ترده أن يرى عصفوره على تلك الحال مقعدا. ربما ألقت به إلى أعلى ليحلق بعيدا في فضاء الموت الذي سيستلمه في هدوء ويحط به على أرضية جنة السماء. أو إلى هناك حيث تتشابك أغصان الرمان وأوراق الكروم في عناق أبدي. حيث الرمان يسامر حبات العنب. حيث يوجد بنو جنسه. هناك حيث يتناقلون خبر إصابته، حيث يمكن لأمه أن تعلم منهم بمكان وجوده فتعيده إلى العش وتداويه. كان "مويدريس، رجلا ضخما ذا بطن ممتلئ متقدم عن بقية جسمه. رجلا تقيا عاملا لا تفوته صلاة مع الجماعة ،كريما يقري الضيف ، ويعطف على الفقير ؛لم يفهم الصبي ما دفع الرجل إلى مثل تلك الحركة أمام مخلوقين صغيرين ضعيفين ذلك الصباح. لأجل ماذا أطفأ فرحة ذلك الصبي بما غنم؟ كم بكى يومها، وكم أصبح يكره ذلك الرجل بسبب

ما أقدم عليه. رآه صبيحتها يلبس سروالا فضفاضا أبيض اللون ،وقميصا يغطي بعضا من جده. والعمامة البيضاء على رأسه تطل على جبينه فتزيد من سمرته و وقاره ؛ جبين يحمل ندبا من أثر ما سجد لله تعالى. على كتفه منجل تتدلى قاعدته على صدره وبعضا من بطنه. مازالت أسئلة وأخرى تتوارد على خاطر الطفل وقد رأى برد ذلك الصباح لم يقهر هذا الرجل ولم يثن يديه عن فعلتهما؟ مازال يتساءل عن سبب الإعتداء الذي طال ذلك الطائر الصغير. بدا له الأمر غريبا وهو في ذلك السن. لم يكن يفهم للظلم معنى. فالطبيعة كانت عادلة وما حرمت أحدا قوتا ولا جمالا في قريته. لكن يومها، رأى الظلم بأم عينيه. ودَّ لو يسأله ذاك النهار عن سبب ما اقدم عليه؛ تمنى لو يقدم له تفسيراً ولو بسيطا لما فعل. نظر إليه الصغير مليا دون أن يكلمه، ثم نظر إلى عصفوره؛ ثم...كانت العادات تقضي بالأا يتناول الصغار على الكبار أبدا. ترك في نفسه غصة وغما. ترك تيمح أمره لجدته ،وأنصرف يبحث عن عصفور آخر بين ثقوب كانت تمتلئ بها جدران منزل عائلته. مد القصبه إلى أعلى مرات ومرات داخل ثقب به عش لزوج طير؛ لم يخطر بباله

أن الحجر تحت قدميه كان غير ثابت على سقف
دكان عمه ،تقدم بعمود القصب يريد إخراج فرخ من
عشه،



وضع رجله على جانب من الحجر، فإذا هو ينزلق به
و يسقط من أعلى إلى وسط الزقاق. كادت أطرافه
تتكسر لولا أن المكان كان به رمل. صار يبكي
ويصيح مناديا جدته. سألت بعض الدماء من فمه.
لقد عض لسانه حين اصطدم ذقنه ببعض الحصى
على أرض الزقاق. لقد نجا وأخطأ الحجر رأسه. خطر
بباله ذلك السؤال الذي لا يريد أن يفارقه: لم عوقب
بسرعة وهو يعتدي على الفراخ في عشها، ولم
يعاقب ذلك الرجل على ما أقدم عليه؟ فهم سريعا
أن جواب ذلك كان في نجاته يومها، كما أفلت

بعدها وهو يقطع عنقود عنب من كرمة نبتت أعلى شجرة مشمش.- ذهب في ذلك اليوم وجدته إلى بستان يسمى "طيزيت نَّجَّ". بسرعة تسلق جدع الشجرة، تلك التي كانت تعرفه ويعرفها معرفة خاصة. جعل أغصانها متكأً له كلما زار القرية في العطلة الكبيرة، واتخذ من فاكهتها غذاء. كانت عناقيد العنب فوقه تبدو ندية غضة متراسة الحبات. تتدلى كأنها جواهر في عقد على عنق عروس. سرحت بعض العناكب بين حباتها تتغذى. طويلة الأرجل قد انتفخ بطنها من الشبع. اتخذت الكرمة فوق شجرة المشمش شكل مظلة مستوية السطح، بينما تدلت منها العناقيد مصفرة تغري العين وتجذب خاطر. ترك تيمح جدته في الأسفل تنتظر وصول العناقيد الأولى. حرك عنقودا يريد انتزاعه من أمه الشجرة. استعصى العنقود وأبى أن يفارقها. حاول مرة أخرى، لكن العنقود تمسك بأمه. ظلت الجدة تنتظر ورأسها إلى أعلى. تشرئب لعلها تظفر بعنقود عنب تدرأ به جوعها و يكون لها غذاء. أحس تيمح أنه تأخر كثيرا في انتزاع العنقود؛ وتأخر أبعد من ذلك في تلبية رغبة جدته "صَبْرُ أَحْنَا صَبْرُ" قال مخاطبا جدته من أعلى الشجرة. أمسك

بالعنقود بيد، ثم مد نابه يريد قطعه. جذبه إليه بقوة و أخذت أسنانه تقضم ساقه دون أن تأبه لأنينه. إنتزعه بقوة، وها هو بين يديه. كان للعنقود رأي آخر وحديث مغاير مع الطفل. لم يعجبه تصرف الصبي. كانت له ردة فعل قوية كقوة الحركة التي انتزعته من حضن أمه. ثعبان طويل عريض مر غير بعيد من مكان وقوفه بين تلك الأغصان. لقد أزعجه الطفل إذ قطع قيلولته على تلك المنضدة. وقف ينتظر ما سيفعله الثعبان. نظر بعضهما إلى الآخر من قريب، ثم نظر إلى عنقوده وقد تشتت حباته بين الأغصان الشائكة. مد بصره فاذا هو جسم يمتد لأكثر من متر من مادة لزجة. ذو بطن أبيض وظهر بني. أخذ الطفل يرتعد وينادي جدته: "ثعبان. ثعبان" صارت الجدة تضرب على فخديها وتردد "مَن مَن" أين، أين؟ "اعتقدت أن الثعبان قد أصاب ابنها. صارت تغدو وتروح ورأسها إلى أعلى الشجرة تنتظر الأخبار دون أن تتوقف عن مناداته. كانت مفزوعة تائهة. لم ينتقم العنقود من تيمح. كان متسامحا جدا كتسامح جبل "منعة" من قبل معه. مر الثعبان إلى الجانب الآخر من الشجرة. توقف جسم تيمح وعقله عن كل حركة أو تفكير وهو ينظر إليه زاحفا أمامه.

وهو على ذلك الإرتفاع متأهبا لينقض عليه. لو عض لسانه لتصلب هناك فوق الشجرة. لو تقدم الثعبان صوبه و ارتمى عليه، كان ليلقي بنفسه من أعلى تلك الشجرة ذات الأغصان المتشابكة الشائكة الحادة. حاصره الخطر من كل مكان. رأى الموت أقرب إليه من أي حياة. ها هو ينظر إليه، يتتبع حركته وهو ينتقل عبر الأغصان....بنفس سرعة صعوده، نزل الطفل الشجرة وليس بيده شيء يقدمه لجذته غير حبل نجاته من لدغة ثعبان ضخم لو أصابه، ما قامت له بعدها قائمة أبدا. لقد نجا، نجا من موت محقق. أفلت بأعجوبة - قام تيمح ينفذ عليه غبار رمل الزقاق الذي علق به ويجفف دماءه. ينظر إلى عمود القصب هناك يتدلى عبر الجدار وقد ترك العصفور الصغير في عشه ينمو في سلام. هو أيضا سيخبر أمه عما حدث له يومها. ستحضنه بحرارة. ستفرح كثيرا لنجاته.

أبو جمعة والليل

كانت "ثلاث نُواداي" الشعبة التحتانية، مكانا يحج إليه شباب القرية للعب "تشورت"، خصوصا أثناء العطل أو حين يغيب معلمهم. تشورت، هي كرة

القدم كما يعبر عنها هناك. كان الشبان يصنعونها من قماش بالٍ متخلى عنه. حتى إذا كَوَّنوا ما يشبه الكرة، أخذوا يضربونها بعمود نخل صلب وقد قسموا إلى فريقين يتباريان، ينافس أحدهما الآخر في وضعها داخل مرمى الخصم المكون من صخرتين كبيرتين بارزتين على طرفيه. كان ذلك أمام "الباب نِيُوراز"، باب ضخمة تفتتح على هذا المكان و تفصل بين فريقين من القبيلة أحدهما "آت جاج" أي أصحاب الداخل، ويعني السكان القاطنين خلف الباب من القرية. الفريق الثاني "آت برا" وهو الساكن خارج تلك الباب التي تحمي القرية؛ ويصل المرء إليهم عبر باب ضخمة مماثلة في الجهة العليا من المكان. ظهر ما يشبه الصراع بين الفريقين خصوصا بين الصغار والشبان. كانوا إذا تنازعا أمرا، قاموا برمي بعضهم البعض بالحجارة وبأقبح النعوت. أحيانا كانت تغلق الأبواب الكبيرة تفاديا لحدوث إصابات خطيرة عند خروج الأمور عن السيطرة وبلوغها مرحلة اللاعودة. مرحلة قد يتدخل فيها الكبار وتستعمل فيها أدوات خطيرة. بعدها تتدخل "لَجْمَاعَة" أي مجلس القرية لفض هذه النزاعات التي غالبا ما تندلع لآتفه

الأسباب. يلتقي الجميع بعدها كالأخوة في عرس أو وليمة أو حفل بالقرية. يتبادلون الإبتسامات، ويروي بعضهم لبعض ما يعرف من حكايات ممتعة، تجمعهم أوقات السمر على الرمال في تآلف. كم كان الطفل مولعا بالسهر وهو صغير! كانا بوجمعة شابا يتيما من جهة الأم، فقيرا، قد بلغ أبوه من الكبر عتيا. يدعو أهل القرية أبوجمعة إلى منازلهم ليلا فيكرمونه بوجبة عشاء يتقاسمها معهم، ثم يحيي ليلهم بسمر لا يحضره إلا أفراد العائلة المضيئة. كان أبوجمعة يحكي في غنائه عن مأساته. عن حزنه على فراق أمه؛ عن يتمه وفقره؛ عن آلامه؛ عن ازدراء الناس له. كان الحاضرون من الرجال و النساء يجلسون في صفيين متقابلين يستمعون بامعان. يلتقطون كل كلمة يتفوه بها ذلك الشاب، والليل يمضي يجر أذياله، يطردها الفجر القريب. يهب النعاس على وجوه بعض الحاضرين فتتأب أفواههم وفي أعماقها تبدو الأضراس سوداء قد أصابها الزمن بالسوس. كانوا يردون عليه إما بالبكاء، والنسوة تمسحن أعينهن بقطع من مناديلهن، و صوت الأنوف الملامى بالمخاط جراء ذلك البكاء يقطع بين فينة وأخرى

إيقاع الطبل؛ أو تسمعهم يقولون "الله يا وُلدي...واهُ آ وُلدي". كان يحلو للطفل السمر هناك. لم يفوت تيمح سهرة يقيمها ذلك الشاب إلا كان حاضرها، بل أحيانا منشطها. يحمل المصباح "ترسينتي" بعد تناول وجبة العشاء، ثم يقطع المسافة إلى المنزل الذي يقيم فيه أبوجمعة سهرته. يمر بزقاق مظلم جدا يدعى "سقاقُ نتالستُ" زقاق الظلمة. زقاق ظل مكانا يصعب المرور منه بسبب الظلام الدامس وكثرة الأشباح التي سكنته منذ زمن بعيد.



كان يعبره وحيدا بعد أن يستغفل أمه. كان أبوه يعمل خارج أرض الوطن، وكان يستغل غيابه ليفعل ما يشاء، خصوصا السهر. في تلك الليلة البئيسة، كان أبوه يتناول وجبة عشاء في دار خاله حيث الجميع ينتظرون مولودا لـ"آت النعيمي". أخذ المصباح كعادته، ثم انطلق يطوي الزقاق المظلم دون أن يكثرث لأي شيء ولا لأحد. يسابق الخطى عسى ان يصيب حفا مما سيرويه أبوجمعة في ذلك المنزل خلال تلك الليلة. لم يكن يسمع من بعيد وهو على ذلك الممر سوى صوت الضفادع القادم من الوادي المجاور. ونعيق بومة قد انزوت في مكان مظلم، وآثرت أن تنشط ليلتها في كوة صغيرة على جدار تلك الدار.

داخل المنزل الرحبة أطرافه، والذي جعل من الأعمدة الخشبية الصلبة والتراب سقفا له، واتخذت جدرانها من السواد لها لونا، حيث أثر الدخان الناتج عن حرق الأغصان مائل امام كل عين؛ توجد غرفة تنبعث منها رائحة فواحة لبقية من طعام على قصعة تخترق المناخير، بجانبها ملاحق تنتشر حولها

مبعثرة قد علق بها بعض من حبات الكسكس وقليل من يقطين أحمر، وفضلة من فلفل لاذع تُرك على حافة تلك الصفحة قد تناثرت بعض من بذوره وسطها بعد أن دكته ملعقة أحدهم دكا. داخل غرفة الضيوف بذلك المنزل ،كانت العناكب تتمسك بخيوط شبكاتها في زاوية من الغرفة التي يجالسون فيها مُطربهم. لقد تكيفت مع ذلك الهواء، واسترخت وأرخت آذانها ، تتابع منسجمة منجذبة لأحداث الرواية، ثم تنام في هدوء مستجيبة لسحر ذلك الغناء ، وروعة ذاك الإيقاع. على أرضية الغرفة ،كان بعض الأطفال الصغار ملقين نائمين في انتظار أن تحملهم أمهاتهم إلى غرف نومهم. ظهر بطن أحدهم منتفخا. ربما أكل الكثير من الكسكس ليلتها. هناك، كان أبوجمعة، وقد استعد تماما لبدء رحلة جديدة نحو عالم أحزانه، أحزانه التي بدت سرمدية. كان الطبل يغطي جانبا من وجهه. تصطدم كلماته بجداره فتخرج منه قوية رنانة قبل أن تصل كل أذن. عليه عباءة تُظهر كثيرا من صدره وجانبا من ذراعيه. كان جالسا وأمامه صف من النساء ينتظرن انطلاق قاطرة الدموع. كانت المناديل فرحة بملامسة العيون الباكية كلما تأوه

أبوجمعة. يغطي وجوه بعض النساء وأجسادهن إزار أبيض ،لا تظهر منه غير عين واحدة. في الجانب الآخر ،يجلس رجال العائلة مرتدين عباءات، تعلو رؤوسهم عمامات بيضاء "أحواق". كانت الإنارة خافتة ذلك المساء. ربما كانت تعلم بما سيحدث لاحقا. ربما فهمت حديث البومة المنعزلة هناك على الجدار القديم ساعتها. ربما أصاب مادة "الكاربيل" نفسها الضعف، فوهنت بعد أن تنبهت باكرا لأحداث ذلك الليل الكئيب. بدأ المطرب أغنيته وطنين الطبل يرافق كل كلمة يتفوه بها : "لو كانت لدي أم لكنت أكلت وشربت وشبعت --- لو كانت لدي أم لما كنت عاريا أعاني برد الشتاء--- لو كانت أمي حية لما احتقروني الناس ولما كنت هنا أغني أحزاني --- لو كانت أمي معي ما بكيت وما مسح كُمي دموعي". كانت يدها تتحركان بانتظام على الطبل. وصدى آهات النساء والحاضرين من الرجال تزيد إيقاعه شجوا، ويزداد الليل والمكان حرقة وكدرا. كان الوقت يمر بطيئا، طويلا، مظلما. كان تيمح يستمتع بما يرى و يسمع. طلبت منه إحدى النسوة الرقص أمام الجمع فوافق على مضمض. كان الحياء يمنعه من التقدم إلى وسط المكان حيث

يمكن أن يظهر للجميع. طلب الطفل إحضار كيس دقيق فارغ؛ وضعه على رأسه حتى غطى بقية صدره، ثم اندفع يحرك جسمه يمناً ويسرة والحاضرون يصفقون و يشتمد ضحكهم حتى بدت أفواههم مغارات لأشباح مخيفة. تزداد حماسته للرقص فيتخلص من حياءه ويلقي بالكيس بعيداً، وينسجم مع تلك الحال انسجاماً. فجأة يتوقف كل شيء. يعزف الطبل عن إسماع صوته. ويحجم أبوجمعة عن إيصال كلماته للحاضرين أيضاً. تجمع النسوة "أغراضهن" وتحملن أطفالهن إلى غرف النوم. ومنهن من تغادر إلى المنازل المجاورة. حمل الطفل مصباحه كغيره و انطلق ينشد داره مرددا ما كان يقوله أبوجمعة: "لو كانت لي أم لو كانت أمي معي" وكله أمل في ليلة أخرى من السمر. صعد الدرج المؤدي إلى مدخل منزل العائلة؛ حاول أن يفتح بابه، لكن الأمر استحال عليه. حاول وحاول ولا إمكانية لفتح هذه اللعينة. لم يخطر بباله سوى أن يطرق الباب. فجأة، سمع بالداخل طقطقة المفاتيح فتسمر في مكانه وانتظر. كانت الأبواب خشبية كبيرة على ذلك العهد، وكذلك كانت مفاتيحها. فُتحت الباب أمامه على جسم يحمل

حزاما يتدلى من إحدى يديه. أمره بالدخول فدخل. كان مطمئنا تماما. ولم لا؟ ألم يكن أباه؟ على حين غرة، بدأت ضربات الحزام تنهال عليه كالشهب الحارقة. أخذ يضربه بكل ما أوتي من قوة على كامل جسده الصغير. إمتزجت ضربات الحزام بكلمات أبيه تقول: "هل ستعاود؟ هل ستعاود الخروج ليلا؟" فيصيح الطفل بأعلى صوته على إيقاع هذه السمفونية "لا لا لا" طالبا أن تنقذه جدته. لكن لا مغيث. لقد كانت مشغولة بما هو أهم. وجد نفسه بعد فترة بين أحضان بنت عمته. رأى فاطمة وكأنها تلك الفتاة على غلاف إحدى الكتب الفرنسية المعتمدة في القسم الثالث بالمدارس المغربية في ذلك الزمان. كان الكتاب عند نحاح، كان الشاب محبوبا لديه كثيرا. تردد الصبي على منزل عمته كثيرا ليرى تلك الصورة و عليها تلك الفتاة وهي تمسك كلبا. كان ذلك يبدو غريبا نوعا ما. ففي قرينه كانت الكلاب تُضرب بالحجارة و تطرد وكانت مبعثا للخوف بشخيرها ونباحها وعضها. كانت وسخة. أما على الصورة فشيء آخر. إن الفتاة والكلب هناك كانا من عالم آخر. عالم ما وراء البحار المحيطة. عالم يعتنون فيه بالحيوانات بذلك

المستوى الذي لم يعهده في قريته. إنتزعتة فاطمة من بين يدي أبيه القويتين ونزلت به إلى أسفل، إلى دكان عمه ،ثم أخذت تهدئ من روعه إلى أن نام وهو يئن من وجع ذلك الضرب المبرح؛ ضرب أصبح له درسا لم ينسه البتة. ضرب جعله لا يغادر المنزل بعد حلول الظلام أبدا. نام تلك الليلة ليصحو في الصباح التالي على خبر مفعج...

أفاق باكرا كعادته مثل باقي أطفال القرية. نزل إلى بستان جدته "أورثو". غسل يديه بحجر خشن وماء كما يفعل الجميع- فالصابون كان نادرا لا يظهر إلا في حضرة الضيوف- أخرج الشياه من الحظيرة وانزلق يتبع حركتها عبر الزقاق الضيق. كان يراها تثب في حبور. يصاحب ثغاءها عويل وصياح لا يكادان ينقطعان حتى يبدأ من جديد. كانا ينبعثان من مكان ما هناك، كانت الأغنام تقفز ربما لأنها اشتاقت إلى المرعى بعد فراق ليلة طويلة. قطع الوادي الذي كانت له في عقله ذكريات لا تنسى، وخصوصا "سقاق نيغزر". سار والشياه عبر زقاق آخر يسمى "أَسَقَاقُ نَجْمُضَانَ" وهي أسماء لبساتين أهل القرية في الضفة الأخرى من

الوادي. كانت حبات التين تتراى أمامه ندية طازجة تتدلى عبر جوانب جدران البساتين على طول ذلك الممر. أوراق خضراء تزين المكان المفعم بالحزن في ذلك الصباح المغتم. سار وشياؤه إلى أعلى الجرف يطوي أكوام الرمل خلفه وترافقه نغمات العويل القادم من بعيد. من منزل "آت النعيمي"، حيث ماتت "فاطنة" وهي تلد. لم يكن لدى أهل القرية أية فكرة عن الإسعاف ولا عن سيارة الإسعاف ولا عن غيرهما مما يتطلب هذا الموقف. لم يكن له علم بوجود ممرض في القرية آنذاك. لكن... هناك... كانت "حنا سول". ربما أخفقت هذه المرة في إنقاذ هذه الشابة. ربما لم تكن هي من سهرت على توليدها. قد تكون جدته هي من خاضت التجربة ليلتها. كانت فاطنة تمسك "أسغون" بالجل وهي في المراحل الأخيرة

من الوضع. جبل استعملته النساء لمساعدتهن على ذلك كثيرا. تمزق جبل ذلك اليوم وغدر بفاطنة. كان تيمح يراقب المنزل المكلوم من بعيد. من هناك من أعلى الجرف. كانت الشياه تلتهم بعض الحشائش والأعشاب اليابسة. بعضها اختار الإستلقاء تحت شجرة عرعر ثم صارت تجتر ما التهمت وقد أسندت رأسها إلى ظهرها. يصله ذلك الصوت الذي تعمد أن يكون حنونا أكثر من اللازم. كانت هناك ترثي ابنتها. كانت "محجوبة" تنوح وتروي قصة صبية، قصة فتاة، قصة شابة وقصة امرأة. المرأة... آه... يا إلهي... لقد ماتت. ذهبت إلى هناك بجنينها. حملته معها إلى عالم آخر. عالم سيلتقي فيه بالعصفور الصغير المكسور الساقين حيث أرسلته الجدة هناك ليلعب يوما ما مع ذلك الجنين. كانت محجوبة تنوح بصوت مرتفع، تحيط بها نساء لم يستطعن إخماد



نار لوعتها.كن يواسينها بذكر خصال الفقيدة
وفضائلها وافضالها.تصاحب ذلك دموع لا ترحل عن
خدودهن الشاحبة. صارت كل واحدة منهن ترى
نفسها"فاطنة"إن تزوجت وحملت.قد يتوقف الزواج
وينقطع الإنجاب إن حذرت الشابات ما حدث لهذه
المرأة.وقف و الشمس فوق رأسه عمودية حارة
حارقة.كانت هي أيضا ترمق كل شيء من بعيد.ربما
ذرفت دمعات هي أيضا.أحس بدمعاتها حارة لافحة
مع خيوطها المرسله من أعلى.أحس بالعطش.لن
يستطيع العودة إلى المنزل اليوم.فأبوه مغتاض
منه.وهو غاضب أيضا.فقد غلظ عليه بقوة.يحتاج
الأمر إلى وجود عقلاء وكبار لكي يصلح أباه.لكي
ينظر بعضهما إلى الآخر.كان دائما يشعر بقسوة أبيه
عليه.أحيانا يشعر أن أباه يكرهه.فهو من البدو
المحافظين.جاد،صعب المراس في تعامله أو
التعامل معه.أحس بالشمس تدفعه إلى العودة
دفعاً بعد أن جففت كثيرا من المياه التي في
جوفه.أخذ من سذاجته يلوح بيديه إلى المنزل
المقابل.المنزل المفجوع في تلك المرأة
الطاهرة.نزع قميصه،ربما كانت عباءة ،وظفق يلوح
به ويصيح:"هيه أنا عطشان"هيه أريد ماء"كرر ذلك

عدة مرات بصوت مرتفع زاد من تجفيف حلقه. لم يفتن أحد لحاجته وحاله. فالناس منشغلون بإعداد مراسيم الدفن. ثم إن صوت النحيب المرتفع يمنع صوته من الوصول إلى آذانهم فينقذوه؛ و جسمه آنذاك لم يكن يسمح بأن يتم اكتشافه من خلال تلك المسافة. دفع بالشيء في حركة ذكية انتقامية كي لا يلتقي أباه إلا بحضور عقلاء العائلة و بالخصوص "جده". دفع بها عبر الجبل المجاور إلى سد القرية. هناك كان له شأن آخر في انتظار المساء إستراحت الشياه بعد أن ارتوت من عذب ماء الساقية تحت ظلال النخلات وعيناها لا تفارق ذلك العشب الأخضر وقد نما على جوانب حوض الماء ذلك.



بينما راح تيمح يسبح. يمد يديه ويضرب على الماء
برجليه وعيناه تراقبان المسافة إلى عين
العمرسان، العين التي تتربص بجسمه الصغير. صار
يمرغ جسمه في رمل الضفة ثم يعود إلى الماء
فيزيل ما علق به منه وقد نسي كل شيء. ها هو الآن
حزين ينتظر المساء. والمساء قادم حتما ويتبعه
الليل لا محالة. عند طعام العشاء سيكون عليه أن
يجلس إلى أبيه كما تفرضه عادات العائلة. فهو البكر،
وعليه أن يتعلم من أبيه كيف يجلس، وكيف
يأكل، وكيف يحاور. إستدار والشياة يطلب
العودة. إنطلق مسرعا قبل حلول الظلام فيقع في
قبضة الجن كما حدث لغيره من قبل، ثم يدفعون به
إلى الصخرة السوداء ويعذبونه. كان عليه وهو عائد
من رحلته الطويلة المجهدة يومها أن يمر بذلك
المكان الذي كانت له به ذكريات لا تُغفل.



في قدم بستان بُني جداره من حجر صقل بعناية، تعلوه أشجار فاكهة كثيرة الأنواع، توجد صخرة تحتها قليل من رمل دقيق نقلته مياه الوادي عبر السنين. كان للمكان موعد متجدد مع كبار القرية من الرجال متوسطي العمر ومن شيوخها. عند كل مساء، بعد صلاة العصر، وخصوصا في الصيف، يجتمع هؤلاء لمدارسة مشاكل القرية وإيجاد الحلول لما عوص منها. كان المكان ملاذهم من قيظ الصيف. يجلسون عنده مزينين بالبياض، عبااتهم والعمامات والبلغات ، ولحي قد مسها الشيب أيضا. تراقبهم من قريب نباتات الدفلى، خضراء ملونة

الزهرات تميد مع نسيم المساء القادم من هناك، من خلف البساتين. لم يكن يستطيع ولا غيره من الصغار المرور من المكان أثناء توجههم بالشياخ إلى مرعاها ومرتعها من الجبل. كان الحياء يمنعه وإياهم، بل الخوف أحيانا. كان لهم موعد مع هذا الوادي. موعد يتجدد كلما حلت مناسبة دينية. يشتري أهل القرية عنزة أو عنزتين فتذبحان ويُقتسم لحمهما على دور القرية حسب القدرة أو عدد أفراد كل عائلة. الكل يجب أن يفرح في ذلك الليل ولو بالقليل. لم يستطع نسيان صورته وهو بجانب صخرة الوادي الكبيرة الملساء المستديرة قليلا، "محمد نُباعة" وهو يذبحهما، وهو ينتزع جلدهما، وهو يفصل رأسيهما بقسوة، وهو يقطع العنزتين أجزاء بلا رحمة، وهو يرفع رأسه ليُرِي مشاهديه ابتسامته العريضة. ظل بين فترة وأخرى يرفع طرفا من عمامته يُعيده إلى مكانه على الرأس بعد أن تهدل من شدة الضرب على عظام الضحيتين. يطرد ذبابا تكالب عليه ساعتها يحاول لعق ما احتوته يده من دسم. ينهي الجزار عمله وقد رتب على الصخرة وما جاورها من أخريات قطع اللحم حمراء يخالطها شحم أبيض. يأتي بعد ذلك دور القداح "الْقُرعة". يختار رب كل عائلة

علامة، عود شجرة أو قطعة من حجر أو زهرة أو غيرها "إلّ" كما يسمونها بالقرية، حتى إذا مر أحدهم، طلبوا منه وضع الأشياء على قطع اللحم. يأخذ كل فرد نصيبه بعد أن يضعه في ورقة تين أو ورقة عنب أو حتى قطعة ثوب يُخرجها في الوقت المناسب من جيبه وقد مسح بها سائل أنفه لأيام. ينادي على ابنه من بين الصبيان الذين يقفون على مسافة غير بعيدة من المكان. يشاهدون ما يحدث ويتأملون كل حركة يقوم بها الجزار. يطلّون على الصخرة مباشرة من بستان خالي دودا "تن زَاهَا" - جنة بها عنب كثير وورد الأقحوان لم ينبت في غيرها من بساتين القرية. بستان منظمة أحواضه، تعلوها خضرة لا تغادرها. مشذبة أشجاره، منسقة حواف جدرانه. إحداها تطل منها شجرة جوز على الزقاق الضيق المؤدي إلى الوادي، وعبره إلى الناحية الأخرى من بساتين القرية وأجرافها -. انتشر جمع آخر منهم أعلى حافات جدران الحقول الأخرى المشرفة على المكان، يرمقون بأعين صغيرة بريئة قطع اللحم ترقص بين أصابع الجزار طرية يسيل لها اللعاب؛ وآخرون من سنهم جعلوا لهم موطئ قدم في حقل "باعزة" أو رثو، حقل نمت به فصة إخضرت

حتى غدت قطعة من الليل مظلمًا. تحرسها نخلة شمخت حتى أصابها الميل. إنبطحوا دون أن يحدثوا ضجيجا يزعج الكبار أو يشوش على حديثهم فيطردوهم ويحرموهم التمتع بذلك المشهد الطريف.



يُحمل النصيب إلى المنزل والكل مزهو بما حمل. ينتظر الجميع الليل ليتذوقوا قطعة لحم لم تدخل فمهم منذ العيد الكبير. تستقبله النساء وباقي الأطفال بالإغتباط والإبتهاج المنقطع النظير. تهل الكوانين والطنجات لمقدمه وتحضنه. تعتز بوجوده أسقف الدور وهي تشم رائحة الدخان

المتصاعد إليها مختلفة مشبعة بدهن وفير من شحم العنزتين. لا يحل الغروب إلا وقد تفرق الجميع بعد أن ضربوا للصخرة موعدا بلقائها من جديد. كانت تلك الصخرة مميزة جدا. عُرِفَت عندهم باسم "توونت نيغزر". نسجتها الطبيعة مصقولة الجوانب. شادتها هناك بناء. رسمتها على شكل منضدة قليلة الإستواء. ملساء باردة عند مكان أعدته الطبيعة خصيصا للتلاقي والإستجمام. كانت تؤدي وظيفتها بإتقان. كانت زرقاء نقية. ربما سلخت من ذلك الجبل الذي يخفي تحته بحرا أزرق عميقا يجاوره بحر أحمر لا يقله عمقا واتساعا. كان الكبار يتحدثون عنهما طويلا. فهما إن خرجا من معقليهما من تحت تلك الصخور الزرقاء والحمراء، فإن العالم سيغرق ويموت جميع من فيه. لم يجرؤ أحد على نبش تراب ذلك المكان يوما. كان سيفيض الماء منهما. ماء أزرق وآخر أحمر من "ثلاث تزيواوت" الشعبة الزرقاء و"ثلاث تزكاغت" الشعبة الحمراء". يقشعر بدنه كلما مر من أمام البحرين. لا يفارق هدير مياههما المتلاطمة داخلهما بعنف مخيلته. يخاف أن يفيضا عليه ثم يدفعان به عبر الصخور والأوحال إلى ما وراء فرن الجير فيمسك به قوم آخرون لا يرحمون. لم يجسر أحد

ولو كان منفردا في النهر أن يطأ الصخرة بأقدامه أو يوسخها. كانت شبه مقدسة. فهي تعني عند الجميع جزءا من كل لا يزال يخفي سرا عظيما غامضا. يخفي بحرين لو زالت مثيلاتها لفاضا وكان الخراب. كانت تعني أكثر من ذلك، كانت تعني قطعة اللحم التي لم يكن يعرف أحد بالقرية لها طريقا إلا في العيد أو في مثل تلك المناسبات...

رقص الذباب

كان الذباب يشدو ويرقص على نغمات اللبن الذي كانت الجدة تعده كل صباح. تحرك "الشكوة" نحو الأمام وإلى الخلف. تمخض الحليب لتستخرجه صافيا، ومنه زبدة شهية. كان يتحایل على جدته كلما اقترب المخض من نهايته. يقف حذاءها، يقف منتظرا أن تستخرج الزبد فيظفر بلقمة قبل الآخرين. بعدها، يجلس هناك في عتبة من عتبات الدرج المؤدي إلى خارج منزل العائلة، خلف تلك الباب الخشبية التي كانت شاهدا على تلك الليلة التي عنف فيها بشراسة. تظل الباب مفتوحة ومن خلالها تبدو أشجار الرمان والعنب تستقر قريبا في "اورثو". خلفها، ينبعث بين الأغصان قبس من

ضوء تسلطه الشمس على الأجراف و على جانب من قدم الجبل المقابل. يهب من خلاله نسيم تنتعش له الروح. أمسك بيده إناء أبيض ذا مقبض يعلو شفاهه سواد يزيد جمالاً. كانت جدته تملؤه لبنا ثم تقدمه له بعد أن تضع فيه قليلاً من مسحوق نبات العرعر تداوي به آلام بطنه. كان اللبن على الإناء أبيض صافياً. تطفو على سطحه بقع خضراء متماسكة. كان يمسك به وفي حجره على العباءة كثير من تين أسود جاف. لم يستوعب الصبي سبب تسميته بـ "تزازت نعثمان" أكان تيمنا بالخليفة بن عفان؟ أتحضر الشخصية الدينية حتى في عناصر الحياة الطبيعية بالقرية؟ كلما أكل منه واحدة، إرتشف من الإناء رشفة لبن أو رشفتين. وتمر ذبابة بطنينها تريد أن تلحس إناءه. تمر بسرعة. تحط على حافة الإناء. كان ينظر إليها وهي تحرك جناحتها تمسح بعضهما ببعض، تتوضأ كما أخبرته بذلك جدته. دأبت تمد خرطومها إلى موضع الرشفة من الإناء. كم كره هذه الحشرة. كانت تزعجه بطنينها ورقصها وبمنظرها المقزز. كان يلوح بيده ليطردها فيزداد صوت غنائها ارتفاعاً وتطير مبتعدة. ثم إن إحدى بنات جنسها كانت تدخل أذنه فيصيح الصبي

بأعلى صوته موجهة ضربة موجعة لحاسة سمعه. كانت جدته تستفيق من قيلولتها فتناديه: "ماذا بك؟" " يرد عليها: "لا شيء. فقط الذباب". تعاود الحشرة الغارة كرة أخرى وقد استدعت أسرابا تساندها. يهاجم الذباب من كل الجهات. لا يدع يدا إلا لسعها. ولا أنفا إلا اعتلاه. ولا عينا إلا حط فوق رموشها. ولا شفيتين إلا حاول سرقة ما تبقى خارجهما من لبن. تشتد المعركة ويصبح الموقف أكثر خطورة. يلوح الطفل بيده بقوة و مقبض الكوب بين أصابعه. يضطرب الشراب داخل الكوب وترتفع أمواجه. هاهي تفيض على شطآنه. يميل الإناء في غفلة من الصبي ويتدفق اللبن ملامسا كسوته. ينهض محاولا إبعاد الحشرة عن أذنيه بكتفيه. ترتفع درجة إزعاجها فيغير المكان من عتبة إلى أخرى أعلى أو أسفل منها. كان الذباب يتبعه في جحافل لا تقاوم. يستدير الطفل ممسكا بإنائه وما يحمل في جِجره من تين إلى الجهة الأخرى. كانت الحشرة تعي ما تفعل. استقرت قربة ماء على الحائط القريب تتمسك بوتر معدني تسجل كل حركة يقومان بها ساخرة. كان الماء بها باردا مغريا. ظلت الحشرة تتبعه في عناد. كأن بها

عقل. لا تريد الإستسلام أبدا. وتستمر المعركة بينهما وقتا طويلا. كان يسمع ذلك الطنين ومعه صوت جدته تغني. لقد استفاقت تماما. سمعها تردد كلاما غريبا: "رَاوَالِي حَمُو يَحْيَى رَاوَالِي". لم يكن يبستهويه مما تقوله سوى وقع ذلك الصوت الرخيم الحنون الممزوج بحديث الشكوة وقد عاودت نشاطها وشرعت تروي قصتها. تسرد حكايات عن سعادتها في زمن الخير ذاك. كان الذباب بطينه يمدهما بالموسيقى اللازمة لتلك السيمفونية الرائعة التي لا تمحوها السنون "راولي حمو يحي راولي". كانت تستعمل أقصى ما في حنجرتها من أوتار لتخرج الأغنية صادقة جذابة حزينة. كانت تضع أصبعها على شفتها السفلى. تحركه لتصنع الإيقاع المطلوب وكأنها تعزف على وتر عود أو على قيثارة قديمة. "حمو يحي"، كان شابا مغربيا من أبناء القرية. لم يتذكر سنه ولا شيئا من ملامح وجهه غير شعره الأسود ووجهه المدور وجلبابه الصوفي الأبيض. صورة غير واضحة؛ ربما شكلت رسما خياليا في عقله ليس إلا. خرج الرجل ذات يوم في مرافقة الشياه إلى المرتع في مرحلة ما من حياته؛ بلغ به فضول شياهه أن تتجاوز واد كان بمثابة الحدود بين

المغرب والجزائر"المشمن".في غفلة منه ومنها،أردته إحدى الدوريات الجزائرية قتيلا قد مزق بطنه وخرجت منه أحشاءه.بكاه الناس على ذلك العهد.رثته النساء طويلا.كانت أغنية جدته جزءا من ذلك الرثاء لا تفارق شفيتها كلما جلست هناك وحيدة في الرحبة "السواري"من منزلها؛وحيدة تنتظر وتنتظر.لكن ماذا تنتظر؟هل تنتظر عودته أم عودة زوجها الذي رفعت وتيرة غيابه من وحشة المكان عليها؟صارت تلاعب الشكوة وتجعل من صوت اللبن داخلها ومن طنين الذباب رفيقها في نسج ذلك التركيب الموسيقي الدرامي الرائع،تركيب يشدو عنده الذباب على نغمات الحزن والأسى على فراق قريب مات على الحدود مغدورا.ثم يأتي المساء....

طريق الناقات

كان في كثير من الأوقات يسترق السمع في ذلك المكان المسمى "أسهوو"، والذي كان بمثابة ملتقى



القادمة من فجيج أو جبل لعمور أو بوعرفة ومن الجزائر أيضا. مكان وصل إليه الفرنسيون للتسوق خلال السنوات الأولى من الإستعمار. كان يبدو له واسعا وهو في ذلك السن المبكر من عمره. كان يحاول الحصول على معلومات من أولئك الرجال الذين جلسوا مفترشين الأرض والمذيع يتوسط جمعهم، وقد أسند بعضهم كتفه إلى من بجانبه. يلتحفون جزءا من سماء ذلك المكان و تحيط به و بهم أسوار من طوب قديم. كان يحب أن يستمع إلى حديثهم حول فلسطين. لم يكن يفهم أهي إسم لإنسان أم لحيوان أم لشجر. لا مكان ثان في عقله لغير قريته. كان "السي عباس" شخصية لا تفارق ألسنتهم، و ارتبطت عندهم بالأحاديث النبوية وبالتقاضي بين الناس. تتردد الكلمة على أفواههم طول الوقت. ترافقت صورته في مخيلة تيمح

بضريح ذلك الولي الصالح القابع هناك في مغارة داخل جرف انشطر نصفين قد عمق الماء على مر السنين قاع واديهما وباعد بين ضفتيهما، وما عاد يصل بينهما سوى جدع نخلة مقعر وسطه، يعبر الزوار من خلاله إلى الكهف. إنه الولي "سيدي الشيخ" ويسمى عند أهل القرية "سيدي عبد القادر أمحمد". إرتبطت تلك الصورة أيضا بذلك الرجل المسمى "خالي قدور المسعود"، الرجل الضخم ذو الخدين الحمر اوين وهو يتقدم الجمع ضحى. يرفع وإياهم رايات بيض، ويسلك بهم طريق "الناقات" - الممر التجاري إلى الجزائر- يتقدمهم مرددا بصوت عال: "لا إله إلا الله، قدّمنا رسول الله. يا جاه محمد، قدمنا رسول الله". ومثل قوله تردد الجحافل ممن كانوا خلفه.



يقفون أعلى حافة الجرف والضريح أسفل في مرمى عيونهم. يقفون مكبرين مهللين لبعض الوقت ثم يؤدون ركعتي الضحى جمعا. كان الأطفال بعد ذبح الشاة قبالة الضريح وتلاوة الإبتهالات أمام عيني وسمعي الولي الصالح، يتفرقون في مجموعات، حاملين عيدان قصب تلتف بأحد طرفيها قطع قماش كثيرة بالية وقد شكلوا بها رأس عروس. تتقدمهم واحدة تحمل ملعقة كبيرة ذات مقبض طويل وهم يرددون: "أغنجا يا بَرّجايا ربي تجيب الشتا. "أغنجا يا بَرّجا.....يا ربي تجيب زُخا".عجبا! بعدها تغمر مياه المطر بساتين القرية. كان الحديث عن السلع والبضائع لا يمثل إلا جزءا قليلا من كلامهم في أسهوو. لكن أخبار الثوار في فلسطين والجزائر أخذت من وقتهم الكثير إن لم تقطعها حاجة لزبون عند هذا أو عند ذاك. كان تيمح يجلس بها إلى منضدة من طين "الدُّكَّانتُ" بالقرب من دار"آت قاسو"، وهو منزل واسع جدا كما يتذكره أو يتخيله، يأوي عائلة كبيرة لا تزال صورة أبيهم- "أمحمد" ماثلة في ذهنه لا تغيب - مر به ممدد

الجسد أمام باب الدار. ربما كان طويل القامة نحيف
البدن، تحمل عباءته الطويلة وسيقانه السقيمة،
وعمامته البيضاء حول رأسه عبء ما أمضى من
سنين. في هذا الوقت، كثر الحديث عما كان يعانيه
السكان بسبب مرض فتاك هاجم البلدة وقتها. ربما
كان الكوليرا أو الطاعون. سمع الناس يتعودون
منهما في كل بيت وساحة وفي الحقول أيضا. ربما
حصدا أرواحا هناك. لم يتذكر أن أحدا مات بهذين
المرضين آنذاك. ولم يحضر مأتما بسببهما. ظلت
الصور محفورة في عقله عن تلك الأحداث كشرائط
لا تنتهي. على يسار الساحة من باب بوطويل، يقف
منزل "خالي قدور المسعود" ويصل إليه المرء عبر
زقاق ضيق مظلم. سقفه من خشب. يقود إلى منزل
امرأة أصابها مرض لعين يناديها الناس "كوكة". لقد
تركت وحيدة تنهشها تلك العلة نهشا. تصارع في
صبر وأنيها يشق الجدران من حولها. زقاق يؤدي إلى
منزل أسرة رجل يطلقون عليه احتراماً له اسم "جَعَّة"
أي "أبوجمعة". تصل إلى دار "آت المسعود" عبر درج
من الحجر والطين. عند آخر الدرج مباشرة
تقف "مصرية" كبيرة لاستقبال الضيوف. تحتها يوجد
الدكان، وعلى اليمين في الأعلى بنيت بقية الغرف

موزعة بشكل غريب. كان خالي قدور المسعود رجلا طويل القامة، قوي البنية، أحمر الخدين، قد تشقق كعبا قدميه بسبب نعل لا تستغنيان عنه أبدا؛ أو بسبب ملامستهما للماء الذي كان يغسل به الموتى كما شاع في القرية. رجل لا يأتيه زبون من أعراب البوادي إلا رحب به فأطعمه وسقاه قبل أن يبيعه أي بضاعة. في الجهة الأخرى من الساحة يوجد ممر إلى منازل أخرى لأناس آخرين. منهم رجل يعرف ب "مو ضلحة" وعائلة "آت قلال"، وإلى يمينه يوجد دكان "الحاج النعيمي" وتتصل بكل هذه الدور في جهتها الخلفية دار "حمو بوستة" تقابلها دار "حمو دادا" وبقية دور "آت شارة"؛ وهم من كان يطلق عليهم "آت برا"، تحرسها باب ضخمة هي "الباب يُنورازُ التحتانية والفوقانية".

وسط الساحة هناك، رأى إبلا تجثو على الأرض منتصبه العنق. تجتر عشا ما يزال قليل منه عالقا بين الشفة والأسنان الأمامية، أخضر ممضوغا. كان يتأمل كثيرا شفقتها السفلى. ينظر إلى عينيها تتفحصان المكان باستمرار في كل اتجاه. ربما أفرغت سلعا أو حملتها إلى جهة ما. يذكر "باعزة"

وهو متكئ على ذراعه اليمنى وبجانبه تجار آخرون. ضمت الساحة خمسة دكاكين متجمعة. كان "دودو أمحمد" رجلا تقيا لا يفارق دكانه وما غادر لسانه طيب الكلام وعذبه. يقصد الأطفال الحانوت لشراء الحلويات، خصوصا تلك التي تشبه شجرة "السرو"، شجرة أعياد الميلاد"، حمراء اللون أو خضراء أو ملونة. ذات رأس حادة وقاعدة. حلو مذاقها. وأخرى يتوسطها ثقبان بهما خيط تدار به فيسمع لها زفير. كانت الساحة مرتبطة وجوديا بالقوافل التجارية التي كانت تنطلق منها وتمر أمام باب بوطويل، فساحة الجامع العتيق، لتعبر الزقاق الطويل الضيق إلى "أبريد تتلغمين" طريق الناقات، وعبرها إلى الحدود مع الجزائر.



كان الأطفال آنذاك مولعين باللعب في مكان خلف الباب الكبيرة "إنورار" باب طويلة عريضة من خشب النخل أو من خشب صلب لشجر آخر. كانت ثقيلة جدا. كانوا يلعبون على رمل ناعم ينحدر عادة من الأجراف المجاورة عند كل هطول للمطر. وهو قاعد على زاوية من المكان هناك، كان ينظر إلى هؤلاء الرجال، تتحرك أيديهم على الدوام بالتناوب. حتما كان النقاش بينهم محتدما حول موضوعات عديدة. كانت المواضيع محددة من قبل في تلك الساحة، إما محنة فلسطين والجزائر أو التجارة. لا مكان لموضوع آخر. فالفلاحة تناقش في "إمي نتركا" - فم الساقية - وهو مكان قريب من ساقية داخل غرفتين



خصصت إحداهما للرجال والأخرى للنساء. أما الأمور الدينية فلها ساحة الجامع. وللضحك والتسلية مكان هو "أسقيف جماعت". كان من الصعب على الأطفال المرور أمام هؤلاء إلا جريا. يفترض فيهم تقبيل رؤوسهم عند كل مرور وكأنها إتاوة لا بد من دفعها هناك. كان التملص من تقبيل الرؤوس مدعاة لغضب الآباء. و يجر العقاب حتى البكاء. كانوا يتحدثون فيما بينهم في السياسة، في الإقتصاد، وكأنهم يسIRON العالم ويتحكمون بشؤونه. وكأنهم يعلمون كل شيء عنه. وكأنهم الوحيدون الذين يفهمون في مجريات الأمور. ما يفارق المذيع معهم إلا عند الصلاة. تأتيهم الأخبار مع التجار

الوافدين من المناطق البعيدة. كان تيمح يجلس قريبا منهم. لا يدري لم استهواه ذلك المكان دون غيره؟ ربما كان مولعا بالإعلام منذ صغره. كان الشوق يأخذه إلى تلك العوالم الغامضة التي لا يعرف عنها إلا ما تنطق به أفواه هؤلاء. يقترب من مجتمعهم وخلفه باب بوطويل، تقف شاهدة عليه وعليهم وعلى ما يجري أمام عينيه يوميا. يقترب للحصول على المعلومة ربما لمجرد الحصول عليها. يعيش ذلك العالم الذي يتحدثون عنه وكأنه يراه. كانت القرية هي عالمه كما هي عالم جميع أطفالها الذين لم تسنح لهم الفرصة بالسفر إلى ما وراء جبل "تاويرت"، وما وراء "العقبة الكبيرة": المرتفع من الطريق الذي يلي وادي "مطرف". كانوا يصلون إلى هذا الوادي على أرجلهم. كان يبعد بضعة كيلومترات عن القرية. يصلونه اختصارا عبر جبال شاهق علوها، وعرة تضاريسها دون تعب. فقد كانوا صغارا مولعين بالمغامرة، خصوصا الإقتراب من البعير والنوق التي كانت تملأ أرض البادية حينذاك. تهب عليهم ريح الجبل باردة ترتجف لها عباةاتهم، ويرفرف من نفخها شعر نواصيهم، وتداعب الشمس خدودهم الصغيرة بلطف

شديد. كان "لحسن أعبال" شابا قد تمرس على فهم لغة هذه المخلوقات. يمضي معه والأطفال. يُطمئن خوفهم منها. كان يتحكم بها وكأنه صاحبها أو مروضها. يشير إليها فتجثو على الأرض. لا يخاف صوت جرجرتها الذي تكاد تنفطر من وقعه قلوبهم. تفتح فمها الكبير على أسنان ضخمة تخفي أنيابا مميتة. فم يفترش لسانا كالحصير يتعمق داخل كرشه كالسراب. كان الأطفال يخافون أن تعضهم. كان يحذرهم غضبتها. كانت لتُخرج معدتها أو رثيتها وتفترسهم. إنها تفضل الأطفال الصغار. هذا ما أخبرهم به هذا الشاب. رآه تيمح بطلا وهو يقف قريبا من تلك الإبل الجامحة. لا يهابها. كانوا يغرقون وسط نباتات الدفلة المنتشرة في وادٍ "عنفز". لا يدري ما كانت تعنيه الكلمة عند أهل "إيش". كان خوف الأطفال يشتد إذا دخلوا هذا الوادي العريض. كانت نباتات الدفلة كثيفة فيه. تخفي بين أغصانها وتحت زهراتها أجساما مخيفة من جنس البقر. بدت الثيران كما يتذكرها سوداء اللون أو بنية. ذات قرون قوية منتصبة حادة. بدت غاضبة الجبين. كان يخاف أن ينظر إليها أو يقترب منها. يخافها إذا رفعت وجهها وعلا خوارها واندفعت تطوي النبات تحت قوائمها

تريد شرا بمن يزعجها. نظراتها حادة تخفي كراهية
وضغينة. كان يستغرب لِم هي عنيفة وشرسة
كذلك. لقد قدمت من هناك، من خلف الحدود؟ رآها
عدوانية كعدوانية ذلك العقيد الجزائري الذي اعتدى
على عائلته من قبل. ما تلبث هذه الحيوانات تتوارى
عن الأنظار والغروب يبسط جناحيه على
المكان. تهب على أثر رحيلها نسيمات المساء تحمل
عبق الزهور و قطرات ماء كالرذاذ ترفعه من برك
صغيرة على وادي " مطرف "الوديعة.

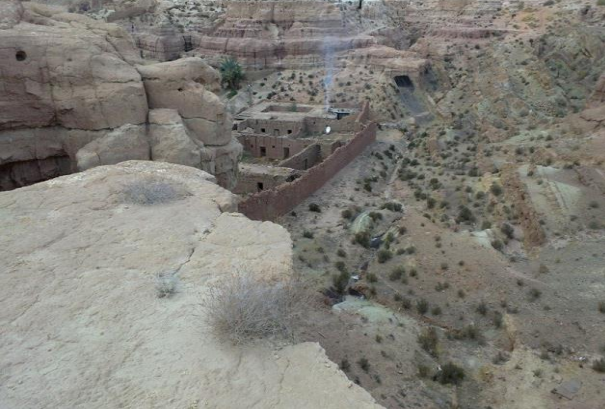


على الطريق من هناك، كثيرا ما كان يمر بضريح الولي الصالح المعروف عند أهل البلدة بسيدي "محمد بن صفية". بناء من مواد محلية بسيطة. يشاع أن بداخله قبر زين بأنواع وألوان من الأثواب. لا يتذكر المكان جيدا، ربما لم يدخل إليه إلا مرة أو مرتين. يفعل ما كانت الأمهات يفعلنه تماما. كن يقطعن مسافات طويلة في رحلة البحث عن وسيلة تجلب السعد الحسن كما آمن بذلك الناس هناك؛ أو تجلب الشفاء. -لم ينس قط يوم اصطحب أمه إلى أحد الأضرحة واسمه "سيدي عطاء الله". كان في أعلى جرف بالجهة الشرقية من القرية.



سارا صباحا وطلوع الشمس.مشى خلف أمه بلا هدف غير ذلك المتمثل في شفاءها من نتوء فطري يسبب لها ألما شديدا وبه قيح كثير.كان يراقب أمه وهي تمرر تراب القبر على صدرها.وأي قبر؟بعض من حجر مغروس في الأرض بشكل دائرة واسعة؛ عليه قماش كالرايات على أعمدة من خشب أو قصب.بضع شمعات يستلقين بجانبه و قد انتصبت إحداها تحرس القبر في وقار.يراقب أمه تتلو أدعية لا يسمع منها عدا كلمة"يا ربي".ترفع رأسها و الكفين إلى السماء كلما ألفت حفنة تراب على مكان الضرر.كانت الشمس أشعتها في ذلك اليوم متوسطة الوهج.وقفا هناك على حافة الجرف وظلها يمتد إلى أعلى سطوح المنازل المجاورة.كان ينظر إلى ظله تكتمل فيه أجزاء جسمه تارة،وأحيانا لا يظهر إلا بعض منها.يتملكه الخوف حين لا يظهر رأسه من الظل.يستهويه ذلك كثيرا فينسى النظر إلى الطريق أمامه.يتعثر و يكاد يسقط وهو في رحلة البحث عن رأسه في الظل.كانت أمه لا تتوقف عن مناداته.تحذره من الوقوع من على ذلك الجرف السحيق.ترأت القرية أمامه بأبنيتها وحقولها وديعة ساكنة، إلا من بعض

الديكة التي لازالت تصيح معلنة قدوم النهار.هناك بعيدا،كان فلاح يحمل القادوم يبغي حقله.وفتاة تجري خلف قطيع سبقها إلى المرعى في بستان على الضفة الأخرى من الوادي ،كانت تمسك بطرف من عباءتها ترفعه قليلا حتى ظهر بعض من سيقانها الصغيرة. قليل من دخان ينبعث من مدخنة على سطح أحد المنازل،وامرأة تنشر غسيلها على جبل في سطح منزل قريب.



كان لها موعد مع الساقية عند الفجر.خافت أن تسبقها أخريات أو يكتظ المكان فلا تظفر بحصة في تصبين ملابس العائلة.عادة،وشفيت أمه بعد ذلك تماما من ذلك المرض الخبيث.تملكته حيرة لا تغادر عقله.هل كان لتربة الضريح تأثير ما على ذلك المرض؟ بأي لغة خاطبته؟لماذا شفيت هذه المرأة بعد زيارة هذا الضريح وليس في القرية طبيب؟هل بتلك التربة عناصر حيوية مضادة للأمراض؟ظل يشكر ذلك الضريح كلما وقف يلعب أمام الباب"نورار"وقد تملك الظل الساحة قبيل المغيب.ينظر إليه شامخا مهابا وهو هناك في الأعلى،أعلى الجرف الذي يستضيف قبر ذلك الولي الصالح الذي أبعد الخطر عن أمه !!!

في ضريح "سيدي محمد بن صفية"لم يتردد الزوار في أخذ حفنة تراب من الضريح ينثرونها على رؤوسهم وصدورهم تبركا به كما توارثوه عن الأجداد والجدات.لم تسلم جدرانها وحجارتها من قبلاتهم المتكررة.ظنوا أنه كلما زادت القبلات على الحجارة،كان الحظ أوفر،وبقدر كمية التراب المبتوث على البدن،تكون الإجابة أضمن.كان زوار المقام

يتنافسون في حمل أكبر حفنة تراب ونثرها على رؤوسهم و صدورهم، يهمسون أدعية لعل تلك الجدران وتلك الحجارة تسمعها فتجيب. يحملون كميات منها في قطعة قماش إلى منازلهم حتى تشمل البركة من لم يزر الضريح يومها.

كانت ساحة "أسهوو"مفتوحة في جهتها الغربية على مسجد القرية عبر زقاق قصير لا يكاد المرء يقطعه حتى يجد جمعا من الرجال وقد أخذوا مكانهم في انتظار الصلاة الجامعة. بجانبهم عصيهم، وتتدلى عباءاتهم حتى تلامس الأرض الجافة. وبين الفينة والأخرى ينطلق صوت من هنا أو من هناك متسائلا عن أمر أو مجيبا عن سؤال؛ وصاحبه يخط بعصاه على التراب خطوطا ربما ليزيد الأمر وضوحا لسامعيه، أو للتعبير عن حدة في الطباع أو قوة في الموقف. لم يكن يصل حديث الساسة التجار في الساحة إلى الآخرين في الجامع لأن المسافة كانت كافية لعزل الأصوات عن بعضها هناك. تتوسط المكانين باب بوطويل، وهذا كفيل بامتصاص أصوات الفريقين معا. كانت تعج بحركة لا تعرف توقفا، وأصوات تتدفق عبرها كالحمم. في المساء،

حيث تخدم الحركة تماما، حركة المشتريين، تترائى
الفوانيس بنورها الخافت تتلأأ داخل الدكاكين حيث
يستعد أصحابها للمغادرة إلى الجامع العتيق حين
يرفع الآذان، ثم إلى دورهم. يخيم الظلام على المكان
ويلقي بسواده على تلك الأبنية القديمة لتبدو ظلالا
مخيفة منتصبه شاهقة تلامس بحوافها السماء،
وتظهر عليها من بعيد كوات مضيئة بنور خافت
للمصاييح المستعملة حينها. تصبح الرؤيا شبه
منعدمة على الممرات لا يميز المارة إلا ظلال
جسومهم وصوت أقدام



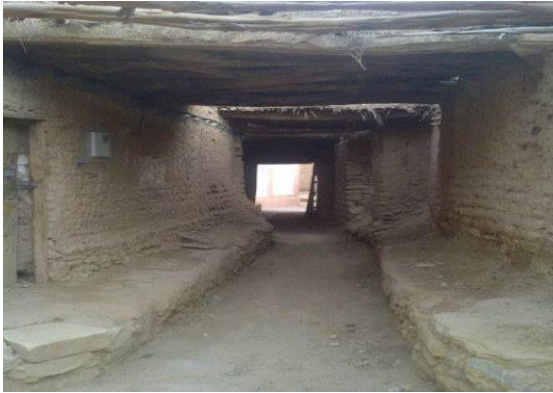
تهرول حتى لا يدركها سواد الليل. تصبح الساحة خالية تماما إلا من بعض العابرين الذين تخلفوا لقضاء بعض الحاجات، أو أولئك العائدين من الحقول متأخرين. ثم لا تلبث الساحة تجدد نشاطها وسط الحلقة. أشخاص يعبرونها لا ترى منهم سوى أصابع تمسك مصابيحهم اليدوية التقليدية؛ وأصوات أقدام تدغدغ أرضية الساحة فتتطاير لها حبات الرمل لتصيب نعالهم. إنها أقدام تهرع إلى المسجد للصلاة. أكثر ما ميز الساحة كلما حل شهر يناير وتوسطت أيامه، هو إقامة ولائم من شعير أو قمح يدقونه بين فكي رحي حجرية ذات يد خشبية. حتى إذا استوى، طبخوه على القدر. فإذا نضج، مزجوه بسمن كثير. يحمل أحد أفراد العائلة من الأطفال صحناء مملوءة من هذا الطعام، ثم ينطلق عبر الأزقة في جنح الليل إلى إحدى الدور. حتى إذا التقى الأشخاص ببعضهم في تلك الساحة، نادى بعضهم بعضاً: "من هناك؟" فيجيب الآخر: "إنه أنا". يردف الأول وقد تعرف إلى مخاطبه سائلاً: "إلى أين تذهب؟" فيجيب الآخر: "إلى دار جاجا أحمل لهم -إِوْرَانُ- شعيرنا ليتذوقوه". يجيب صاحبه: "وأنا أحمل شعيرنا إلى دار" آت الطاهر". وهكذا يمضي الجزء الأول من الليل

في حركة دائبة يرجو أصحابها أن تعم البركة بعدها ذلك العام ويعم الخير. تتناول الأسر في تلك الليلة أكثر من طبق. توارث الناس في القرية أنه من أكل طعام أسرة فقد تذوق "ملحها" ومن يتذوق "ملح" أسرة، فإن عليه ألا يسيء إليها أو يتحدث عنها بما تكرهه، فإن فعل، "بَرَكَ" -تراكم- الملح المأكول في ركبتيه وركب أبنائه وأصابه المرض. كان الناس يخافون أن "يَبْرَكَ" الملح في ركبهم. ربما اعتقدوا هم أيضا مثل "أحمد أَيْدْرِيس" و تيمح أنه ينبت. لكن نباته لا يكون في الطبيعة بل داخل ركب النمامين والمغتائبين، ولذلك كانوا يشكرون صاحب الطعام ويحمدون الله، وتظل العلاقة بين العائلات متينة طالما تذكروا الملح الدسم لتلك الليلة. ينصرف الجميع إلى البيت بعد نداء يُسمع من بعيد. كانت الجدات ينادين الأطفال المتخلفين خارج المنازل بصوت مرتفع عدة مرات من فوق سطوح الدور أو من أمام الأبواب. وإذا ما تعذر عليهن ذلك، طلبن من أحد الأطفال المناداة بدلا منهن. أصوات كثيرة تتعالى من كل الأماكن حتى ليعجز المرء عن تبيين المطلوب بهذا النداء من ذاك. ينطلق الجميع جريا دون وداع في تلك الظلمة تطردهم لسعات الريح

الشتوية لمعانقة الكانون. هناك سيكون الموعد مع أطباق الشعير المنسم بالدهن "البلدي". لم يكن تيمح يرغب في مثل هذا الطعام، كان يمتنع عن تناوله امتناعاً، لكن الأمر لم يكن بيده ولا بيد الكثير من الأطفال الذين كانوا يكرهون هذا النوع من الغذاء، فالجدات يقفن لهم بالمرصاد. كن يقنعن الصغار بوجود مخلوقات خفية تتدخل في الوقت المناسب وفي مثل تلك المناسبات لإجبارهم على الامتثال لأوامر أو نصائح الكبار. كن يخبرنهم أن "طامزا"، أو ما كان يعرف بـ "ماما غولا" تحوم حول القرية في تلك الليلة وترصد كل ممتنع عن تناول "إوزان"، ثم تنزل إليه بعد منتصف الليل لتملأ بطنه بالحجارة. في الصباح، لم تكن الجدات تجدن في أواني الأكل ولو حبة شعير واحدة، بل صُحونا نظيفة من شدة ما لحستها السبابات خوفاً من "طامزا" وحجارتها الثقيلة الصلبة.

مس الجن

أمام عين باب بوطويل، كان الأطفال يعبرون زقاق الظلمة المرعب "اسقاق تتالست" إلى مكان كان بمثابة استراحة لرجال القرية يقضون به قيلولتهم. كان تيمح يمر بهم وهم يغطون في نوم عميق. يخيفه الشخير المتواصل لبعضهم. كانت حناجرهم فوهات مداخن تدفع بما تجود به معداتهم من روائح كريهة. كان المكان يسمى "سقاق تنمز كدة" زقاق المسجد



كان والأقران يتعمدون الصعود على المنضدتين الصخريتين المتقابلتين الممتدتين على طول المكان، تستطيلان أمام عتبات دكاكين صغيرة ذات أبواب قصيرة من خشب لا تفتح إلا نادرا. كان مكانا للتجارة أيضا، لكنه مخصص لتخزين البضائع فقط. ترتفع المنضدتان عن الأرض بنصف متر تقريبا. يجري الأطفال فوق المنضدتين وهم يصيحون بأعلى أصواتهم فيفيق النيام على أثر ذلك الصراخ؛ يصبون عليهم جام غضبهم شتما ولعنة قبل أن يعودوا إلى شخيرهم. يخفت صوت الصغار فجأة بعد بلوغهم الطرف الآخر من المكان حيث يوجد بئر الجامع. حيث توجد أشياء لا يستحب إزعاجها، حيث أن إيقاظها لا يشبه إيقاظ هؤلاء الذين يملؤون المكان شخيرا. كانت الجن تسكن البئر، وبالغرفة التي تحتضن البئر نعش. جعل السكان الغرفة مكانا لتغسيل الموتى. لم يقدر أحد على الإقتراب منه أو يرفع عينيه اتجاهه. ظل الكثيرون يؤمنون أن أرواح هؤلاء الموتى تستقر هناك، تحوم حول المكان في أوقات معينة من الليل أو من النهار. كان يعلم معنى كلمة "جن". لقد رأى مفعولها في ذلك الليل على جسد أمه. لقد كان

هناك يوم ولد أخوه عبد العزيز وقد أصيبت أمه بمس. كانت القرية مطبوعة بالظلام، وهو فرصة لتعشش الجن وتتكاثر وتهاجم. أخبرته أمه لاحقا أن ما حدث لها كان بسبب ما عاشته من ضغط نفسي عليها كما كان الشأن على باقي نساء القرية في تلك الفترة- كان هناك، في ذلك الليل الحزين، ينظر إلى ما يجري في تلك الغرفة ذات الباب الخشبية الزرقاء. كانت أمه طريحة الفراش، يحيط بها رجال و نساء لا يتذكر منهم إلا الإمام ومساعدته. يعلم أن "الطالب" أو الفقيه "سي عبد الله" كان بطل الليلة. ما أن شرع يتلو القرآن أمام المريضة تحت ذلك الضوء الفاتر للمصباح القديم المستعمل آنذاك، حتى انطلقت قهقهات الجني تمتزج ببكاء يجعل من ينظر إلى وجه المرأة يرق لحالها. ينفجر بعد ذلك بصوت قوي يجعل جسم المريضة الممدد يثب كمن يريد أن يفترس طريدة، ثم يعود إلى وضعه الأول بسقوط قوي يصدر على أثره أنين غريب مخيف. كان يسمعها قريبة منه تماما. تبدأ على شكل "هه هه هه هه" طويلة مسترسلة. لا تلبث بعدها أن تتحول إلى صوت متقطع لم يعتقد قط أن أمه كانت قادرة على استصداره بهذا

الشكل، ولهذه المدة، وبتلك القوة يتحول بعدها إلى "متمم مئتمم....." وهكذا إلى أن تبدأ أصوات جماعية تخرج من فمها. كانت غليظة. كانت أصوات رجال كثر. أصوات رجال كثر سمعها حقا. كان الطالب "سي عبد الله" يأمر الجنى بالخروج من جسد المرأة، لكن الجنى كان يرفض بقوة. يستمر المشهد تشويقا وتعقيدا. تتصاعد لهجة التهديد والوعيد ولغة الرفض والقهقهات المثيرة. أخيرا إهتدى "الفقيه" إلى طريقة يمكن أن تهزم الجنى. لقد قرر اللجوء إلى النار. قرر إحراقه. من أجل ذلك، أخذ يكوي أطراف المرأة المسكينة فيصيح الجنى بكل ما أوتي من قوة. يُفتح على إثرها فم الأم واسعا. تدور المقلتان داخل العين سريعا وفي كل اتجاه. تتأب المرأة باسترسال فتتمدد عضلات الفكين طويلا. تميل الرأس يمينا ويسارا بشكل مدهش حتى تلامس الكتفين. يتفاعل مع ذلك جلد وجه المرأة فيبدو أحيانا كوجه رجل مسن كثيف التجاعيد، وطورا يظهر صافيا كوجه طفل حديث الولادة. كان يسمع ذلك الصياح يخرج من حنجرتها صافيا مرتفعا دقيقا؛ ثم ينتهي ويتوقف لبرهة، تتلوه تنهيدة عميقة، تنهيدة من أشيع ضربا. هل كان

الجنّي يتعذب فعلا أم كان المشهد فقط جزءا من تعذيبه لتلك المسكينة؟ هل هو ضريبة يجب أن تدفعها جراء رغبتها في طرده من مسكنه بجسدها؟ لم يستطع تيمح فعل شيء لوالدته. كان يراقب ذلك الصراع المرير بين الفقيه والجنّي. صراع كانت حلّته جسد أمه، وأبرز اللاعبين فيه من العالم المخفي. استدعى "سي عبد الله" مساعده والليل قد انتصف. كان اسمه "أحمد أو عبد الله". لم يصف شيئا إلى ما فعله سابقه غير طلب إحراق الجنّي في ناحية أخرى من ذلك الجسد المرهق السقيم. إختارا كيّ الشفة العليا من الفم. هاهما يشمران عن ساعديهما. يمسكان بالأدوات اللازمة للكي. ينهالان على تلك المنطقة تحت الأنف يكويانها بلا هوادة. كادا في تلك الساعة المتأخرة من الليل أن يحدثا ثقباً في تلك الشفة. ربما خيل لهما أن الجنّي كان تحتها فعلا. كانا يبحثان عنه. حسباه يختبئ هناك؟ ظلا يستمتعان بتلك الأصوات المختلطة القادمة من أغوار المجهول داخل ذلك الجسد في غضب. لم يستعملا أي بخور ولم يكن بالغرفة دخان ولا روائح. كان كل شيء واضحا أمام الصبي. رأى وسمع وأحس بكل شيء. ما يزال الجنّي يصرخ

ويصدر أصواتا تختلف حسب الموقف. كان يهدد ويتوعد و خصماه يردان بالمثل في عناد. كانت القهقهات لا تتوقف عن الخروج من فم المرأة. كان يعلم أنها ليست أصواتها. إصطحبه أحدهم إلى الخارج، إلى غرفة قريبة ثم نام حتى طلع النهار.

في الصباح، دخل الغرفة التي بها أمه. كانت هناك تتوسد جانبها الأيمن. دعتة فجلس قريبا منها. لقد نزعت الأظافر من مكانها. إنتزعتها نيران ذلك العمل الجبار للفقيرين. سلخت المنطقة تحت الأنف من وجهها. كانت أمه مختلفة تماما. مخيفة. يدل شكل وجهها على أن بداخلها مخلوقات غريبة عجيبة تختبئ في ناحية ما من جسمها. قد تخرج فجأة وتحول المنزل إلى فوضى. تلك الفوضى التي تسببت فيها مثيلاتها كانت تختبئ بإحدى زوايا منزل "دا بوبكر". دار أسرة "آت علي". كانت تخرج وترفع الأواني و ترمي بها الأشخاص في الدار. كانت ربة ذلك البيت تعد طعام الكسكس ذات مساء حين رأت طبقا يرتفع إلى أعلى ويفرغ ما كان به من دقيق على أرضية الدار. ثم، وأمام ذهولها، تم إلقاء الطبق بعيدا. انطلق الغربال يحدث صفيرا وهو يدور

في فضاء الغرفة وحول جدرانها لبضع دقائق قبل أن يحط برفق قريبا من المرأة وهو يرقص تحت صوت طبول وزغاريد مجهول مصدرها. سمعت المرأة أدوات أخرى تتساقط على الأرض وكأنها كانت معلقة بالسقف، تحدث صوتا رهيبا يصدر من مخلوق اعتراه غضب شديد. ظل المنزل مسرحا للجن تعبت فيه كما تشاء حتى اهتدى أصحابه بعد شهر من الخوف إلى متخصص في طرد هذه الأرواح الشريرة بفجيح وكان يدعى "سي قدور". كتب السي قدور أربعة أحرز وطلب أن يوضع كل واحد منها في ركن من أركان البيت. إستتب الهدوء و الأمن عندها وعادت حياة البشر إلى طبيعتها من جديد- كانت جدة تيمح ومعها النسوة يترددن على غرفة أمه على امتداد ذلك النهار. كن يقدمن لها بعض الطعام وأدوية محلية من الأعشاب البرية، مشفقات عليها، راثيات لحالها، تعلقو وجوههن حسرة على ما أصابها. لم ينس ذلك الليل ولم تنسه أمه حتما. ربما كانت تلك الأحداث سببا في بداية تردي ما يربط بين مكونات تلك العائلة من علاقات.

بجوار زقاق المسجد، كانت ساحة أخرى. كم كانت تبدو واسعة آنذاك. إتخذت شكل مربع؛ وبرزت أكثر فساحة ورحابة. كانت تسمى "تامزكيدة تاوسارت" - الجامع القديم أو "العجوز" - لم يكن لها سقف يغطيها. كانت مكانا للصلاة قبل أن تتسع القرية



ببيوتها وأزقتها ويبنى جامعها الجديد. كان قبر الولي الصالح "سيدي أحمد وعلي" يقف على زاوية

من المكان. بداخله بعض الشموع. ذو جدران قصيرة وسقفه من خشب وقصب. بجانب الضريح، يوجد دكان "آت إدريس". لم يشهد بهذا المسجد صلاة قط. كبر الصبي وهو يسمعهم ينعتونه بهذا الإسم. كان يملك كرة صغيرة لا يفوق حجمها راحة اليد. يخرج هناك ويلعب بها كل مساء وأذان العصر. كان يضربها على حائط الدكان المرتفع قليلا والشمس تغادر المكان مودعة. يلامس بعضها من نورها الفاتر بلطف واجهة منزل "خالي قدور وعلي" - منزل حيث يوجد "محمد أقدور". الضريح الذي يرى كل شيء ببصيرته. يذهب إلى حقله، يقوم بكل أشغاله بإتقان - كانت لحظات لا يمكن أن يمحوها الزمن على تلك الساحة. كانت الكرة الصغيرة الخضراء تتجاوز الحائط قليلا فيعُض على شفثيه خوفا من أن تسقط بسطح منزل "مامّا فانا". كانت امرأة طيبة، ربما في الأربعينيات من عمرها. كان سقوط الأشياء إلى دارها يحدث خلافا في توازنها المزاجي. تكره ذلك مقتنا. كان ينتظر خروجها، وحين تتأخر في ذلك، يدخل منزلها ويقول: "إن جدتي تريدك في المنزل توا قصد تناول كأس شاي معها". لا تنتظر المرأة سماع نهاية تلك الجملة. فالمهم لديها

هو المعنى. تسارع إلى حمل إزارها. تضعه بشكل عبثي على جسدها، ثم تنطلق دون أن تنظر خلفها. يدخل الطفل المنزل ويصعد إلى السطح فينقذ كرتة ثم يعبث بأواني مطبخها؛ بيعثرها في كل اتجاه. يأخذ قليلا من "الكليلة" - وهي من مشتقات الحليب. يعدها الناس بتسخين اللبن وإزالة السوائل عنه وتجفيفه - لم يخلُ بيت في القرية من هذه المادة. يضعونها على أطباق من نبات الخلفاء تحت أشعة الشمس في الأسطح. كان يأخذ القليل منها، يلتفت خلفه مراقبا باب السطح يخاف أن تفاجئه المرأة بعودتها، ظلت الحدأة تتابع حركاته من على ذلك الإرتفاع في الجو، تنشر أجنحتها الكبيرة وتستعد للإغارة على الطبق بدورها. كان الشيء يبدو لها أبيض اللون جذابا. تحوم وتحوم منتظرة نيل نصيبها من تلك المادة المحبذة حموضتها. كان الصبي خصما عنيدا لها على ذلك السطح. منافسا شرسا. ربما ساعد تواجده عشيتها على الحفاظ ولو على قليل من المادة ل "ماما فأتا". ظل يضع قطعاً تلو أخرى بين فكيه يقضمها، فيقشعر بدنه لحموضتها قبل أن ينصرف فرحا بمكسبيه الثمينين. كل ما يذكره عن المسجد القديم، أنه كان

مخصصا للإطعام في "المواسم". تُقدّم فيه ولائم الكسكس المحلي اللذيذ ممزوجا بالسمن والعسل واللحم. هناك كان الناس يأكلون معا. صغارا وكبارا بملاعق يتناوبون عليها أو بأيديهم. ثم، وبعد الإنتهاء، يتبركون بتربة الولي قبل أن ينصرفوا وكلهم أمل في تحقيق ما تمنوه عند قبره.

تضرب الجن في مكان آخر من القرية وتمس آخرين من جديد بعد حين من ذلك الليل البئيس... تمارس الطقوس المعتادة لطردها ثم تعود من جديد

.....

وتبدأ ساعات المساء.....

إلى المدرسة

قبل أن يدخل المدرسة، وفي تلك القرية الخضراء أشجارها، المصفرة رمالها، الشامخة جبالها والمغردة طيورها والجارية مياها، كان يمر بالمدرسة ذات الفصول الأربعة. كانت تترآى أمامه كشيء مستحيل ممكن. يلج فضاءها صباح مساء شبان ذوو لحي سوداء. طويلو القامات. صلبة بنيات أجسادهم. كثيرا ما ذرفوا دموعا خجولة يمسحونها بأكمام جلالبيهم أمام أنظار الصغار في مدرستهم. دموع جراء ما يتلقونه من إهانة ويحسون من حقار وهم يعاقبون. كانوا محاصرين بين عصا المعلم الذي لا يبخل عنهم بضربات تزداد قسوتها كلما زادت أخطاءهم أو قل حفظهم، وبين رغبة الآباء في أن يروههم متعلمين، وهم لأجل ذلك يوظفون كل سلطتهم. على أكتافهم أكياس صغيرة من مادة الحلفاء أو من جريد النخل. بها لوحة وطباشير. كان الصغير يختلس النظر إلى هناك حيث يوجد القديس الذي لا يرد طلبه. هناك حيث ذلك الولي الصالح الذي يرتجى أن تعم بركاته البلاد والعباد. هناك حيث ذلك الذي لا تتم لمة إلا إذا كان

ضيف شرف فيها، ولا مناسبة سعيدة أو حزينة إلا كان حاضرها. كان الطفل يخاف من ذاك المكان، من المدرسة، لأن هناك، كان يوجد ذلك الرجل المحترم، يوجد مربى الأجيال، هناك كان يوجد المعلم.

كانت مدرسة القرية على جانب الطريق إلى المدينة. كان "سي الطيب" قيDOM معلّمها. وُجد آخرون أيضا لا يذكر منهم عدا تلامذتهم وبعض الصور لهيئاتهم. لا يذكر اليوم الذي دخل فيه مدرسة القرية لا يذكر من رافقه في شهر شتّمبر من عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف



إلى هناك.أكان أبوه أم جدته،أم ذهب وحيدا مع الأقران؟هل ذهب عن طيب نفس أم مرغما؟هل بكى يومها فراق أمه وجدته والمنزل؟أي شعور انتابه وهو يلج ذلك الفضاء الجديد.لا يتذكر حال الطقس يومها،ولا من كان هناك في تلك المساحة المستطيلة ذات الغرف الأربع.أربع غرف متقابلات مثنى مثنى.أبوابها خشبية.إحداها تطل على الساحة العامة بنافذتيها الخشبيتين.بين القاعات فراغ يتجمع فيه التلاميذ لتنظيم الصفوف عند كل دخول وخروج.هي على مرتفع تطل على الحقول والوادي.هي أول بناية تستقبل من يفد القرية من جهتها الغربية.لا يتذكر يومها ماذا حمل معه في ذلك الصباح من أصباح أواخر الصيف.صحا يومها في هذه البناية على رجل يلبس جلبابا من الثوب أخضر اللون قليلا.تغطي رأسه قبعة الجلباب يطوي حوافها إلى أعلى.يختفي معظم جسمه خلف طاولة قديمة لا تشبه تلك التي يجلس عليها الأطفال إلا قليلا.رآه يجلس وبين يديه أوراق أو ربما كتبا يقلب صفحاتها.جلس الطفل إلى طاولة من خشب متين يكاد وسخ السنين يخفي لونها الحقيقي.في وسطها ثقب أدخلت فيه محبرة مملوءة مدادا.



خلف مقاعد الأطفال ؛ كانت الكتب المدرسية مصففة جميلة تتراقص صور أغلفتها أمام عينيه تراقص ماء بئر أمام الظمان في يوم حر. صار يحرك رجليه في سعادة وهو ينظر إلى الخلف، إلى تلك الكتب المزينة بأبهى الصور. أول صورة استرعت انتباهه آنذاك على جدار ذلك الفصل، هي صورة خضار وجزار. كان ينظر إليها مليا وبشغف. كانت الخضر تملأ حقول قريته الوديعة. بها من كل فاكهة صنف أو صنفان. لكن الصورة على الجدار كانت مختلفة تماما. كانت الخضر والفواكه مرتبة في تنسيق بديع. كان اللحم في دكان الجزار يثير اهتمام الصبي، والناس في قريته لا يتناولونه إلا في العيد أو في المناسبات الدينية. كان ينظر إلى ذلك الرجل

ذي البنية القوية على الصورة، إلى ابتسامته، إلى ذراعيه. كان في قرينه رجال يشبهونه تماما. حمر الخدود، مفتولو السواعد، لكنه انجذب إلى الصورة انجذابا لم ينتبه منه إلا على نداء المعلم و على صفة مفاجئة حارقة على خده. كان المعلم لا يفارق مكتبه إلا نادرا. يوجه الأطفال بكلمات تغلفها صرامة. يوجههم إلى قراءة حروف على إحدى صفحات الكتاب. بضعه أطفال يشكلون كل الفصل خلال هذا الموسم. يجلسون مثنى مثنى. كانت الأبدان صغيرة تسمع لها ضجيجا لا يثير فضول المعلم إلا قليلا. من خلال نافذة حجرة الدرس، يلتقط الطفل صورا لتلاميذ القسم الخامس. شبان يقفون بطولهم وعرضهم هناك أمام المعلم. يلتحفت وجوههم الخوف والخجل. كان المعلم يحمل عصا تجوب معه الفصل جيئة وذهابا ويدها خلف ظهره. لم يكن صوته يصل إلى الحجرة المقابلة. كانوا يسمونه معلم الكبار، معلم الشهادة كان "سي العربي" قاسيا جدا. كانت تلك الصبيحة بالنسبة لهؤلاء كيوم الفصل في ذلك الفصل. إنها ساعة استظهار القرآن الكريم. ساعة شكل النصوص وإعرابها شفها على السبورة.

ذات صباح من أيام الدراسة في ذلك الصف وقد تقدمت الأيام بهذه السنة، وبينما هم يقرؤون على كتاب القراءة لأحمد بوكماخ "إقرأ"، لاحظ المعلم أن عدد الكتب تناقص بشكل كبير جدا، فطلب منهم يوما أن يتناوب ثلاثة أطفال على كتاب واحد. تسابق الجميع يختارون من يفضلون إضافته إلى مجموعتهم، فكان أن إختار تيمح وهو يجلس مع ابن عمته "وَالَا"، إختار قريبا له من جهة أمه يدعى "مَآنَا". قام وابن عمته يقطعان بعض الأوراق من الكتاب كما اعتادا أن يفعلوا من قبل. لم يكن يسمح للتلاميذ على ذلك الزمن بحمل الكتب إلى المنازل. كانت الصور عليها جذابة تغري النفس وتدفع الأيدي أن تمتد إليها بالقطع. وضعها داخل محفظتيهما استعدادا لنقلها إلى المنزل والتمتع بقراءتها وتصفح صورها. فجأة، ومن غير سابق إنذار، أخذ "مَآنَا" يصرخ بأعلى صوته مناديا معلمهم: "آسي الطيب، إنهما يسرقان أوراق الكتاب، أنظر هاهي داخل المحفظتين". قام "السي الطيب" من مكانه، يغادره ببطء وهو يتجه نحو مقعد السارقين ويداه إلى الخلف. طفق بقية الأطفال ينظرون إليهما في دهشة واستغراب. أخذ المعلم

يتقدم ببطء بين الصفوف. يشمر عن ساعديه، حمل عصا غليظة استخرجها من مكان ما خلف الصفوف من غرفة الدرس. توجه نحوهما من جديد وقد غطى حاجباه معظم تجويف عينيه من شدة الغضب. طلب منهما الخروج من مقعدهما. كانا يجلسان معا في السراء والضراء. اليوم يوم ضراء لا شك. يوم عسير بلا منازع. يوم عبوس قمطير لا ريب فيه. قاما بتنفيذ ما طلب منهما وهما يلتفتان يمينا ويسارا خجولين مما فعلا. صار التلاميذ يضحكون ساخرين منهما و يرددون جماعة بنبرة بريئة وبلهجة محلية رقيقة "أخْوَانُ-أخْوَانُ - أَخْوَانُ". سيطر الخوف على السارقين و حلول وقت تنفيذ العقاب. أمرهما المعلم بالصعود فوق إحدى الطاولات الأمامية. إستدعى أربعة من كبار التلاميذ. كانوا غلاظا شدادا لا يعصون المعلم متى ما أمرهم. كرروا الفصل لأكثر من سنتين. كانوا عارفين بكل شيء. حافظين لكل إجراءات العقاب التي يتطلبها كل موقف. أمسك اثنان منهما بذراعي تيمح، بينما تقدم الآخران وأمسكا برجليه بقوة وكأنه شاة مذبوحة في يوم عيد. في هذه اللحظات العصبية، لم يخطر بباله سوى درجة وقع العصا

وهي تسقط على قدميه جافة صلبة حارقة. لم يدم الإنتظار طويلا حتى صارت رجلاه تنملان من شدة ما ينزل بهما من ضربات. إنها "الفلقة" كانت أسوأ أسلوب للعقاب يعتمده المعلمون آنذاك. لم يتوقف معلمه عن ضربه إلا وقد تأكد من أنه لن يستطيع الوقوف إلا متكئا على كتفي من يساعده من زملائه. حُمِل إلى مقعده حمل المنتصر بين جماهيره. تتدلى قدماه من بين أياد لا ترحم، ألقته فوق المقعد بلا شفقة. أخذ يقاوم الألم باكيا. وكلما ارتفع بكأؤه صرخ "السي الطيب: هل تريد أن تعود؟ هل تريد المزيد؟" كان يومئ برأسه أن لا رغبة له لا في العودة ولا في المزيد. يرفع رأسه قليلا وينظر إلى المعلم الذي كان مشغولا جدا. لم يكن لديه وقت للإلتفات إليه ولو ليرى مدى ما أصابه من ألم أقعده. هاهو الآن يحرك الجانب الأعلى من جسمه يمينا ويسارا. هاهو ينفخ في الهواء بفمه من شدة التألم. ظل "وآلا" يتناول ما تيسر له من ضربات وقد تم مسكه بنفس الطريقة. يصرخ بصوت مرتفع. يقفز حوضه إلى أعلى قليلا كلما ارتطمت قدماه بطرف العصا. كان قربه يتفرج من مكانه لا يحرك ساكنا. جعل يفكر في عواقب وشائته خائفا

يتقرب وقت الخروج. عاد "وَالآ" إلى المكان محمولا وألقى بنفس الطريقة وكأنه قطعة خشب بالية تم الإستغناء عنها من نجار الحي. انقلب الطفلان يبكيان ويندبان حظهما في سوء اختيارهما الذي فضح فعلتهما. لم يستفيدا بعد نهاية الحصّة سوى مما تلقياه من ضربات. إستند تيمح إلى كتف أحد زملاء ليقطع المسافة إلى المنزل واضعا قدميه على الرمل الناعم البارد يضمدهما. وصل هناك على تلك الحال السيئة. أخبر أمه بما حدث له بسبب وشاية قريبها. صار يتوعده بكل أنواع العقاب. باتت تحاول تسكين آلامه بكلمات لا تخرج عن التأييب واللوم على ما اقترفه من تخريب لكتب المدرسة. إزداد ضجره وأمّه تعيد نفس كلماتها السابقة دون أي إشارة إلى محاسبة قريبها. وصلت جدته من الحقل فوجدته يئن ويصرخ من هول ما أصابه. طلبت منه ألا يفعل بقريب أمه شيئا مخافة أن تغضب عمته التي ربتة وربتها. لقد حضنته كابن لها لم يحمله رحمها كما حضنتها قبله. إمتثل لأمر جدته. ما كان ليخالفه. فهي كل شيء بالنسبة له. في الصباح الآخر، ذهب إلى المدرسة لكن قريبه تغيب يومها خوفا من انتقامه. طلبت منه جدته بعد مفاوضات

ماراثونية صعبة أن يبلغه عدم رغبته في الإنتقام. أرسل مبعوثا من أحد زملائه في الفصل ليخبره برضاه عنه. وأنه يسمح له بمواصلة دراسته. لم تمر عليه أيام تشبه تلك التي تلت "الفلقة". كان يحس بنفسه قويا وجدته تطلب منه أن يصفح. أحس بنفسه مهما. بطلا لايهزم وهو يسمح لذلك الطفل بالعودة إلى الدرس بعد غياب طويل دام يوما كاملا. أحس أن الكثيرين في حاجة إلى عفوه وصفحه. لقد أنساه ذلك حادثة يومها وما خلفته على نفسه وجسده من ألم.

في السنة الثانية بتلك المدرسة الجميلة، أصبح معلم القسم الخامس مدرسه. لا يدري لم أصبح كذلك. كان الصغار يزينون فضاء الفصل ويغسلون أرضيته كلما علتها أوساخ. يُطلب منهم جلب الماء من الساقية. ينزلون إلى أسفل منحدر يتعمق إلى ما يفوق المائتي متر. ينزلون بسرعة عبر رماله وهم يفترون فرحين. يصعدون وفي أيديهم سطول ماء مملوءة يحافظون عليها كذلك حتى لا يعاودوا النزول. يصعدون المرتفع. يفرغون ما تبقى من الماء على أرضية الفصل حيث يوجد من يتكفل

بتنظيفها.تنشط المكنسات في دفعه خارج القاعة ومعه كل الشوائب.وقتها،تناول عشاءا فاخرا من الكسكس واللحم واليقطين الأحمر مما تشتهييه النفس عند وصول أبيه بعد غياب طويل.كان الفصل يشق طريقه نحو الربيع.نام الطفل على أمل متجدد في أيام هادئة بعد تلك العودة الميمونة لابييه.حتى إذا كان الصباح،حمل محفظته وعبر الزقاق إلى المدرسة حيث يريد أن يحقق حلما لايقدر على تحقيقه أحد من تلاميذ القرية.كان سينقل خبرا ليس ككل الأخبار.رسالة شفوية تختلف عن كل الرسائل التي يعرفها أطفال القرية.ربما لم يكن يحس بوقع قدميه على أرضية ذلك الزقاق الذي قطعه لآلاف المرات من قبل،الزقاق الذي سيشهد حدثا هاما وخطيرا بعد هذه الرسالة.ربما خيل إليه أن الزقاق غير موجود ذلك الصباح.كأنه فوق بساط الريح يحمله بين السحاب ليحط به على أرضية المدرسة.كان الوقت مبكرا جدا،وريح أواخر فبراير الشتوية تقرص أنفه بشدة.كان عليه أن ينهض باكرا على عادته،بل ربما لم ينم تلك الليلة إلا جزءا قليلا من الوقت من شدة وقع انتظار أن ينبلج الصبح بخيوط ضيائه الناعمة؛وأن عليه أن

يصل باكرا أيضا. فالرسالة هامة وتتعلق بالكبار فقط. لا يجب أن يعلم بها أحد غيره والمرسلة إليه. ظل يقبلها بين فكيه دون عياء. تختلس أسنانه ولسانه تذوق بعض كلماتها. في المدرسة، قلب عينيه بحثا عن المعلم. كان هناك مع آخرين. لم يكن هؤلاء الآخرون ذوي أهمية ساعتها. وقف أمامه باحترام وإجلال يليقان بمقامه. انحنى المعلم متسائلا: "ماذا تريد؟" لم يتردد في الجواب ولم ينتظر بل بادر على الفور والغبطة لا تجد مكانا آخر تستقر فيه من نفسه: "لدي رسالة لك من أبي". "رسالة؟ أين هي؟ هاتها". قالها وانتظر أن يرفع الطفل عينيه وينظر إليه. رد تيمح وعيناه إلى الأرض: "إن أبي يدعوك للعشاء اليوم في دارنا. سينتظرك بعد صلاة العشاء". تنفس الرجل الصعداء، ودون أن يجيب، ربت على كتفه وأشار عليه بالإلتحاق بالصف. مضى الصبي و لم ينبس ببنت شفة. كانت المسافة إلى ذلك الفصل مليارات السنوات الضوئية؛ ومخيلته تضع آلاف السيناريوهات لطبيعة العلاقة الجديدة التي ستنشأ مع المعلم بعد هذا الحدث. أمضى الساعات منتظرا أن يمتدحه ولو بإشارة أو كلمة. مضت

دقائقها عقيمة باردة. في المساء، عاد وهو يتحرق شوقاً لرؤية المعلم يدخل داره لأول مرة. كان الوقت يمضي بطيئاً ثقيلًا. صار يدخل ويخرج ويطل عبر درج المنزل. كان الزقاق يبدو خالياً رغم وجود المارة به. فكل هؤلاء لا أهمية لهم بالنسبة له و المعلم ليس ضمنهم. إنتظر وانتظر. حتى عندما عم السواد بعد صلاة المغرب، كان ينظر عبر الظلام لعل ذلك الوجه الذي يراه دائما في المدرسة يطل من هناك، من الجانب الآخر من الزقاق. بدأ الرجال من أهل القرية يتوافدون إلى المنزل تباعا. جلس الصغير إلى جوار الموقد حيث القدر يغني بسخاء.



كان صوت غليان الماء بداخله يسمع من بعيد.تنبعث منه رائحة اللحم؛وقطع اليقطين الأحمر تجثو هامدة على صحن تنتظر بداية رحلتها نحو القدر.بجواره،كانت الجدة تمد يديها لتحصل على قليل من الدفء وقد رفعت رأسها إلى السقف بعد أن أثر الدخان على عينيها تتحاشاه.رآه يدخل غرفة الضيافة في وقار.رفرفت ذراعاها كأجنحة حمامة أصابها الذعر من طلقة قناص .صاح بقوة:"لقد حضر.لقد حضر.حضر"ثم ترفرف يداها من جديد فرحان نظرت إليه النسوة في استغراب شديد ثم أردفت إحداهن:"غدا سيقطع أذنيك".توجس الصبي خيفة من ذلك الفأل السيء قبل أن يقوم ويطل عليه من باب الغرفة وهو بين الرجال.رآه شامخا كالطود وقورا.قرأ فيه كل رصانة الدنيا التي لايعرف منها غير قريته.سر جدا برؤيته.

حل يوم الغد بعد ذلك العشاء.حل يوم النحس ذاك ويوم النكد.نهض كعادته مبكرا.غسل يديه ووجهه على الطريقة التقليدية.حمل محفظته التي خاطتها جدته من قماش.هم بالخروج من الدار قاصدا دار

العلم، فإذا به يسمع صوتاً ليست نبرته بغريبة عنه، صوتاً ينادينه من غرفة في الدار، صوتاً يطلب منه صاحبه انتظاره ليرافقه إلى المدرسة. إنه صوت أبيه. تعاضم فرحه وهو يحسب أن أباه سيوصي المعلم به خيراً بعد انتهاء عطلته وعودته إلى ديار الغربية. خرج وأباه من الدار. تجاوزا السلم. وها هما الآن على أرضية الزقاق. ما إن جعل أعلى الزقاق مقصده، حتى فوجئ بلكمة قوية على قفاه جعلته يسقط أرضاً. إمتدت إليه يد تساعده على النهوض، وإذا بالأخرى تعاود لكمه ليسقط من جديد. سالت الدماء من أنفه في ذلك الصباح غزيرة. كان المارة يحاولون افتكاكه من بين يدي أبيه، لكن ذلك بدا محالاً. لم تتوقف لكلمات أبيه الموجهة إلا عند قدمي المعلم. لقد كان حقا يوم سوء. ساعده الرجل على الوقوف ثم تحدث إلى أبيه بكلام لم يستوعب منه شيئاً، فإذا هو يبتعد منقلبا إلى الدار وقد أنهى عمله بإتقان بالغ. أمسك المعلم بمحفظة الطفل و أمره بالنزول إلى أسفل المنحدر ليغسل وجهه ويزيل أثر الدماء من على أنفه. صعد المنحدر منهكة قواه، يتألم من شدة ما حل به. دخل الفصل ولم يجد من المعلم أي تعاطف، بل، ولسوء

حظه، طلب منه استظهار بعضا من سور القرآن الكريم المخصصة لذلك اليوم. عاد إلى المنزل زوالا. عاد مريضا يصارع الوجع. أخبر أمه بما حدث، لكنها لم تمتلك حينها لوجعه شفاء.

في اليوم الموالي، ذهب إلى المدرسة كعادته. ضمد جراحة والندب التي خلفها الضرب بدموع تذرفها العين بين فينة وأخرى. يرافقها شهيق ترتجف له كتفاه. أحس بالغبن. كيف لتلك الفرحة أن تنقلب حزنا، وتتحول سعادته بحضور معلمه إلى الدارتألما؟ في المساء، وقد هم الجميع بالدخول إلى الفصل، حدث أن أضع أحد التلاميذ كتاب القراءة؛ ومن خوفه طلب المساعدة في البحث عنه مقابل هدية يقدمها لمن يجده. اندفع الجميع يبحثون في كل مكان. يسابقون الزمن للظفر بالجائزة. يجب أن يجدوه قبل الدخول إلى الفصل وإلا صار عقاب المعلم عليه شديدا. بحثوا هنا وهناك، ففتشوا في كل مكان حتى تحت الرمل. لا وجود لهذا الكتاب. "كأن الأرض ابتلغته" أو أن يدا غريبة أخذته ووارته عن عيونهم. لعل إحدى مخلوقات الصخرة الطينية قد وضعت يدها عليه

وأخفته حتى تستدرج صاحبه إليها فتحبسه مع الآخرين. لقد انتصبت قريبا من مدرستهم. تراقبهم عن كُتب وتتحين الفرص لاقتناصهم. إهتدى تيمح أخيرا إلى مكان وجوده بالصدفة. وجده على أرضية نافذة قاعة الدرس. لم يكن أحد يملك القدرة على دخول المكان قبل المعلم. كانت مغامرة خطيرة تلك التي أقدم عليها تيمح يومها. كانت ستكلفه ضربات من ذلك المعلم الذي ارتعدت لشراسته قلوب تلاميذ القسم الخامس الأشداء، فتتورم لها قدماه. أخذ منه "علي" الكتاب ثم أهدها شيئا عجيبا لم يحدث لأحد بالقرية أن رآه أو حصل عليه قبل ذلك اليوم. وضعه في محفظته وكأنه لؤلؤة استخرجت من غياهب بحرلجي. لم يدع أحدا يقترب منه وهو يرقد داخلها. شيء مد إليه يده غير ما مرة. يلمسه ويتحسس وجوده. كان هناك وديعا هادئا. يخفي في جسمه وفي أحشائه حكايات وحكايات. حكايات لعوالم سيروي قصصها في قادم الأيام والسنين، بل وإلى الأبد. يحكيها للصغار والكبار بسلاسة. ستفوق حكاياته كل حكاية. حتى تلك التي سمعها في قريته وكانت تبعث فيه القشعريرة والرعب.

في المنزل،لما جن الليل وأرعى سدوله،جلس إلى الموقد - حيث القدر،وحيث أمه تكتب قصة أخرى من قصص اعداد وجبة الكسكس المميزة بقريته،وحيث تجلس جدته ويدها أسفل خدها شاردة الذهن ضائعة على حالها لاتزال،يغطي الرأس منها منديلها الأحمر.منكسرة مهمومة تسأله عن الأماكن المتضررة من جسمه بعد تلك الملحمة البطولية لأبيه.كان يشكو من وجع في كل نواحي جسده.كانت الجدة غاضبة من تصرف أبنها كل الغضب.أخذت لبرهة تقول كلاما في حق معلمه.كلمات غير مناسبة لمقامه.كانت تدعو عليه بالسوء.أخبرتها أم الطفل أن المعلم هو من تسبب فيما أصابه.لقد وشى به.أخبر أباه عن تغيبه لمدة نصف يوم منذ خمسة أشهر خلت.-في المنزل ،جلس يحضن محفظته على غير عادته.إنها اليوم تحمل شيئا فريدا.شيئا مميذا سيقلب كل المفاهيم المعروفة عن ذلك العالم الذي اعتقد دائما بعدم وجود غيره في الكون.ربما لاحظت أمه تلك الحال الجديدة التي أصبح عليها ابنها بعد ذلك الصباح العنيف.لاشك أنها اعتقدت بكونه أصبح اليوم أكثر حرصا على دراسته من ذي قبل.لكن بالنسبة

للصبي، كان الأمر مختلفا بالتأكيد. أصبح يكره المدرسة والمعلم كرها شديدا، وكره قسوة أبيه وغلظته عليه ساعتها أيضا. لكن المحافظة اكتسبت منه ذلك الإهتمام غير المعهود. فهي الشيء الوحيد الذي صار يحبه أكثر. إنها اليوم تحمل ذلك الشيء غير العادي الذي جدد في نفسه تلك الرغبة في معرفة المزيد. لقد أتى من عالم لا يعرفه. لم يره قط. بل لا يؤمن بوجوده أصلا. أخذ يطل عليه من وقت لآخر. كان يستخرجه من قلعبته. يتأمله قليلا ثم يعيده بسرعة. كان يخاف أن تمتد إليه يد إنسي أو جنني. يخاف عليه هبة نسيم أو حتى شعاع ضوء القنديل القابع هناك قرب الكانون خافتا يتمايل. هو بحر مضطرب يخاف هيجانه إن ماج وأتى على كل شيء. ماؤه الأزرق الساكن لا ينفع الناس إلا وهو في أحشائه. لم يخطر بباله قط ان لمائه ألوانا. إنه قلم الحبر الجاف. دنيا جديدة دخلها الصغير مع هذا الشيء المدهش. لا يدري كيف وصل إلى زميله "علي". لم يكن معروفا وجوده عند أي كان في قرينته. ولا حتى عند فقيها " الطالب " . وما صادفته عيناه قط عند المعلم. كانت الريشة والحبر يتربعان عرش الكتابة في مدرسته. يدخل الأطفال فصولها

على دواة مملوءة حبرا. تستلقي الريشة على جانب الطاولة الأمامي في تجويف صمم على مقاسها. أعلى المنضدة منشفة خضراء أو حمراء أو بيضاء تشع نقاء. ما أن توزع الدفاتر حتى تنطلق الريشة ترتشف المداد من داخل الدواة وكأنها طائر يعانق ماء الساقية بعد ظمأ شديد. وتأخذ المنشفة مكانها الطبيعي تحت اليد. لا مجال لتوسيع الدفاتر. الكتابة بتأن وعناية مطلوبان بإلحاح. إحترام عدد السطور صعودا ونزولا قاعدة لا يحيد عنها تلميذ في الفصل. في مكان ما في آخر القسم، أخذت ريشة اللغة الفرنسية موضعا متميزا داخل علب من زجاج منع الإقتراب منها تماما. كانت مختلفة عن ريشة العربية. كان الطفل يتمنى فقط أن يمسكها بيده. أن يتفحصها. أن يتبين الفرق بينهما. لكن الحظر كان شديدا. لا سبيل إلى ذلك. فعينا المعلم كانتا يقظتين ويدها باطشتين.

كان السيد "أحمد" جنديا في القوات المسلحة الملكية المرابطة على الحدود بالقرية. كان أهل القرية يطلقون عليه اسم "سي خمد جُنْدِي". ربط علاقات غير عادية مع سكان البلدة. أحبوه

وأحبهم. ومع الجن أيضا. كان "السي أحمد" يزور المدرسة كل مساء. يجمع من تلامذتها ما استطاع. ينظمهم في صفوف وسط الساحة العامة، ثم يبدأ معهم درسه في التربية البدنية. كل حركة فيه كانت تمتزج بإيقاع نشيد جميل. لم تكن الرياضة تمارس بالمدرسة على يد المعلمين آنذاك. لم يتذكر أن حضر حصة منها يوما بتلك المدرسة. لكن "سي أحمد جندي" كان يبهرهم في محيطاتها. يغزو بهم سواحلها، ويفتح أمام عقولهم شطآنها. كانوا يتعلمون المحفوظات داخل الفصل، يحفظونها، يستظهرونها، أما خارجه فكانت الموسيقى، وكانت الألحان، و كان الإيقاع. كان "سي أحمد جندي" يقدم الأنشودات مغناة بصوته الرخيم. تتفاعل أطرافه ورأسه مع كل شطر يردده. كان التلاميذ يدورون ويدورون ويغنون وينشدون. تتشابك أيديهم، يصفقون. كانوا يقلدونه في أي شيء وفي كل شيء. كان عالما مختلفا، فريدا؛ جعل الأطفال يحيون حياة مغايرة أيضا. لا يفارقون ساحة "تلات نعلو" إلا وهم يهتفون "لِلِّقا لِّلِّقا، للِّقا" كما رباهم عليها هذا الجندي العجيب. لم يكن تيمح ذو اللسان البربري

يفهم معنى تلك الكلمات العربية. لقد علمهم "سي حمد جندي" أن يحركوا راحات أيديهم اليمنى يمينا ويسارا عند ترديدها فقط. لكن، رغم قلة الفهم تلك، فقد كان أثرها عليه وعلى الأطفال عظيما. هو أيضا جاء عبر الطريق خلف جبل تاوريرت، و خلف مرتفع وادي مطرف. جاء من عالم غامض لا يعلم الطفل عن وجوده وحقيقته شيئا. عند كل مساء، ينصرف الجميع شغوفين بالعودة في اليوم الموالي ليحضروا درسه، ليسمعوا ويستمتعوا بألحانه وإيقاعات صوته.

بدأ الخريف ذاك العام سريعا ومعه الموسم الدراسي بتساقط الأمطار، فاغتسلت الأشجار بمائها البارد ونظفت أرحامها استعدادا للحمل المقبل. هناك، بالقرب من مدرسة القرية، رآه شابا تغمره الوسامة، ممشوق القامة ذا شعر طويل يملأ رأسه. على ذقنه زغب ويلبس معطفا و سروالا في لون السماء. كان مختلفا عن "سي الطيب" معلم الصف الأول، وعن "سي العربي" معلم الصف الثاني. رآه على الطريق يريد المغادرة إلى المدينة بعد تعرفه على مقر عمله الجديد. لم يتعرف يومها

على تلاميذ الصف الثالث. أعجب به الطفل من بعيد وهو يتحدث إلى أحد الجنود. تحرك هبات النسيم شعر مقدمة رأسه فيسافر به عبر المجهول إلى عوالم خفية هناك خلف الجبال. وراء مغرب الشمس. لم يكلم أحدا. جال بعينيه جولة واحدة وانصرف. نظرة واحدة فقط كانت كافية ليأخذ فكرة عن قادم الأيام هناك. تركهم ينتظرون وأيديهم فوق بعضها على الطاولة. يسترقون النظر إلى بعضهم البعض باثنيين في استحياء. لا تتوقف أرجلهم عن الحركة أسفل مقاعدهم. تركهم وغادر. عادوا إلى دُورهم ليروي كل تلميذ لأهله حكاية رجل. حكاية شاب، حكاية معلم حضر وانصرف. كأنه وهم أو صورة من منام. بدا في عين تيمح كذلك الشاب الحرمة الذي جاء من فرنسا ذات يوم. ربما كانت معه نصرانية شقراء. تلك صورة مرت بمخيلته وهو مستلق على ظهره يبكي ويصرخ ذاك النهار. كان مريضا بما يسميه أهل البلدة "بوصفير". أخذت عيناه صورة لذلك الرجل من أسفل. شخّص بعينيه إلى من حوله. صار يستجدي النجدة وينادي أشخاصا يجهل أغلبهم. يناديهم وهو محبوس بين يدي طبيبه و من كان يمسك بأطرافه بقوة من أهل المنزل. لم

يرحمه أحد يومها. ولا حتى أمه. ولا حتى جدته. ولا حتى ذلك الشاب القادم من وراء البحار. لم يكن يتحرك من جسمه سوى الرأس، وفم يُسمع الصراخ لعابري الزقاق. ربما رق أحدهم لحاله. لكن لا مجال للتدخل. أحضر "أحمد أعبال" الخبير في سم الأفاعي مادة الكبريت. وضع قليلا منها على ساق الطفل اليسرى بالقرب من عظم الكعبرة، ثم أشعل بها عود ثقاب فإذا هي تغلي و تشوي لحم الطفل شويا. كانت آلام الحرق بالكبريت فظيعة جدا على الساق. كان الحرمة جميلا كجمال المعلم. طويلا نحيفا ذا شعر ناعم يتدلى على جبينه الضيق. تتلاعب ريح مجرى الهواء بشعره وهي تندفع من الدرج المؤدي إلى السطح لتنزلق مسرعة عبر درج آخر إلى خارج المنزل، تنقل آلام تيمح، وتنتشرها فوق البساط الأخضر في البساتين؛ تسرد محنته الفريدة للأجراف القريبة. هو أيضا كان يلبس معطفا وسروالا أزرقى اللون. كان يشبه المعلم "عبد الرحمن".

على سبورة ذلك القسم الذي تلقى فيه دراسته الأولى، رسم المعلم الجديد دائرة بداخلها أربعة

سهام تشير إلى الجهات الأربع..أعجب الطفل كثيرا بتقديم ذلك المعلم.اجتذبتة أكثر،الألوان على السبورة.كانت متناسقة معبرة.إنه أول درس وآخره في الجغرافيا على يد ذلك المعلم.غادر القرية ولم يعد إليها أبدا.لم يتلق الطفل أي درس طويلة ذلك العام سوى قراءة حروف على بعض صفحات كتاب اللغة الفرنسية بمنزله.كانت الكتابة جميلة ترق صعودا وتفخم نزولا.ظهرت الصور على الكتاب رائعة مغرية.بعدها ظل ينتقل بين الصفيين الأول والثاني.كانت اللغة الفرنسية مطمحا لم يبلغ الأطفال من تحقيقه سوى ساعات مع ذلك الرجل.فالمراعي باتت تناديهم في كل آن.لم تكن الدراسة هدفا يبغى تحقيقه منذ أن تركهم معلم الفرنسية.كان يخرج مع الشاء،يدفع بها عبر الزقاقين إلى أحد الحقول حيث العشب وماء الساقية.وما يزال هناك حتى وقت الزوال.في منزله وقد عاد المساء،يحضر الصراع القديم بين الأم والجدة.كانت أمه تطرح كل يوم مسألة الدراسة و مشكلة غياب المعلم،بينما لم يرغب المرعى عن فكر جدته أبدا.أرادته أمه متعلما.أما جدته فلم يكن لديها الإستعداد لفراقه يوما.أرادته فلاحا راعيا كالآباء

والأجداد. كانت تعلم أن الدراسة تعني ابتعاده عنها وهو الطفل المدلل لديها. ولم تغادرها نية أمه في الخروج من القرية والإبتعاد وتشتيت العائلة كما كان يخيل إليها و يبدو الموقف في نظرها. لقد مرت أمه بتجربة مريرة يوم أصابها ذلك المس من الجن. وها هو التنافر يزداد و الإهانة تطال المرأة ذات صباح أمام عيني ابنيها أثناء تناول شاي الصباح في غرفة بالمنزل المجاور. لا يتذكر لمّ تم ذلك الإفطار هناك. لم تدفع الجدة عنها تلك الإهانة يومها. ربما سرها ذلك. فثقافة التسلط كانت هي السائدة آنذاك. ربما اعتبرت ذلك تربية لها وضبطا لسلوكها. كان الزوج غائبا. عليها أن تنتظر عاما كاملا لتخبره بما حدث. وماذا ستخبره؟ وهل تستطيع أن تخبره؟ انتظر الطفل عاما كاملا أيضا منتقلا بين المرعى ومدرسة القرية. وتمر على مسامعه وأمام عينيه، تلك الكلمات و الصور الرهيبة لذلك الخصام الأبدي بين المرأتين بكل تجلياته، بكل تأثيراته. نظرات حادة تخفي عناوين مبهمة، فظيعة. كلام ينبئ بحقد دفين متبادل بينهما. عاد الزوج من المهجر. احتدم الخلاف بين قطبي الأسرة: أمه وزوجته. لمن يستمع الرجل؟ للزوجة فتغضب الام؟ أم للجدة فتضيع

فرصة تعليم ابنه؟ كان الصراخ لا يفارق المنزل كلما التقى السالب بالموجب-جدته وأمه-كثيرا ما غضبت أمه وذهبت إلى منزل أهلها.لم تتوقف الجدة أبدا عن الدعاء عليها وعلى كل من يحاول تشتيت شمل عائلتها.لم يكن يفهم شيئا مما يدور هناك.فالمرعى وكوب اللبن يشغلانه ويأخذان من وقته الكثير.يعود متعباً جائعاً وقد غيرت الشمس بعضا من ملامح بشرته.يتعمد التأخر كي لا يطالبه أحد بالذهاب إلى المدرسة مساء.اينام باكرا كي لا يحضر تلك الملاحم التي غالبا ما تنتهي بعدم تناول أحد الفريقين لطعام العشاء.ظل الخلاف يزداد ضراوة و اقتراب وقت المدرسة من العام الجديد.كان الطفل موضوع الخلاف،بينما لعبت المرأتان دور البطولة على مسرح الأحداث بلا منازع.رأت فيه أمه خلاصها من عذاباتها،لذلك راحت تشرح لأبيه ما حدث أثناء غيابه وخصوصا غياب المعلم.لقد ذكرته بما فعل بابنه بسبب غيابه لنصف يوم ذات مرة،فكيف والمعلم يغيب لسنة بأكملها.مر الصيف عنيفا كثيبا.ملاسنات لا تعرف للتوقف طريقا.غضب وحزن لا يعرف للخروج بابا.لا تتوقف النساء عن زيارة المنزل كل يوم مرة

أومرتين.مفاوضات هنا وهناك.لا حديث بين أفراد العائلة ولا كلام.وجوم عند كل وجبة أكل.فقد الموقد نشاطه في تلك الليالي المرعدة من أواخر الصيف.لم يعد القدْرُ ينشد أنشودة الفرحة وهو يحضن اليقطين وقطعة اللحم المالحة التي أصابها التبيس تعود لأيام العيد الماضي.



قريته الجميلة. حدود العالم المرئي الوحيد بالنسبة له ولأمه أيضا. كاد يفتح عينيه على العالم الجديد: بوعرفة، المدينة. هناك خلف تلك التلال، خلف تلك الجبال، خلف تلك المسافة التي لم يكن يعلم مداها، بل لم يتصور يوما أنها موجودة. ركب الشاحنة الوحيدة التي كانت بمثابة حبل وصل بين عالم القرية وذلك العالم المخفي- لقد آمنت أمه أن قريتهم هي كل ما يوجد في هذه الدنيا. أنها الكون كله. أن الله تعالى لم يخلق مثيلا لها. ليس وراء جبالها أي عالم مشابه. لا بشر ولا حجر ولا طير إلا ما يوجد ويدب على أرضها ويطير تحت سمائها. كثيرا ما أقسمت على ذلك أمامه- على تلك الشاحنة، جلس الكثير من الرجال فوق الأمتعة، وعلى بعض صناديق الخضر والفواكه التي كانت تنتجها بساتينهم. ومن شدة اهتزاز الشاحنة على تلك الطريق غير المعبدة، أصيب بالدوار فتقيأ. توسخت ملابس بعض الذين كانوا يجلسون بالقرب منه؛ فاستشاط أبوه غيظا وكأن الصبي اقترف جرما أو تعمد ما حدث. لقد كان يريد أن يراه صلب العود والطباع لا وهنا. وحدث أن مرت بهم عربة تحمل جنودا. توقفت فجأة وتوقف الشاحنة التي

تقلهم. طلب منه أن ينزل من الشاحنة. تناقلته أياد عديدة بدت الرؤوس تحتها كصخور وسط واد سحيق. وجد نفسه أخيرا وسط العربية محاطا بهؤلاء الجنود. صار ينظر إلى وجوههم بين الفينة والأخرى. كانوا يبتسمون له دون أن يرد الإبتسامة عليهم. كان خائفا ، ينظر إليهم فقط. يتأمل سحناتهم. يطأطئ رأسه من شدة الحياء. يرفعها بين فترة وحين عندما يغفل عنه هؤلاء. أعادوه إلى القرية بعد أن لم ير من العالم الجديد عدا كيلومترات قليلة. لا يتذكر أي وجه من وجوه هؤلاء الجنود. لكنه يعلم أنهم مروا من هناك، و أنه كان معهم داخل العربية. كان الناس هناك إبان تلك الحقبة من حياته يصرخون كلما سمعوا هدير محرك الشاحنة القادمة من المدينة. لا يسمعون صوت المحرك إلا هرعوا إلى ساحة المحطة. قد يكون أحدهم نائما فيوقظوه، أو يشتغل في حقله إلا يترك ما بيده، ولا يتناول وجبة إلا صام عنها وأسرع إلى الزقاق يقول "أَلْكَامِيُو لْكَامِيُو لْكَامِيُو" فيعلم بذلك كل من فاته سماع صوت المحرك. يجتمع الجميع في تلك الساحة ويتبادلون السلام والمعانقة مع القادمين من خارج البلدة. من

سكانها الذين سنحت لهم الفرصة بزيارة المدينة. لا يعلم سبب إقدام أبيه على تلك التجربة ثم إجهاضها في مهدها. لكنه فهم بعد زمن من ذلك أنها كانت مؤشرا على قرب هجرة الأسرة إلى المدينة، حيث سيفتح أمامها الأبواب مشرعة نحو التمدن والتحضر.

وحل ذلك اليوم الذي طالما انتظرته أمه بشغف وشوق، وانتظرته جدته ببؤس شديد. فجر ذلك النهار الطويل، ركب ظهر جدته تتجه به إلى ساحة المحطة أين تنتظره شاحنة يقودها "بوجمعة"، والتي ستفتح بعد قليل أمامه كل النوافذ التي ظلت مغلقة إلى العالم الجديد. لم ير السائق يومها، لكنه عرف بوجوده من كثرة ما تردد اسمه على ألسنة الراكبين. كانت الجدة تبكي. تنهمر الدموع على الخدين وهي تنظر إليه من بعيد. إنتهى كل شيء. حدث ما كانت تتوقعه وتخشاه. تشتت العائلة وقضى الأمر. لم ير أمه وأباه ساعتها. كان الظلام يلف المكان. بدت ظلال الأشجار تحت الأجراف سوداء ساكنة. وأصوات بعض الطيور تنبعث على شكل وميض حزين- ادعى الناس أنها تردد اسمي

نبي الله يعقوب وإسحاق عند حلول الليل - رأى
قبسا من نور يصعد في تودة بين الجبال يعلن
قدوم الصباح.أخذت الشاحنة طريقها والجدة تلوح
بيد وتمسح دمعاتها بالأخرى.يرتفع مع حركتها ذلك
اللحاف مودعا يبكي.سارت الشاحنة بركابها
وسارت.تطوي مسافات بعد أخرى.توقفت فجأة
والشمس قد مالت إلى الغرب على صوت السائق
يقول:"أريد الماء.الشاحنة ينقصها الماء.المحرك
يكاد يحترق".كانت الشمس تعلو عنان السماء،
تلامس الغروب ببطء شديد.ابتعدت كثيرا نحو
العالم الجديد.اليوم غير ذلك اليوم الذي عاد فيه
إلى القرية مع الجنود.اليوم معه غنيمة ثمينة:أمه
وأبوه.هذه المرة،يوجد سبب وجيه للسفر.ظلت
الشاحنة تطوي عباب الطريق غير المعبدة إلى
المدينة.تبدو الجبال ملوحة تودع وهي تبتعد.كلما
سارت الشاحنة مسافة،توقفت للتزود بالماء.كانت
تعطش بسرعة.إستراح المسافرون تحت شجرة
عريضة طويلة الأغصان على شكل نصف
دائرة،ذات ظل ظليل ونسيم بارد عليل.أخرج"خالي
قدور ألسعود"بندقية صيد واقتراح على
الحاضرين قنص غزال من قطيع كان يرعى على

جبل قريب؛ لكن أصواتا أخرى طالبت السائق بالإسراع في تزويد الشاحنة بالماء والإنطلاق. كان القناص يريد إطعام الجميع وجبة شواء من لحم الغزال. لكن..... إستمع الطفل إلى كل حديث دار تحت تلك الشجرة ورأى كل شيء. رأى الغزلان ورأى البندقية. علم أنه حيث يوجد الخير، يوجد شر يعاكسه. حيث القناص يريد إطعام الناس، وحيث آخرون يعترضون. حيث الشمس تلمح بحرارتها، وحيث الشجرة تنشر ظلها. نظر إلى الشاحنة، فإذا هي قابعة هناك على الطريق منفردة. لم يبق على متنها سوى النساء وبعض الصبيان. طالت الطريق وأصبح السفر مملاً ومتعباً، واشتد الجوع. أصبح الغروب وشيكاً والمدينة على مرمى البصر. ها هي أنوارها على قلتها وخفوتها تتلألأ في الأفق غير بعيد. تتراقص أشعتها فوق أسطح المنازل المتراسة كما تبدو من على الشاحنة. لامست الطريق المعبدة الآن وانعدمت الإهتزازات فجأة. اقتربت رويدا رويدا. بدأت معالم العالم الجديد تتهادى أمام الطفل جميلة مختلفة. سارت به الشاحنة عبر الطرقات تحت ضوء الإنارة العمومية. لأول مرة رأى نور مصباح

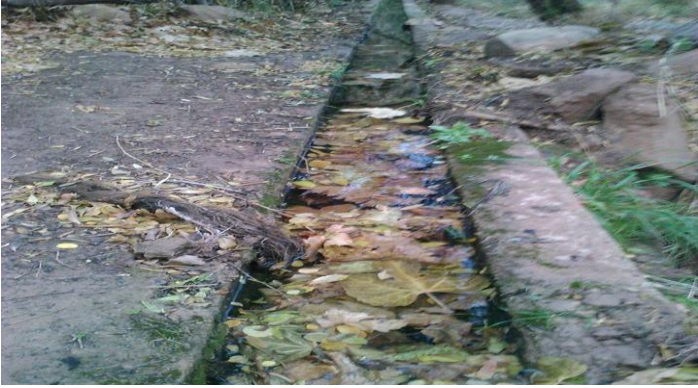
الكهرباء. رأى الدكاكين مفتوحة الأبواب مضاءة، مليئة بالسلع. يجلس الباعة على جوانب أبوابها على كراسي خشبية. رأى بعضهم يتكئ على وسادة بالية وكأنه في ساحة اسهوو التجارية بالقرية. كانت أعمدة الكهرباء خشبية، والمصابيح تغطيها قطع معدنية مستدير شكلها. توقفت الشاحنة عند أحد المنازل تفرغ حمولتها من بشر ومتاع و حيوانات. ظهر بعض الأطفال يلعبون تحت ضوء المصباح في الجوار. بدا لعبهم غريبا. وكيف لا؟ أليسوا أبناء المدينة. كانت كرة اللعب كبيرة تتقاذفها أرجلهم بنظام. في الصباح الموالي، دخل أول منزل ستسكن فيه الأسرة الوليدة، و عليه منذ اليوم أن يقوم باستكشافه. إنها دار من البناء القديم. بها غرف سقفا من أعمدة خشبية تتدلى منها مصابيح لا يصلها التيار إلا وبداية نزول الظلام. على جدرانها أنابيب من معدن رخو تنتهي بأزرار تشغل تلك المصابيح. بحوشها حفر وقد ملئ غنما. جدرانه تهرأت بسبب القدم. لم يكن يدرى من كان صاحب الغنم تلك؟ ولا لماذا كانت هناك؟ سار و أباه بعدها إلى أول مدرسة. كانت فضاء واسعا بها عدة فصول وتجمع تلاميذ كثير. كان له موعد مع

معلم الفصل الثاني "السي بودحو" ذي القبعة الخضراء المربعة. كان معجبا بالطفل. بأناشيده وإيقاعها الذين ورثهما من "السي أحمد جنديي". كان معلم العربية في الفصل الثالث حسن المظهر. تمدد جبينه حتى عانق كثيرا من مؤخرة رأسه. ذو بنية رشيقة. يحمّر وجهه كلما حل موعد درس التربية الإسلامية. هم ذات يوم بشرح مبطلات الضوء، كتب العنوان على السبورة السوداء ثم أخرج من جيبه منديلا أبيض وراح ينتقل بين الصفوف صامتًا. كان محرّجا في نطق وشرح كلمة "خروج الريح" وغيرها مما يستوجب الحياء، وما لم يعهد التلاميذ سماعه في حضرته. ظهر على محياه حياء تعلوه ابتسامة وضحك يخفيهما تحت ذلك المنديل. كان يغادر الفصل إلى الباب متى ما أحس بحرج شديد في نطق تلك الكلمات. يرسلها من خارج الفصل. يمسح أنفه وعينيه باستمرار. يراقبه تيمح ويتتبع كل خطوة يخطوها وكل حركة يقوم بها، ممتنعا عن تقليد ابتسامته خوفا من ردة فعل قاسية منه. لم يكن الفهم مطلوبا في ذلك الإبان مع مثل هذه المادة، بل الحفظ عن ظهر قلب في غالب الأحيان.

سكن ذلك المنزل و منه ارتاد المدرسة عاما بعد عام. لكن الجرح باق ويزداد تعمقا بين زُكُتِي العائلة. كان يمضي الصيف بالقرية يرعى الغنم كالمعتاد. يمتع ناظره منتقلا بين خمائلها وحقولها الظليلة. في صبيحة إحدى تلك الأيام، وبيننا هو يعبر الزقاق عائدا إلى المنزل يحمل قطعة سكر كلف بجلبها من دكان عمه، سمع صوتا يناديه من بعيد: "تعال، تعال، يا تيمح". قال للصوت المجهول صاحبه: "سأوصل قطعة السكر ثم آتيك". هناك في أعلى الزقاق، اجتمع مجلس القرية لمناقشة أمر هام، أمر خطير جد في البلدة. عرف تيمح أن الصوت القادم من ذلك المكان ليس صوتا عاديا. تقدم ببطء وهو يدرك أن ليس في الأمر خير. الصوت قادم من "تاعَمَرْتْ"، مقر إقامة القائد. قطع الجزء المضاء من الزقاق ثم هاهو يدخل الجزء المغطى منه تحت "مصرية" الفقيه "إمام الجامع. اقترب من الجمع دون أن يحيي أحدا. تقدم ببطء يحذر صفة من هنا وأخرى من هناك. كان يضع سبابته في فمه يبللها بلعابه من القلق. جلس إلى ركبتي أحدهم وانتظر. ترأس الجمع يومها ابن القائد. توجس الطفل خيفة مما رأى. علم أن لامفر من الحضور ومن الإجابة

عن تساؤلاتهم. قبل ذلك اليوم، وفيما كان والأطفال
ذاهبين إلى سد القرية بعد الزوال، إستغفلهم أحد
الصبيان و تغوط وسط نبع ماء على جانب من ذلك
الوادي الذي يشطر القرية نصفين منذ ان شاء الله
لها أن تنشأ في هذا المكان. وسط عين صافية نقية
لا يمر بها إنسان إلا روت عطشه. تابع الأطفال
طريقهم إلى السد يضحكون ساخرين مما رأوا، غير
مبالين بما قد يجره عليهم ذلك من وبال. توعدهم
الصبي بأسوأ عقاب إن وشوا به، لكن مجلس القرية
كان أقوى من أن يقاوم المرء أسئلته. صار تيمح يذكر
ما كان يومها وما حدث؛ والجماعة تعلق بكلمات لم
يفقه منها غير جملة واحدة رسخت في ذهنه. قال
أحد كبار المجلس- و كان يدعى "خالي حمان" ذي
الوجه الأحمر و الشاربين الطويلين الأبيضين
الملتفين إلى أعلى تجاه خديه ،قال تعقيبا على ما
ذكره الطفل: "لعله زودها بالشحم الذي كان
ينقصها" أمّطاز". أصابت الطفل دهشة من كون
عين الماء تحتاج شحما، و الملح ينبت! عجبا لها من
ظواهر! تم استدعاء كل المشاركين في تلك الرحلة
الوسخة. توعدهم ابن القائد بأسوأ عقاب. ارتعدت
فرائصه لما دُكرت بئر" تاغمرت". بئر عميقة

مظلمة.يسبح بها رجال سود أشداء منتظرين نزىلا
فيعذبوه.كل الصور المرعبة عن ذلك المكان مرت
أمامه بسرعة وهو يراقب شفاه أولئك الرجال.لم
يسبق له أن صادف شخصا مر بتجربة تلك البئر؛لكن
ما نسج حولها من حكايات وأساطير،كانت كافية لزرع
الرعب في نفسه.بعد أخذ ورد وصراخ بين السادة
الكبار،صدر القرار أخيرا:سيُلقون جميعا في
البئر.خوف رهيب سكن روحه.إن البئر مستعدة
لابتلاعهم.ها هو مأوها الأسود يدور متأهبا لتلقف
أبدانهم الصغيرة.إنهم هناك وسط تلك الحلقة
يصيحون وتتشبث أصابعهم بجدار البئر.وها هي تزلُّ
بهم نحو الأعماق حيث الأفاعي ذات الرؤوس
السبعة.يتدافعون،يتمسك بعضهم ببعض طلبا
للنجاة.....فجأة،وقد أفاق من شروده،علم بتخفيف
الحكم عليهم.لقد أمرُوا بتنظيف ساقية القرية
الممتدة عبر تلك المسافات الطويلة نحو الحقول.
يوم كامل من العمل خير من دقيقة واحدة في بئر لا
يعلم عمقها ولا ما تخفيه إلا الله.. لن يدخلوا اليوم
مساكنهم إلا وقد حل المساء.



سحرة وضحايا

صار الخلاف يتأجج سنة بعد أخرى داخل تلك الأسرة. أصبحت وسيلة إسقاط الخصم أو الدفاع عن النفس عند غالبية سكان المدينة هي الاعتماد على بركات الاولياء الصالحين، او أحيانا على بركات بعض المشعوذين المتجولين بالمدينة. تقوم حروب شعواء يقودها مشعوذون مردة ، لا همّ لهم سوى ما يجنون من مال .زعمت إحدى العرافات من المتسولات وقد وقفت أمام باب الدار تريد صدقة، أن صاحب الدار يرغب في امرأة أخرى. رأت ذلك في عظم كتف شاة استخرجته في الوقت المناسب من كيس به قليل من دقيق وقطع من سكر مكسرة يتدلى من حزامها. أشعلت الفتيل مساء يوم ذلك العيد حين زعمت أن: "ابنك سيقف هناك أمام جمع من الرجال يشوون لحما من خروف الأضحية؛ سيتفقون أمامه على العروس، وعلى موعد العرس، وعلى مصيرك وأبناءك. سيرسمون الخطة بإحكام، ثم سيعملون على التنفيذ. سينقل ابنك الخبر فيتلقى مقابل ذلك صفتين ستضيئان على وجهه كالبرق، سيترد ابنك من منزل ابيه، سيُترد

" هل سيصدق تنبؤ العرافة ؟ أم هو مجرد كلام تريد به الحصول على المال؛ كانت حال لا حرب و لا سلم هي الغالبة. حضر الطفل طقوسا لإحدى العرافات سكنت قدم جبل بالمدينة مرات كثيرة. كانت مشهورة جدا. لا تتأخر النساء في اللجوء إليها كلما أحسن بفتور في علاقاتهن بأزواجهن على وجه التحديد. رأى كل الطقوس التي تجري هناك. تمسك العرافة بقطعة من الرصاص تسخنه في ملعقة كبيرة على نار قوية، ثم تصبه على آنية من معدن "المهراز" بها حناء فوق رأس المرأة الضحية فيحدث دويا، ويتخذ أشكالا معينة ومختلفة عند ملامسة الماء. تخبرها العرافة بعد ذلك أن من فعل بها هذا هي امرأة تشبه كذا أو كذا، وأنها أكلت كذا أو كذا، وأن إحداهن قد وضعت حرزا تحت قبر هنا أو علق على غصن شجرة منسية هناك. شجرة منسية؟! ومن نسيها؟ وأين نسيت؟ شجرة تنسى، وملح ينبت، ونبع يحتاج شحميا. للدهشة! كلمات غريبة كثيرة طبعت في ذهن الطفل ورسخت واستفزت شوقه الى الفهم أكثر. لا تفسح العرافة المجال للمرأة لتعرف معناها أو تلتقط الأنفاس لاستيعابها. ولا تزال تقلب المعدن

أمام عينيها البريئتين حتى تقتنع بما تقول ،فتقدم لها المال ،أو ربما ذهباً من ذهبها ،أو قد تأمرها بقربان يذبح على قدم ضريح أحد الأولياء الصالحين .لقد بلغ يوماً مغارة ذلك الولي الصالح الذي يدعوهُ أهل المدينة " أربعا وأربعين واليا"والذي كانت العرافات تقسمن باسمه كثيرا أمام مريضاتهن .كان في الأعلى قرب قمة جبل مرتفع بالمدينة. خاف الدخول إليه .كان مدخل المغارة ضيقا. كان يجهل سبب تسميته كذلك.لا شمع ولا ثوب على ذلك المدخل.لكن أثره في نفوس النساء كان عظيما بعد تقديم تلك القرابين وتلك الذبائح. تصبح رغبة النساء ضحايا العرافات جامحة في تجريب ما يقدم لهن من بخور وجداول تحرق أو تمسح بالماء ويُرش بها المنزل أو قد تُشرب فيُذراً بها شر ما يراد بهن وبأسرهن.كان وجود الجدة في بيت ابنها مبعثا للكدر وسببا لكل المشاكل.كان الخصام واضحا مريرا حتى في أيام العيد الكبير،يوم التغافر والتسامح؛ كان التنافر باديا. لم يدر الطفل أكانت المرأتان -امه وجدته -"تُعَيِّدان"على بعضهما،أم كان العيد يمر وما في القلبين لا يتزحزح عنهما؛ ضغينة وشنآنا. رأى الطفل الغيظ يكاد يقتلها

يومها. لكنهما كانتا دائما تبتديان صبرا فيه كثير من تكلف. فهما مَنّ تعلمان أن الأيام التي تجمعهما معدودة. لم ينس وهو يعبر من فصل إلى فصل بجهده واجتهاده معلم الفرنسية في القسم الخامس الذي طلب من الأطفال حضور دروس الدعم ليلا. لم يكن هذا النوع من الدروس معروفا لا شكلا ولا مضمونا، لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان. كانت المدرسة آنذاك تؤدي وظيفتها بعناية تامة وأكمل وجه. لم يكن المعلمون محتاجين إليها لأن العقاب البدني العنيف كان سلاحهم أمام تقاعس التلاميذ عن أداء واجباتهم أو عند انحدار في خلقهم. كانت المدرسة ملاصقة تماما لمنزل تيمح، وتحمل اسم باني مراكش. قدم للمعلم واجب الشهر ولم يتجاوز عشرة دراهم حينها. كان ضعيفا في مادة الحساب. كانت تجربته مريرة مع تلك المادة. لم ينل من فهمها شيئا لا في الفصل ولا حتى اثناء تلك الدروس الليلية. أياما بعد ذلك، دخل في جدال مع زميل يجمعه به مقعد واحد في الفصل. أخبر زميله أن أباه جلب له من المهجر قلما عجيبا، قلما بحسب ما تخيل تيمح، كان يكتب بمجرد سماع أمر من مستعمله. طلب زميله غير مرة

إحضار هذا القلم ليراها. ليجره. ليتبين مدى صدق ما ادعاه تيمح. لقد شغف به شغفا واشتاق للمسيه كل الإشتياق. لكن تيمح اختلق الذرائع تلو الأخرى ليصرفه عن هذا الطلب وينسيه إياه، بل ليشوقه إليه أكثر. في ذلك اليوم، أقسم الزميل على أن يلقيه درسا وقد اكتشف كذبه: "انتظرنى بالخارج بعد نهاية الحصه. اياك ان تفر الى دارك كالجبان". خرج تيمح وتسلق الشباك المعدني الذي كان يسور المدرسة. لحق به "أبومدين" بسرعة البرق. أمسك به وحاول أن يطرحه أرضا. أفلت الطفل من قبضة زميله وحاول الابتعاد. تبعه "أبومدين" متوعدا مهددا. أمسك به يحاول إشباعه ضربا، لكن تيمح عاجه بلكمة قوية مفاجئة سال لها الدم من بين أسنانه وأنفه غزيرا. لم يكد ينزل يده حتى فاجأه المعلم بصفعة دار لها وجهه إلى الخلف كثيرا وكأن نارا لفحت خده الأيمن تكاد تحرقه. أمسك المعلم بيد زميله وراح ينظف فمه ويكفكف دموعه. عاد تيمح إلى المنزل خائفا يترقب ما سيحدث في الغد عندما يعود إلى مدرسته، فتوبيخ المعلم له على ما اقترف من خطيئة الكذب أضحى أمرا أكيدا. لم يكن أبوه حاضر الواقعة فيطمع أن

يرافقه، بل ما كان قط حضوره سيفيد.يومها كانت الأسرة والمدرسة على وفاق تام فيما يخص تربية الأطفال نهجا وأسلوبا.وهل سيخبر أباه بما جرى إن كان حاضرا؟لن يفعل بالطبع.فما حدث له بالقرية ذات صباح يغنيه عن مجرد التفكير في ذلك.ما كان لأمه لترافقه.وهل ستقف أمام المعلم وتتوسل إليه بأن يعفو عن ابنها؟ماذا إن سمع زوجها عن خروجها ومقابلتها لذلك الرجل في غيابه،دون أن يأذن لها؟ماذا إن علمت الجدة بالأمر وهي هناك في القرية؟لن يخبر أحدا.عليه منذ تلك اللحظة والخوف من عقاب ذلك الغد القادم يشوش ليله،عليه أن يفكر كثيرا.عليه أن يبحث له عن مبررات مناسبة يقدمها لمعلمه أو أن يعتذر ويطلب لنفسه الصفر منه رجلا لرجل.ظلت تلك الحادثة في حياته درسا يربيه على الصدق ويجنبه عواقب الكذب.وظلت فكرة القلم العجيب سؤالا يطرحه الطفلان باستمرار.أحدهما على سبيل كذبة نسجها خياله ربما قد يسمح لها الزمان بالتحقق يوما.والثاني على سبيل كذبة سمعها ورغب جدا في التأكد من صدقها وقد أدى من أجل بلوغ ذلك ثمنا،لكمة على

الوجه ودماء سالت من أنفه وأسنانه. ثم أتى المساء

.....

تجريدة النصر

ظلت حدود علمه هي المدرسة وما يحيط بها من
أبنية. كان يعجب دائما بالثكنة العسكرية وبالجنود
الذين يدخلون ويخرجون منها صباح مساء. أثارت
اهتمامه أكثر، تلك الآلة التي تعزف على إيقاع رفع
العلم الوطني كل صباح وعند الخامسة من كل
مساء. كان صوتها يتسلل إلى منزل الطفل مخترقا
كل جدار. كانت الثكنة على مرمى البصر من منزله، لا
تفصلهما إلا أرض خلاء تنتشر فيها بعض النباتات
الشوكية. كان يرى هؤلاء الجنود يقفون متراصين
أمام العلم. كانت بذلاتهم تثير فضوله خصوصا
عندما يضعون على رؤوسهم خوذات معدنية
ملساء السطح. ظهروا ذات صباح وعلى غير عادتهم

متجمعين بأعداد كبيرة داخل الثكنة. كانت الأفواج تتناوب التدريب طول النهار. بعد ذلك بأيام من العام ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف، وبينما كان منطلقا صوب المدرسة، صادف أرتالا من شاحنات تكاد خضرتها تميل إلى السواد؛ على متنها جنود طويلو القامات، مرفوعو الهامات، أشداء السواعد، مفتولة عضلاتهم. كانت تملأ الشارع الرئيسي. طفق يلتفت إليها وهو على تلك الطريق إلى مدرسته. تتوارد أمامه صور تلك الشخصيات التي كان معلم العربية يتفنن في وصف بطولاتها خلال درس التاريخ. طارق بن زياد، يوسف بن تاشفين، أحمد المنصور، المولى إسماعيل، محمد الخامس... قفز من إحدى شاحنات ذلك الرتل جندي حسن الوجه أسمره. طويلة قامته. يمسك بإحدى يديه ساطورا حادة شفرته. عاد به ما رآه يومها سريعا إلى ما درسه عن طارق بن زياد والجيش الذي فتح به الاندلس. لقد كان المعلم صادقا في تقديمه لدرس التاريخ. ها هو تيمح يرى الآن كل شيء بأم عينيه. يرى جيشا قويا جرارا كما وصفه "سي ميموني". كان الدرس مكتوبا على الجناح الأيمن من سبورة قسمهم العريضة وقد رسمت الشخصيات

والأماكن الهامة بالألوان. لم يكن الطفل يعرف لِمَ تجمع هؤلاء الجنود هناك، وما علم وجهتهم. كانت صورهم لا تفارق عقله عند كل درس في التاريخ. كانت أولى الدروس التي قدمها معلم العربية في القسم الخامس تتعلق بـ"سكان المغرب الأولين" يتبع ذلك بأسماء الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بالإثارة والتشويق اللازمين لجعل الأطفال يستوعبون بسرعة تاريخ بلدهم. وآخر درس من تلك الدروس، والذي كان الأطفال يتوقون إلى بلوغه بسرعة لأنه كان يعني بالنسبة لهم آخر السنة ويعني العطلة الصيفية، هو درس كان عنوانه "عصرنا عصر السرعة والصواريخ". درس كان يعتز به الأطفال وهم يجرون في ساحة المدرسة ويفتخرون مرددين بصوت عالٍ "عصرنا عصر السرعة والصواريخ". لم يكن لأحد منهم دراية بمعنى عصر، ولا معنى صاروخ. لكن الرسم على الكتاب آنذاك للصاروخ، كان يسلط بريقاً من ضوء على هذا المعنى. ربما افتخروا لأن أجدادهم لم يعيشوا هذه التكنولوجيا من قبل. إندلعت الحرب العربية الإسرائيلية بعد ذلك بأيام، فأتضح أمامه أمر هؤلاء الجنود وتدريباتهم في

الثكنة وأمر ذلك الرتل. كان دائم الإستماع إلى حديث المعلمين وهم في ساحة المدرسة مجتمعين. لا يشغل بالهم إلا تلك الأحداث وما تسطرها التجريدة المغربية من بطولات وتخلدها من أمجاد على أرض سوريا ومصر. لم يتوقف الطفل ذو الإثنا عشر ربيعا عن متابعة أخبار تلك الملاحم عبر إذاعة صوت فلسطين آنذاك. كانت الموسيقى العسكرية والجنود في الثكنة و حديث الساسة التجار في ساحة "أسهوو" في بلدته ذكريات تفيض بها مخيلته وهو يجري مع بعض صحابه ليلا أمام "السويرتي" المتنقل الذي اعتاد أن يزور المدينة بشكل موسمي والناس صيام. كان يبث أخبار الحرب وأخبار فلسطين وأغاني لمجموعات مغربية ربما كان أبرزها جيل جلاله وناس الغيوان. لقد ملأت كلماتهم المكان التزاما. يتغنون بما يحدث آنذاك في تلك البقاع من الوطن العربي. لم يحفظ من أغنياتها سوى كلمات "يابنادم يابني آدم يا بنادم..". إلى أن تقول "والحرب المرا...".

كان الزواق جنديا صديقا لتيمح. فجأة لم يعد يراه. فارق المدينة فحزن عليه الصبي كثيرا. صار

المكان بدونه فراغا سحيقا لا قيمة له ولا معنى.بعد عودته من الحرب،سارع إليه الطفل يحضنه بحرارة.سأله عدة أسئلة متتالية عن سبب غيابه.كان الجندي يروى له ما مر به هناك في أرض تسمى سوريا.حكى عن يوم وصوله إلى هناك.عن التحامهم بالإسرائيليين.عن المخاطر التي صادفها،إلى ما قدمته التجربة المغربية من تضحيات وخلدتها من أمجاد وقد أضحت حديث كل لسان.عن أشياء تسمى دبابات و مدافع"مورتر".لقد مرت به هذه الكلمة من قبل في قريته.كانوا يسمونها"المورطي.اسم تردد لشهور حين أرعبت به القوات الجزائرية سكان البلدة.لم تكن المدينة في ذلك الإبان تستقبل البرامج التلفزيونية.ظل الإستماع عبر المذياع إلى عهد قريب هو الوسيلة الوحيدة لتلقي الأخبار،و أخبار تلك الحرب مهمة بالنسبة لذلك الصبي.كان الجندي شابا جميلا أنيق المظهر محبوبا.أكثر ما كان يعجبه فيه،هو ذلك الزي العسكري الذي يزين جسمه،وتلك القبعة الخضراء ذات النجمة المذهبة على رأسه تجمله.حكاياته عن الحرب مشوقة. كان يقابله كل مساء و الحركة تدب شيئا فشيئا في ركن من الشارع

المؤدي إلى حي الجبل. ركن رصعت أرضية واجهته
بالإسمنت فصارت ملساء باردة تغري بالجلوس
عليها وقت الصيف؛ هناك كان دكان محمد
أكاكا، حلاق المدينة الماهر المشهور؛ حيث تغني
الشفرات والمقص وكروسي الحلاق مع شعر الزبائن
نغم الثقة والوفاء، وحيث يحلو لكروسيه استجواب كل
زبون، يسبر أغوار عقله، يتفحص صفحات أفكاره
ويستخرجها مسهبة لا تتوقف إلا ونهاية عملية
الحلاقة. إستمع الطفل للرجل باهتمام بالغ. سافر
عبر كلماته إلى تلك الأماكن البعيدة التي كان يجهل
عنها كل شيء، عدا أسماءها. سافرت به كلماته أيضا
إلى تلك الصفحات المكتوبة على كراسته من
دروس التاريخ، حيث تشغل بطولات المغاربة في
الزلاقة ووادي المخازن و الأرك في ما مضى سطورا
مدادها الفخر إلى الأبد.

ويستمر المساء.....

إلى فجيج

وحصل تيمح على الشهادة الإبتدائية في ذلك المساء الفريد حين اجتمع الناس حول مدير المدرسة وأخبرهم عن الناجحين الثمانية عشر خلال ذلك الموسم. ثارت ثائرة الحاضرين ممن لم تذكر أسماء أبنائهم في قائمة الناجحين وعم الغضب وأوشك يعصف بهم. سخط عارم اكتنف المكان عصرا. سينتعث المزمار في أكثر من دار وتدق الطبول ويرقص الراقصون على وقع صوت البارود. سوف تشوى الخراف فرحا بهذا النجاح الذي يساوي يومها جهدا مبذولا ومستقبلا. لذلك، صار على المدير أن يتصرف بسرعة وذكاء. أخبرهم أن اللائحة طويلة، وأن ما تلاه على مسامعهم هو ما وصله عبر الهاتف فقط. كان اليوم سبتا. وبعد السبت سيأتي الأحد لا محالة. أعلم المنتظرين اللائحة النهائية ستجهز بحلول الإثنين التالي. لكن ذلك الإثنين لم يأت أبدا على هؤلاء الراسبين. فيومها ستحل العطلة الصيفية. كانت لفتة ذكية من ذلك المدير ذي الرأس الأشيب. لقد تصرف بحكمة وصراف الجمع بسلام. أصبح لازما على تيمح

بعد ذلك اليوم متابعة دراسته الإعدادية بفجيج.ركب السيارة لأول مرة في حياته بعد تلك الشاحنة التي أقلته من القرية ذات يوم-كان الضالعي حارسا ممتازا لفريق الكرة بالمدينة.طويل القامة أشقر الشعر.إذا التقط الكرة بصدرة أحدثت صوتا ترتج له جنبات الملعب تصفيقا وصغيرا.كان تيمح يذهب إلى الملعب حافي القدمين عبر تلك الطريق المعبدة الوحيدة بالمدينة حينها.يلتقط بعض الحصوات من عليها.يضرها بكاحل قدمه في نشوة.يذهب هناك أيام الآحاد ليستمتع بتلك اللقطات الشيقة لذلك الحارس المميز.ليرى ارتماؤه المغامرة الخطيرة.ليستمع إلى صوت التصفيق المتناسق يرافقه الهتاف عبر سور الحلبة. بعد نهاية المباراة ،يعود وقد علقت بمخيلته صورة ذلك الحارس، وضربات المقص الشهيرة للاعب"بريك".كان ذلك عالمه المثالي.كل ذلك سيتركه إلى عالم لا يعرف عنه شيئا بعد.هذه المرة سيكون وحيدا هناك.لن يسافر معه أبوه و لا أمه.لن يبقيا معه كما حدث عند خروجهم من القرية.لم يسافر ولا مرة واحدة خلال السنوات الخمس التي تلت هجرة الأسرة إلى المدينة.وها هو اليوم يجبر

على ركوب السيارة.يجبر على فراق أمه.على فراق إخوته لأول مرة.تمنى ليلتها لو لم يحصل على تلك الشهادة.نجاح سيحرمه من دفء الأسرة.من اللعب مع الإخوة.لم تكن له أخت يومها.كم بكى في تلك الليلة وهو على مائدة العشاء.ليلة الفراق مع أحبائه.

وصلا مدينة فجيح باكرا.كان ذلك يوم أربعاء،يوم سوق أسبوعي بالمدينة.أشرقت الشمس على الناس يقتنون البضائع من الباعة وهي موضوعة على أرضية السوق دون فراش يحتويها،ولا غطاء يحفظها.بضع لفتات وقليل من الجزر هنا،ربطة يصل هناك وبضع أرطال من بطاطس في مكان آخر يساومها أحدهم منفردا وعلى كتفه سلهام أحمر اللون.كان كل شيء جديدا بالنسبة للطفل هناك.على مرمى البصر داخل السوق،تحلق بعضهم حول ماشية من عنزات ونعاج وقليل من خرفان.بينهم سمسار ينشط عملية البيع،يمسك بأوراق نقذيه يمدها لهذا بعد أن انتزعها من ذاك...تركه أبوه صحبة بعض التلاميذ الذين سبقوه إلى الدراسة الإعدادية.صار يتجول معهم بلا هدف

غير انتظار عودة أبيه من المجهول وانتظار ما سيحدث بعد مغادرته. عاد أبوه وقدم له أوراق تسجيله في الإعدادية ثم أعطاه مبلغ خمسة وعشرين درهما وقال له "قرا مُليح" واجتهد.

دار الطالب كانت دنيا جديدة بالنسبة له. لأول مرة يدخل عالم العيش مع الجماعة. في ذلك اليوم، وكان ساجا جدا، دخل والأطفال قاعة الأكل، فرأى الطاولات مليئة بأطباق الطعام. نزع حذاءه خارج القاعة على غرار ما ألفه في قريته ثم دخل وقدماه حافيتان. أخذتا تتحركان وسط الفراغ أسفل المائدة وقد أثارتا سخرية نزلاء الدار الذين شرعوا يضحكون في استهزاء. كانوا يمدون أبصارهم إلى قدميه فيزدادون ضحكا. إحمر وجهه خجلا والكل في القاعة واضع حذاءه. إحمر وجهه لبرهة فقط، ثم صار يضحك مع الضاحكين ويظهر لهم قدميه. كان ينظر إلى كل واحد منهم. أحس باحتقارهم. أوشكت الدموع تزور عينيه لولا أنه تماسك قليلا واستمر يقهقه وعيناه إلى الطاولة أمامه. كانت قاعة الأكل رجة تسع النزلاء الجدد والقدامى. شرع بعض القدامى منهم يوزعون الصحون المليئة

طعاما.بعدها،جلس هؤلاء هناك غير بعيد في ركن قريب من تلك الغرفة.كانت الصحون على طاولتهم أكثر امتلاء من غيرها عند الآخرين وأكثر دسما.كان أول يوم له مع هذه الحال.إسترق النظرات تلو الأخرى إليهم.كانت يده اليمنى تزور فمه بطيئة.كثيرا ما كان يشعر بفمه مفتوحة لفترة تعجبا مما يرى.يزور الذباب شفثيه كثيرا دون أن يعبا.تناول أول وجبة مع الجماعة.كان ينظر يمينا ويسارا،يتفحص طريقة أكل هذا،وكمية الطعام بين أصابع ذاك.كم أصبعا يستعمل هذا؟وكيف تصل اللقمة إلى فم الآخر؟درجة فتح فم هذا،وسرعة المضغ عند ذلك.لاحظ في تلك الأثناء وجود منضدة خشبية مربعة الشكل أخذت حيزا معتبرا من مساحة تلك القاعة.لم تكن لديه أية فكرة عن سبب تواجدها هناك.مساحة كبيرة واسعة من خشب تتقدمها قطعتان من ستار طويل عريض يحركهما ببطء قليل من هواء يتدفق من باب خلفهما.بهره المشهد فانقاد إلى تأمله يرجو اكتشافه...

مساء ذلك اليوم،كان له أول موعد مع السينما.كان "شارلي شابلن" هو أول شخصية

سينمائية سيصادفها في حياته. كان له موعد مع فيلم "الأزمة المعاصرة" الآلة". كان مضحكا جدا. قبل ذلك، كانت سينما "العام" أو سينما الشارع تزور مدينته لتوعية الناس حول أمراض العينين "الرمد" وتحثهم على استعمال المرهم ذو العبلة الصفراء. كثيرا ما تضمن العرض وصلات إخبارية لبعض الشركات ومنها الدراجة النارية "ياماها" و"هوندا"، ولقطات خاطفة لبعض افلام "الويسترن". كان العرض سريعا كطيف الخيال، لا يلبي شغف الناس أو يشبع متعتهم. تدخل السينما في فجيج على قاعة كبيرة عبارة عن مقهى تقدم الشاي والقهوة و المشروبات الغازية إضافة إلى بعض المأكولات الخفيفة. كان البناء قديما. بها طاولات قد آتى الزمان على أكثرها قدما. فقدت الكراسي كثيرا من بريقها وتآكل خشبها. على جدار واجهتها ملصق كبير الحجم عليه صورة. في ذلك المساء، كان الرجل على الملصق يضع قبعة سوداء وقد قص شاربيه حتى صار مجرد نقطة سوداء تحت أنفه. كانت السينما من طابق واحد على الجانب الأيمن من الشارع الوحيد لتلك المدينة عند مدخلها من بوعرفة. وضعت بها الكراسي على أرضية

مستقيمة مقابل شاشة كبيرة بيضاء. إلى أسفل من القاعة قليلا، يمتد زقاق إلى ما لا نهاية، وآخر في الجانب المقابل ينفث على الشارع بغم ضيق لا يعرف المرء إلى أين يؤدي. كان الشارع يمتد طويلا منحدرًا تزين أطرافه شجيرات قليلة. على جوانبه دكاكين تقدم خدمات مختلفة للزبناء. خضارون وبقالون وجزارون ومقاهي متفرقة. أكثر من استهواه منهم، رجل يدعى "حمو صالح" كان جزارا أسمر اللون ضخم البنية، لا يفارق جلبابه الصوفي الأسود جسده. كانت المقدة في يده أداة ترعب. يشق بها عظم الشاة كأنه قطعة حلوى عيد الميلاد. استقرت مكتبة هناك أيضا على يسار الشارع وقد ملأت كتبا. أمام واجهتها لافتة صغيرة من معدن مستطيل شكلها، تحمل جرائد متنوعة و مجلات. وأخرى عليها صور عديدة للمدن والأماكن الغربية وأشجار عيد الميلاد وأنواع وأشكال من الورد. على ظهرها خطوط يمكن الكتابة عليها. وعلى زاوية منها موضع للطابع البريدي. لأول مرة يتعرف على "كارط بوسطال". رأى الطفل صاحبها "بزة" رجلا مثقفا لا تفارق عيناه الكتب حتى في حضور الزبون. يبتسم باستمرار لتلك الشخصيات التي على تلك الصفحات

كأنه يحدثها وتحديثه. بجانب المكتبة متجر لبيع الأثواب يضاء ليلا بمصباح شديد بياض نوره وليس كضوء بقية المصابيح. مصباح طويل يلتصق بسقف الدكان. كم اجتذبه ذلك الضوء وذلك المصباح. في الواجهة الأخرى من الشارع، وقبالة قاعة السينما، تواجد دكان كتب على لافتة فوق بابه "استوديو مصباحي". تظهر من خلال زجاج على بابه آلات تصوير مختلفة الأشكال. كان ينظر إلى هذه الأشياء وهو يعلم أن نافذة أخرى تنفتح أمامه وتنقله إلى فضاءات أرحب. وعلى زاوية من الجانب العلوي من ذلك الشارع، ترسو كل مساء ناقلة "زناقة"، و تربط المدينة بوجدة عبر طريق معبدة ضيقة إلى بوعرفة، ترسو تحت مبنى الفندق القديم الذي يحكي ملاحم دامية خاضها النزلاء مع الحشرات الضارة وخصوصا البق. كان النزلاء يشتكون منه عند كل مبيت. كانت لسعته تدمي أطرافهم وتمزق جلودهم كل ممزق، كثيرا ما يغادرون الغرف ليمضوا بقية الليل خارجه. وكثيرا ما دخلوا في عراك مع صاحبه وطالبوه بإرجاع واجب المبيت. كان رجلا مسنا سريعا غضبه. يضع نظارات بالكاد يتبين من خلالهما ما يحيط به. لم ير الطفل مثل تلك الحشرات

المفترسة في قريته ولا حتى في المدينة التي انتقلت إليها أسرته من بعد. لم يكن التلفاز حاضرا في ذلك الزمان. كانت أغاني أم كلثوم وفريد الأطرش وأسمهان وفائزة أحمد وغيرهم من المطربين الشرقيين على المذياع تملأ أثير المكان طيلة النهار. تهتز لها الرؤوس والأبدان طربا. تبعث في الشارع حياة متجددة وتزيده نشاطا حتى وقت متأخر من المساء. بعدها يموت تماما في انتظار بعث جديد في اليوم الموالي.

عالم دار الطالب أو الجمعية الخيرية الإسلامية كما سميت آنذاك، بناء كبير به غرفتان للنوم وقاعة للمطالعة وأخرى للأكل. تعلو سقفها قبة تزين قممها قطعة من معدن على شكل هلال. انتصبت في ساحة الدار نخلات في تنسيق بديع طالت فتجاوزت أسطح الغرف. كانت الحدود المغربية مع الجزائر مفتوحة أمام الناس والبضائع إبان ذلك التاريخ. أضحى الفنانون المغاربة يعبرونها لإقامة حفلات ساهرة بالمدن الجزائرية. كانت قاعة الأكل في الدار تحتوي منصة للمسرح. ولا يمر هؤلاء إلا وأمتعوا أهالي فجيج بأعمال فنية من أغانيهم ومسرحياتهم. كان عبد الهادي بالخياط وحميد الزاهر

وعبد الرؤوف من بين من ملأوا حياته من الفنانين وأثروا خياله بصور لا تنسى. حضر لعبد الرؤوف عرضا ذات ليلة في فضاء بقيادة فجيح. كان يوم عيد وطني. كم ضحك يومها حتى كاد يغمى عليه! كم سألت دموعه ليلتها! كان دائم البكاء بسبب فراق أمه وإخوته- لكن ليلتها بكى كثيرا من الضحك. فتح عينيه على تلك المدينة بنخيلها المترامي ذي التمر اللذيذ الشهى الذي لا يضاويه سوى تمر الجنة. بسواقيها و برك مائية ساخنة تحت أرضها يطلق الناس عليها هناك اسم "بجوحة"؛ يمكن الوصول إليها عبر درج طويل من الحجر فيتراءى بخار الماء متصاعدا ينتشر في هدوء وسط الظلام. ينبلج النور داخلها كلما تقدم المستحم واقترب من مائها. ماء دافئ يداوي. ترى ما الذي سخن هذا الماء؟ أهو بركان تحت أرضها؟ أم أن هناك من يضع حطبا في مكان ما تحت البركة؟ وهل يعقل ذلك؟ أين مدختها إذن؟ كان يروقه كثيرا ذلك المكان دون أن يخفي خوفه منه. كم خشي انهياره! ارتبط في عقله كثيرا بعين العرسان في قريته. كانت فجيح مدينة تزينها آثار أمم قديمة عبرت المكان يوما. ربما كان هؤلاء من الفينيقيين أو الرومان أو الوندال. بها صومعة حجرية يمتد عمرها

إلى سبعة قرون أو يزيدون. صومعة حجرية مر بها
كثيرا. يتأملها في دهشة. مدينة الثقافة والحضارة
والرياضة



حيث وقفت إعدادية "سيدي عبد الجبار" صرحا يذكر
بماض تليد. تخترق أحياءها عبر أزقة ضيقة تطل
الأشجار على جوانبها. تحيط ببساتينها جدران من
طين. كان أستاذه في مادة الرياضة "الكوش" يمثل
بالنسبة له عالما بحد ذاته. كان مهابا. طويل
القامة، نحيف البنية، أسمر اللون، بارعا في رياضة
الكرة الطائرة. كان يحلو له ولأقرانه النظر إلى جسده

يرتفع ليضرب الكرة وهي في الهواء متخطيا شبك
الخصم بعد أن يصيح: "صماتش"، فتهوي قوية يعجز
الخصم عن صدها. كانت عضلات بطنه تظهر عند
كل ارتفاع صلبة ملتوية متموجة.

كانت السنة الرابعة من دراسته الإعدادية
هناك. كانت الحدود مع الجزائر تظهر من
بعيد، وتظهر خلفها عربات مختلفة الأشكال لا
تنقطع حركتها بين الاتجاهين. أصبح اليوم يخاف
طيفها الأسود. صارت بالنسبة له ولسكان المدينة
مصدر قلق. أضحت ترزعجهم، تقض مضاجعهم.-
قبلها، وفي سنته الثانية هناك، أصطحبه أحد معارف
أبيه إلى واد على مقربة من الحدود
يسمى "زسفانة". واد يسيل مأؤه تحت ظلال نخيل
شهبي طعم ثمراته. واد به سمك وماء. إلتقط الصبي
ما طاب من تمر. سبح ولعب على ضفته. واد لا
حدود له بادية. ربما كان يتصل في جانب منه
بوادي "عنفز" في قريته. تمر أمامه قوافل أهالي
فجيج وعلى ظهورهم أكوام أعشاب جمعوها من
تلك الضفاف لإطعام بهائمهم وهم لا يخفون
توجسا مما قد يقدم عليه الجيش الجزائري.-

كان "أشباح العرب" رجلا قوي البنية، ذا شاربين أبيضين يرتفعان حتى يلامسان خديه بيده عصا لا تفارقها. يلف جسده بسلهامه البني. رجل تعلق محياه شهامة وكرم. الجد طبعه. فتح للطفل بيته مرحبا. لا يحتاج شيئا إلا وجده عنده. ولا يشعر بضيق إلا نفس كربته وصار له عوناً. كان ابنه محمد ينادي تيمح " يا مَبِوضْ " كلما زار منزل ذلك الرجل آخر كل أسبوع. كان يقابل ذلك بضحكات لا تنقطع. لم يكن يعرف ما كانت تعنيه تلك الكلمة. لكنه فهم بعمق ما الذي يعنيه ما أسبغه عليه ذلك الرجل من كرم وهو في مثل ذلك المكان و في ذلك السن المبكر من حياته - ما عاد لأهالي فجيج قدرة على زيارة الوادي بعد ذلك اليوم، لم يعد نخيله ملكا لهم ولا عادت البهائم في حظائرهم تنتظر عشبا من هناك، من تربته. أضحى الطفل ينظر إلى ذلك الوادي يغمره الأسف. وإلى تلك العربات بريية، يكرهها؛ ولا ينتظر من الأوقات إلا أن يخفيها عن أنظاره المساء....

بعد ذلك، أعلنت المسيرة الخضراء. في تلك الليلة اجتمع المئات من السكان في الساحة العامة قبالة

مقر قيادة فجيح. كانت الإذاعة الوطنية تبث أغاني وأناشيد في انتظار خطاب الملك. ليلتها كان شهر أكتوبر قد بلغ منتصفه، وها هي مصابيح الشارع العمومي تجلي المكان قليلا قليلا؛ و شرع البرد يدب شيئا فشيئا في الأجواء. كان بعض قرّاش الليل يطير غير بعيد من المكان حول تلك المصابيح ومعه بعض من حشرات كأنها رذاذ مطر. الليل والنخيل والضوء و الحماسة والوطنية الصادقة، يتحرك في كنفها الحاضرون طوعا ينتظرون كل جديد. أناس اختلفت أعمارهم وأجناسهم وأحسابهم وأنسابهم، لم يكن من هم لهم سوى معرفة ما سيأتي به خطاب الملك. لا تلفاز في ذلك الزمان فيشاهدوا الأخبار على شاشته إلا المذيع. وأعلنت المسيرة على مسمع من الجميع. ينقلها أثير ذلك المكان إلى كل أذن. يدعوهم الملك للمشاركة فيها متطوعين. تجمع الشباب والشيب وحتى النساء في اليوم الموالي للخطاب على أرضية السوق الجماعي للمدينة بأعداد غفيرة. في طريقه إلى الإعدادية، كان يمر بهم وهم يتدربون كالجنود. رأى مدربهم رجلا طويل القامة، نحيف البنية، حازما. يحرك يديه نحو الأمام وإلى الخلف بانتظام

وقدماه تضربان الأرض ضربا يتطاير معه الغبار إلى مسافات بعيدة.يتوقف الطفل لبرهة لينظر إليهم يتحركون متناسقي الصفوف متراصيها.يأخذه الإعجاب بهم فينسى دراسته.لقد ذكره هؤلاء بأولئك الجنود أمام منزله.كثيرا ما كان يأخذه الشوق حيننا إلى تلك الأيام فيبكي.أيام حيث أمه وإخوته ومنزله.أيام بها العلم يرتفع على إيقاع النشيد الوطني.رأى عجائز يتدربن أيضا.تميزت إحداهن بالحزم في تحريك يديها وضرب قدميها بالأرض.نظر إليها مليا في استغراب.كانت شفتها تنغلقان على فم فارغ قد تخلى عن أسنانه إلى الأبد.كانت شفتها تسقطان على بعضهما وتختفيان داخل تلك المغارة السحيقة.وأطفال على جدار السوق يقلدون حركاتهم أو يتفرجون.

خلال العطلة،لاحظ عدم حدوث أي تغير في طريقة تفكير أمه.وجدها في قمة الحزن.لقد صار خصمها القديم و أسرته جارا لها بعد أن اشتد أدى الجيش الجزائري على سكان قرينته وقد هُجروا منها خوفا من اعتداء جديد.حكى تيمح يقول في حسرة- " قبل ذلك اليوم بعام،إصطحبني أبي لرؤية منزل كان قد

بناه على مساحة من منزله القديم.أخذ يشرح لي كيف بناه، ولماذا بناه، ولمن بناه.يتحدث إلي وكأنه يكلم راشدا.أخبرتني أمي ليلتها تقول:"يا ولدي،أن أباك قد خصص لك هذا المنزل،تسكنه عندما تكبر ويصير لك أولاد "- قاطعتها في استحياء-" لا يا أمي،أنا لن أتزوج.لا أريد الزواج.سأبقى بجانبك فقط"-كم ضحكت أمي يومها حتى بدت أضراسها.لم أكن أفهم شيئا مما كان يخطط لي.لكن ها هو المنزل اليوم يُسكن قبل أن أكبر وقبل أن أصبح أبا"-.اقترب الخصمان أكثر من بعضهما.كُلف غريمها برعاية تجارة زوجها وتدبير مصروف أبنائها وهو ألدُّ الخصوم.سوف تبدأ النزاعات بينهما وتعود إلى سابق عهدها بالقرية ؛وسوف يتبخر حلم الطفل وتزيد همومه.قال تيمح وعبارات الأسف لا تفارق لسانه:"شهدت معركة حامية الوطيس ذات مساء بينهما؛ أسرعت من خوفي على أمي أخبر كبير قرينتنا بما حدث. طمعت في حمايته في غياب أبي.أسرعت إليه دفاعا عن أمي وإخوتي.كنت صغيرا.لم أكن أعرف شيئا،خفت أن تتركني أمي وتتركهم صغارا يضيعون.عند عودتي ؛ترددت في دخول المنزل،لكنها بادرتني تقول:"تقدم يا ولدي

تقدم !لم يحدث أي شيء..لم يحدث أي شيء.. "قالتها وابتسامه صفراء تعلو وجهها.أدركت أن المرأة خائفة.خائفة من أن يعود المتسلط إلى عاداته فيعكر صفو حياتها و سعادتنا.عرفت أن ذلك اللقاء لم يكن ليتم من صميم قلبها.عاشا متنافرين منذ كانت تجمعهما دار واحدة بالقرية.منذ أن نهرها.فهمت أن ذلك اللقاء غير طبيعي،لكن ما أقدم عليه معا من الجنوح إلى الصلح كان تصرفا حكيما منهما معا.ثم انتهى ذلك المساء."

في فجيج،كان موعد انطلاق المسيرة الخضراء.اصطفت الشاحنات والناقلات في الساحة العامة بعد مغرب ذلك اليوم الجميل.عم هرج ومرج وفرح ودموع وحماسة وأغاني وأناشيد ترمي بها مكبرات الصوت في كل اتجاه.لا يصعد رجل ولا امرأة ولا شاب من المتطوعين شاحنة أو ناقلة إلا ودعه الأهل والأصحاب بالدموع والدعاء وكأنه ذاهب إلى الحج.يلوح لهم بيد عبر زجاج نوافذ تلك الراحلة كمن يحسب الموت متخطفه.كان المكان مفعما بالحركة،بالجمال.تزيينه الرايات وصور الملك ومصاحف القرآن الكريم.وأطفال في كل مكان

يجرون قريبا تحت ظلال الأشجار التي امتصت كثيرا من نور أضواء الشارع. وأصوات تغادر مرددة في شجون "الله يسهل عليهم. الله ينصر الملك". كلمات كان يلتقطها هنا وهناك. من هذا ومن ذاك بلهجة أهل البلد. تجند العديد من رجال الشرطة والقوات المساعدة ينظمون حركة المرور. رتب كل شيء وأعد بعناية. وتحرك القطار ذو العجلات المطاطية الذي شكلته تلك الشاحنات والناقلات على امتداد ذلك الشارع الطويل. كان تيمح هناك قريبا منهم في ذلك المساء من الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر. كان يلوح للجميع. تقطر عيناه دمعا بريئا تصاحبه حركات رجليه تضرب الأرض بقوة على أنغام الموسيقى التي كانت تبثها الإذاعة الوطنية. كان هناك يرى كل شيء. يسمع كل شيء. يحس بكل الأحاسيس الغربية التي تطلبها وفرضها ذلك الموقف. وانطلقت القافلة بالزغاريد، بالزغاريد والهتاف بالنصر والعودة الميمونة المظفرة.

لم تغب الجرائد الوطنية عن عيني الطفل أبدا. وعده صاحب المكتبة بأن يمدّه بها يوميا. كانت تنقل كل الأخبار عن المسيرة. عن تحركها في باقي المدن

المغربية. عن تجمع المتطوعين. عن تزايد أعدادهم. عن الأنشطة التي أحيوا بها تلك الليالي من شهر نونبر الباردة وهم يقصدون طرفاية ملتحفين سماء الوطن ومفترشين أرضه؛ لا يبالون بما قد تُقدّم عليه القوات الإسبانية. كانوا يثقون في الملك. كان عبورهم مسالة وقت ليست إلا. تنقل أخبارا عن اجتماعات الملك وخطاباته وتحركاته إلى مراكش وأكادير وهو يضع العمامة الصفراء تزين رأسه وتزيد وجهه بهاء. كم كان الطفل مولعا بخطاباته ومؤتمراته الصحفية! تنقل أخبارا عن تصرفات القوات الإسبانية وردود أفعالها. أخبارا عن اقتحام الحدود الوهمية. عن طائرات الهيلكوبتر وعلى متنها أطقم الإذاعة والتلفزة الوطنية. كان يتأمل الصور القادمة من هناك بفخر. كان مولعا بالصحافة والأخبار منذ ذلك اليوم الذي رأى فيه تجار ساحة "اسهوو" يتناقلون أخبار فلسطين وأخبار فرنسا والجزائر. ظل يتردد أثناء أوقات فراغه على الحوانيت التي يتابع أصحابها أخبار المسيرة على المذيع. يجلس قريبا منها على الرصيف. تتوارد الأنباء على مسامعه كشريط سينمائي لا ينتهي. كانت أركانها تهتز خيفة تارة وطورا فرحا. أكثر

ما كان يقلقه، هي أنباء استفزاز القوات الإسبانية للمتطوعين. كان يستمع لينقل لأصحابه في دار الطالب ما يحدث. كان بمثابة مذياعهم. كان "الصديق معينو" محبوبا لديه كثيرا. يتابع تعليقاته حول موقع المتطوعين وأحوالهم وتجمعاتهم وأهازيجهم. كان خبيرا في نقل هذه الأنباء بالنبرة الوطنية الصادقة. رفيع الأسلوب جذابه. لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من الأحداث إلا نقلها للجُمهور مطمئنا أو محذرا. كانت المجموعات الوطنية نشيطة على ذلك العهد. لقد كانت أغنية "لعيون عيني والساقية الحمراء لي..." "لجيل جلالة مفعمة بالوطنية والتعبير الصادق عن الإرتباط بهذه الربوع قلبا وقالبا. كم أثرت فيه وهزت أركانه! لم يقُته أبدا الإستماع إلى الفرقة الوطنية للإذاعة والتلفزة. لقد ساهمت بجد في إذكاء الروح الوطنية سواء في نفوس المتطوعين أو باقي أفراد الشعب المغربي. إلى عماد عبد الكبير، إلى إسماعيل أحمد إلى غيرهم. وعادت الصحراء، وعاد المتطوعون واستقبلوا استقبال الظافرين سواء من ذويهم أو من السلطات. وكانت لحظة رفع العلم المغربي

وإنزال العلم الإسباني فارقة في وجدان الطفل ذي
الخمسة عشر عاما.

ذات مساء، وفيما كان وبعض صحابه ينتظرون
دخول السينما، فوجئوا بصوت قوي جعل كل من
على الشارع يقفزون هارين مفزوعين. كان ذلك
صوت طائرة حربية جزائرية مرت بسرعة خارقة. رآها
سوداء صغيرة ذات منقار وصوت يصم الأذان. لقد
خرقت جدار الصوت وأرعبت الجميع. ذكره ذلك بما
عناه أهل بلده إيش من هذه القوات قبل خمس
عشرة سنة خلت. كان اعتداءا شنيعا يومها. خاف
الجميع أمام السينما وعلى الشارع العام
وترقبوا. مرت الدقائق ثقيلة بطيئة. أخذ الناس
أماكنهم تحت الجدران مذعورين. ما كان ذلك
ليحميهم لو أفرغت الطائرة الطائشة حمولتها. لكن
اليوم مر بسلام بعد أن ابتعدت تجر أذيال خيبتها
وقد خلفت في نفوس الناس كرها شديدا لها وحنقا
في الصدور على طيشها.

من خلال الرسائل التي كانت تصله من أخوانه وهو
في فجيج، كانت أمه تصاب بالمس مرارا. تعتقد
جازمة أن هناك من يخطط لتحبيدها من المشهد.

ما من أحد يستطيع صرفها عن التفكير كذلك.أخذ الطفل يراسل أباه بلا انقطاع.يخبره بما يجري.كان الرد على الرسائل لا يصل إلا بعد مضي شهرين أو ثلاثا.تمكنت رسائل تيمح من إقناع أبيه بتصحيح الوضع.لكن هذا لم يساعد على تخليص الصبي من مشاكله.فقد أسيد أمر تلك الأسرة لآخرين،لتبدأ المشاكل من جديد وتستمر و تتفاقم.كان "نخناح" شابا قوي البنية محبوبا.كان من بين هؤلاء الشباب ذوي اللحى الطويلة الذين وقفوا ذات يوم هناك في مدرسة القرية أمام المعلم خائفين تفزعهم عصاه.هاهو الآن يصبح جزءا من فصول المؤامرة التي تحسب أم تيمح أنها تحاك ضدها منذ أن حملت اسم تلك العائلة.إنهال على أبيه برسائل كثيرة استطاعت أن تبعث قليلا من طمأنينة في قلب أمه وتريحها.

في فجيج،لم تتوقف القوات الجزائرية عن استفزاز السكان بطيش عساكرها وأدواتهم الحربية.كان الصباح،ودرس الرياضيات قد بدأ للتو داخل الفصل في الطابق الأول من البناية.وبينما انهمك الأساتذة والتلاميذ في الدرس والتحصيل،إذا بكامل

مؤسسة "سيدي عبد الجبار" الإعدادية تهتز من جراء صوت قوي، صوت يشبه ما سمعه أمام السينما ذلك النهار. إنها طائرة "إف5" الجزائرية، وقد دخلت الأجواء المغربية من جديد. قام الجميع واقفين أمام الأستاذ. إهتزت النوافذ بعنف حتى كاد الزجاج يتكسر. خاف الجميع وأوشكوا على المغادرة، لكن الأستاذ طمأنهم وثبت من عزائمهم وذكرهم بوطنيتهم ورجولتهم مداعبا عقولهم تغمر محياه ابتسامة لطيفة. انصرفت الطائرة مرة أخرى وقد كفى الله الناس شرها وشر من أرسلها.

في ذلك التاريخ، تدفق الكثير من المواطنين المغاربة الذين طردتهم الحكومة الجزائرية آنذاك على المدينة؛ استقرت الكثير من العائلات في دار الطالب. تعرف إلى الكثير منهم. لم يأسف في حياته أكثر من أسفه على ما تناقله المهجرون في ذلك المكان من حكايات غريبة تدلل على شراسة الشرطة الجزائرية ووحشيتها. حكى أحدهم وكان يدعى "محمداتي" استطاع تيمح أن يكسب منه بعض الثقة، حكى أن الشرطة الجزائرية دخلت دار إحدى الأسر المغربية في يوم عيد الأضحى؛ كان

الأب مغربيا والأم من الجزائر.حكى أن الشرطة أخذت الأب وأبنائه-ودم الأضحية لم يجف بعد على مذبحها في بهو الدار-ثم اقتادتهم إلى الحدود تاركة الأم غارقة في دموعها ودم ذبيحتها.كانت الحكايات تسرد عليه وعلى رفاقه من نزلاء الدار بتفصيل يبعث الأسى والكدر في النفس.كانوا يستمعون ويستمعون مذهولين من هذه الأحداث.كانت جحافل المهجرين تفد تباعا إلى فجيح.امتلات المدارس ودار الطالب بهم.بل و حتى قاعات الاستقبال في الحمامات التي توقفت تماما عن العمل استجابة لنداء الوطنية والأخوة والإنسانية التي تجردت منها الشرطة الجزائرية أمام عينيه آنذاك.إحتضن أهل فجيح أعدادا منهم في منازلهم.ولم يسلم الكثيرون ممن دُفعوا قسرا عبر الحدود من السب والشتم والتهكم والسخرية منهم.كان تيمح يسمع كل ما يروونه وهو يجالس أطفالهم و كبارهم تحت ظلال النخلات وسط الدار.لا يتفوهون بكلمة إلا سجلها عقله الصغير وطبعت في مخيلته. ولعل ما جعله يدرك بوضوح بشاعة الشرطة الجزائرية هو موقفها من ذلك الشاب المختل عقليا،تدفعه عبر الحدود دفعا.كان

يصيح بقوة ويضرب بعنف كل من يصادفه.طويل
القامة،ليس برأسه شعر.يرتدى عباءة تميل إلى
الصفرة قليلا و قد غادرت مقلتاه موضعهما من
الجمجمة فصارتا تخيفان كل من تصادفانه.وضعت
السلطات المختصة آنذاك في قاعة الأكل وأغلقت
عليه الباب بإحكام.صار نزلاء الدار يطلون عليه من
خلال نوافذ صغيرة مشفقين لحاله.كان مضطربا
جدا.يصيح بأعلى صوته.لا يتوقف عن الحركة.يركل
الطاولات فتتطاير الكراسي في كل اتجاه.يصعد
فوقها يريد كسرهما.كان يحمل عليه أربعة أو خمسة
من رجال الأمن ليمسكوه ويقيدوه فيسمحوا
للطلبة والمهجرين بتناول وجبة الغذاء أو العشاء
في موعدها من كل يوم،ثم يعيدونه إلى هناك
ليطعموه بدوره في انتظار الوجبة المقبلة.نساء
ورجال وأطفال عج بهم ذلك المكان.إقتسم معهم
نزلاء الدار كل شيء وهم صغار لا يزالون.مأكلهم
وملبسهم ومرقدهم وآلامهم وأحزانهم.كل ما رآه
وسمعه لم يكن ليثير فيه الدهشة إلا من باب
فضاعته.فقد خبر بشاعة العسكر الجزائري بقريته
وقد كفاه هذا أن يفهم بجلاء ما يجري لهؤلاء
الأبرياء.كل ذلك كان صورا نقلها إلى خياله سردا

هؤلاء الذين قطعوا تلك المسافات الشائكة سيراً على الأقدام. تعتصر قلوبهم الحسرة على ما اقترفه عسكر الدولة الجارة من سوء معاملة يحتمل في نفسه الحقيقة والصدق، كما يحتمل المبالغة أحياناً. لكن ما رواه المعطي عن معاناته بعد تلك السنوات التي تلت حكايات هؤلاء المهجرين، كان كافياً لإزالة جانب المبالغة عن تلك الأخبار والتصديق بكونها حقيقة لا غبار عليها. كان المعطي شاهد عيان آخر على كل ما قيل لتيمح. كان شاباً في منتصف العشرينيات من عمره حين رأى وسمع كل شيء وعاش كل لحظة كما لا يمكن لأي مخلوق أن يتخيلها وسط تلك الرمضاء. حكى عن ألوان العذاب الذي لاقاه منهم بعد أن حكموا عليه بالأشغال الشاقة. ضرب يومي بأسلاك كهربائية لأتفه الأسباب. إهانات لفظية لا تنقطع "طيبونا بلعمود، بلكروا. كانوا يطرحونني أرضاً ثم يضغط أحدهم على جانب من وجهي بحذائه العسكري بقوة بينما نصف وجهي الآخر يواجه الرمل الحارق وهو يردد كلاماً قبيحاً فظاً" يقول المعطي في حسرة والدمع يكاد يحجب الرؤية عن عينيه. حكى عن نومه لساعات قليلة في حُفر دون غطاء- "منك لَسْمًا"

كما قال ويده ترفعان إلى أعلى بحدة. قال ذلك عدة مرات وهو يمرر يده على وجهه كمن أصاب جسمه تعرق. بدا مضطربا جدا- أو داخل حاويات معدنية "كوئنتير" كما سماها. بها فتحة لا يتجاوز محيطها عشرين سنتيمترا يكاد قاطنها يختنق داخلها، تحرسها أياد لا ترحم؛ لا دين لها ولا مبدأ. "كانوا يوقظوننا عدة مرات ليتم عدنا وإحصاء الحاضرين". لم أكن خائفا "يقول الرجل" لأنني قد استرخصت حياتي فداء للوطن. لكن ما آلمني هو تصرف 'لَمَسْلَمِينُ' من جيراننا معنا بهذا الأسلوب الوحشي. لقد كان الموت يطاردنا في كل لحظة، ومع ذلك لم أحاول الهرب لأن أملي كان كبيرا في الخروج من ذلك الجحيم يوما". حكى عن أسماء لأماكن غريبة مر بها هناك "عن" عوينت بلكرع "عن" "ميجك، وحكى عن غذائه أيضا: خبز وأرز وعدس طبخ بكل ما احتواه من حصى و عوالق لا يأتي إلا بعد جوع شديد. حكى عن الطهارة وسط تلك الأماكن الحارة، حيث لا ماء إلا لتترات قليلة تقدم لهم بعد ظمأ قاتل "كانوا يقدمون لنا سطلا نقضي فيه حاجتنا داخل تلك الحاويات مخافة أن نهرب. كانت الروائح خانقة "يردد في استحياء وعلى وجهه غصة

وألم. "لم نكن نلبس إلا ما نجده من قطع ثوب بالية رثة جلبتها الزوابع الرملية من مكان بعيد". عندما وجدت نفسي في أكادير أمام ذلك الإستقبال الرائع، لم أدر أي شعور انتابني وأنا أرى كل شيء قد تغير. أحسست فقط أنني الآن أصبحت حرا من جديد وأن فرحتي لا تضاهيها فرحة". إستمع تيمح إلى المعطي باهتمام وهما يجلسان في تلك المقهى على جانب الشارع الكبير. لقد صار اليوم زوجا وأبا بعد كل تلك المحن. عندما ينظر تيمح إلى المعطي، يتذكر كل تلك الأحداث الأليمة في قرينته، في فجيح وفي وجدة، ويزداد اقتناعا أن المعطي كان بطلا كما كان هؤلاء المهجرين قسرا وهؤلاء الذين ماتوا على الحدود غدرا أبطالا....

عاش تيمح في هذه الدار مع الجماعة. جماعة من الأطفال جعلهم سوء الحال كالجياع. أطفال كتب لهم أن يعيشوا هناك. أطفال من أسر فقيرة. - كان أبناء الأغنياء يمنحون الحق في الدراسة بوجدة. أما هؤلاء فكان حظهم أن يكملوا دراستهم في هذه المدينة. مدينة، أقل ما يمكن أن يقال عنها، أنها علمية أثرية قديمة. تنقل زائرها إلى حضارات بائدة تنبئ

بوجودها منذ غابر السنين.- كانت أغرودات"السي بوعزة"وقد كان آنذاك يدير مدرسة ابن رشيق الابتدائية التي كانت تجاور دار الطالب-كانت أغروداته الصباحية لإيقاظ الأطفال،تختصر في نفس تيمح كل قيم ذلك العالم المثالي الذي مثلته تلك النفس الزكية الطاهرة لذلك الرجل وهو يشحذ همم الأطفال للعلم بأنشوداته الرائعة وبصوته العذب.كان ذلك التغريد يحمله على ظهر بساط خياله الواسع إلى أزمنة وعوالم غابرة،ويقطع عليه كل صباح شريط أحلامه نحو عالم اليقظة؛حيث ينتظره الدرس بشوق كبير.- لا يشتمُّ هؤلاء رائحة طعام إلا أسرعوا إلى صاحبه و انتزعوه منه ونهشوه نهشا.كان يفرح كثيرا عندما يتوصل ببعض الأكل من أمه.كان يذهب في انتظار الناقلة مساء.كل يوم أحد هو على تلك الحال. يقف تحت شرفة ذلك الفندق.أحيانا تحت المطر.يترقب لعل شخصا ما يناديه ويمده بتلك العلبة السحرية الملفوفة بخيوط رفيعة عديدة وقد استقر بداخلها خبز الدار،توسطه بطاطس مسلوقة وقليل من لحم و أحيانا بعض البيض،أو حتى دراهم معدودات يدبر بها أموره في

انتظار العطلة، أو يشتم فيها مجرد رائحة أسرة أفقده
النجاح حنانها.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، دعا أحد الأطفال
جماعة من صحابه سرا لتناول وجبة عشاء دسمة
أرسلتها إليه أسرته. طلب منهم ألا يدخلوا قاعة
الأكل ذلك المساء. فالأكل وفير وبه لحم. قد تكون
دجاجة محمرة أو قطعة من لحم كتف عجل زينه
الشحم. طلب منهم التظاهر بالشبع أمام الآخرين
وضرب لهم موعدا بعد انصراف الجميع إلى
غرفتي النوم. لم يطل الأمر بهم حتى فتحت أمامهم
قاعة الإطعام، وهاهم قد تحلقوا حول مائدة ترسو
فوقها علبة متوسطة الحجم تلفها خيوط أحكم
إغلاقها بإتقان شديد. شممت السواعد وتهيات
الأيدي وأفرزت المعدات ما تحتاجه من حمض
لهضم القادم من الطعام. خرست الألسن عدا من
الهمس مخافة اكتشاف جمعهم فيهاجموا من كل
اتجاه ويتفرق الأكل بين الأيدي تتخطفه فيتطاير
كالهباء تارة وتهوي به إلى مكان سحيق تحت الأقدام
أخرى. فتحت العلبة، فتحت على رائحة نتنه انتشرت
في المكان سريعا. رائحة زوج حذاء قديم وجوارب

بالية كان ذلك الطالب قد طلبهما من أجل حصة الرياضة. تفرق الجمع ساخطا حانقا يسب ويشتم. سوف يبيتون ليلتهم على بطون فارغة. انفجر بعضهم ضحكا لم يستطع التخلص منه إلا بعد حين. صارت حكايتهم على كل لسان داخل الدار. كانت الوجبات المقدمة لنزلاء دار الطالب هزيلة لا تلبي حاجات بطونهم خصوصا في الفصل البارد. قليل من حساء مع قطعة خبز صغيرة. فاصوليا يسكن الدود أحشائها. كثيرا ما يظهر على الصحن أثناء تناول وجبة من الوجبات. تزحف الدودة على الصحن زحفا تحاول الإفلات من قبضة ملعقة قد تلقي بها بين أضراس لا ترحم. عدس به حصى تسمع له طقطقة تحت الأضراس. سمك معلب منتهي الصلاحية في غالب الأوقات. خلال وجبة العشاء لإحدى الليالي الباردة، فتح نزلاء الدار علب السمك المعلب كالمعتاد. في تلك الليلة لم يبد الأمر عاديا. سابقا، كانت تقدم علبة واحدة لثلاثة أفراد يتقاسمونها، أما ليلتها، فقد حصل كل نزيل على علبة خاصة به. فرحوا كثيرا لأن السمك كان وجبة مميزة ومختلفة وناذرة. خرج الدود جماعات ووحدانا

يتبخر. إنتشرت رائحة قذرة عطرت المكان سريعا. إنطفأت المصابيح فجأة. تطايرت الصحون في ذلك الفضاء الفارغ المظلم. خبأ الصبي رأسه تحت الطاولة وانتظر. إنتظر والضحك يغلبه. إنتظر والخشية من أن يصاب بقطعة زجاج حادة تجز رأسه لا تفارقه. عمت الفوضى المكان قبل أن تضاء الغرفة على أرضية مليئة بفتات الزجاج وقطع السمك العفنة. كان الصراخ والصفير يعلوان في المكان. حضر مسؤولون عن السلطات المحلية إلى جانب الشرطة. بعدها، هدا الليل وسكن. في الغد، كانت وجبة مميزة تنتظر الجميع. وجبة كسكس ولحم وبرتقال. كان ذلك أول مظهر من مظاهر الإحتجاج يصادفه الطفل في حياته.

لم تتوقف الإثارة في ليالي دار الطالب. إذ بينما كان الجميع يستعدون لتناول وجبة العشاء، منهم من جلس على السرير يتبادل وأحدهم أطراف الحديث، ومنهم من يراجع دروسه، أخرج أحد النزلاء سلكا غليظا صار يقلبه بين يديه ويتفحصه بإمعان. بجانبه، جلس نزيلان آخران أسفل سريريتهما يتأملان ما يفعل باهتمام. إنهمك تيمح يراجع درسا

في التاريخ كان السيد "محمد عمارة" أستاذ الإجتتماعيات قد كلفه بتحضيره. كان أستاذا جادا في تدريس هذه المادة. كفاء. يجعل من يحضر درسه يتشوق و يتحرق إلى تتبعه. كان عليه أن يراجع. فالأستاذ سيسأل وسيهتم كثيرا لمن يُعد الدروس قبلا. كان الظرف يقتضي أن يدرس الطفل بجد. لا مجال للتراجع. كان عليه أن يسابق الزمن من أجل النجاح والحصول على الشهادة الكبيرة وعلى العمل. ما كان أبوه ليرضى بأقل من ذلك. كان يذكره بذلك كلما وصل من ديار المهجر- فكر جالب السلك أن يشعل النار في أحد طرفيه فإذا هو يكون شرارة نارية كبيرة. أخذ الطفل يحركه يمنا ويسرة بغية إطفائه، لكن الشرارة ازدادت قوة و توهجا. تعالت أصوات كثيرة هلوعة تحذر. علم الطفل بعد فترة من الخوف أنها مفرقة ذات فتيل تستعمل لتفتيت الصخور في الأنهار أو أعالي الجبال. سمعهم تيمح يتحدثون ولم يعلم أن الموت بسبب انفجار وشيك كان محدقا به وبهم. نهض حگوم مسرعا والنار تكاد تلتهم يده حرقا. أسرع يتبعه جلساؤه وعلى اللسان كلمة واحدة

تتردد: "إرمها، إرمها، ستنفجر، ستنفجر". رمى بها إلى

سطح الدار وقد اعترى الشحوب وجهه من هول ما فعل. دوى انفجار قوي هرع على أثره الجميع إلى خارج الغرف فزعين يتساءلون. كانت العلاقات مع الجيران متوترة جدا. في لمح البصر كانت قوة من الشرطة وأحد أفراد القوات المسلحة الملكية في عين المكان. تسلق أحدهم إحدى النخلات ألقته به إلى سطح الدار. صعد بعض الجنود يتبعونه و يتحسسون مصدر الانفجار. سمع تيمح من على سريره وعبر تلك النافذة التي كانت تطل على ساحة الدار جعجعة تلاها صوت واضح لأحدهم يؤكد أن الرائحة قادمة من جهة الشرق. جهة الحدود، في حين أخبرهم آخر أن الأمر لا يعدو كونه تصرفا من أحد النزلاء. نزل الرجال من على السطح وتوجهوا إلى الخارج يتحدثون دون أن تتوقف أيديهم عن الحركة صعودا ونزولا. لم تمض ساعة حتى حل الليل بظلامه يلامس كل شيء خلا ما وقع عليه نور مصباح.

كانت بجوار الدار محطة لتوليد الكهرباء بالنزئين. كانت أضواء مصابيحها تمتد إلى غرفة النوم مباشرة. يُسمع صوت محركها قريبا. نغمته

رتيبة. جعل الطفل من ذلك الصوت وذلك الضوء
صحبة له كل ليلة. يستمع إليه. يدغدغ
سمعيه. يتلاعب ضوءه بعينيهِ ويسير بهما إلى بحر
النوم العميق والأحلام اللذيذة؛ تظهر فيها أمه
وإخوته في صور بهية مجتمعين يتناولون أشهى
الطعام. يلعبون معا. يتسامرون في ألفة وحبور. أحب
السينما منذ أن حضر أول فيلم لشارلي شابلن. لم
يستطع كبح جماح رغبته في مشاهدة ما تقدمه تلك
القاعة القديمة من أفلام. كان يتسلل وزميل له كل
ليلة، يصعدان النخلة إلى السطح القريب. ثم هاهما
في الأعلى يسيران متخفيين تحت الظلام. يتسللان
عبر جدار قديم متهرئ كان يصل دار الطالب بمنزل
طبيب المدينة. تفضحهما بين فينة وحين أضواء تلك
المصابيح تكشف جسديهما المنحنيين إلى
الأمام. اجتذبتة في ذلك المنزل زريبة بها غزال
صغير وفرس ومهرة. وما يزال الجدار ينحني وينحدر
بهما حتى يبلغا أدنى نقطة عليه تستوى والطريق
العامة. يمشيان بين طرقات المدينة الخالية. يصلان
مقصدهما- دار السينما- ثم يعودان والليل في
منتصفه. ينسلان كالهاربين عبر نفس الجدار ثم
ينامان في انتظار رحلة أخرى- أحس التلاميذ في

الدار بعد ذلك الانفجار بخوف رهيب ظنه بعضهم هجوما للقوات الجزائرية.خاف الآخرون أن يسألوا عن مصدر الانفجار فيضربوا إن لم يعترفوا أو يسجنوا وما مركز الشرطة ببعيد من هناك.حضر القائد ومعه جنود وشرطة.تجمع الجميع في ساحة الدار ثم قال جملة واحدة حلت ذلك اللغز في ثوان معدودات:"إذا لم تخبرونا بما حصل،سنضطر إلى عقابكم جميعا ونقلكم الى مركز الشرطة لقضاء أيام هناك ولم لا شهورا".ومن يستطيع أن يدخل ذلك المكان آنذاك إلا من ظلم نفسه؟.لم يكن الناس يستطيعون دخوله حتى ولو لقضاء مآرب تخصصهم.فكيف سيطيب لهم المقام به وهم مذبنون؟نطق حكوم قبل أن يسأله أي أحد:"وأنا عائد إلى الدار.وجدت سلكا صرت ألعب به وأُسلي به أصابعي.إقترحت على أصدقائي أن نوقد به النار فثارت ثورته ولم أستطع إخماد ناره.قمت وألقيته بالسطح فحدث الانفجار".كان التوتر قد بلغ ذروته بين المغرب والجزائر آنذاك.وكان الناس جميعهم يستشعرون ذلك من خلال مناورات الطائرات الحربية الجزائرية التي لم تتوان في دخول الأجواء المغربية وبث الفزع في السكان

العزل.توقفت شطحات القوات الجزائرية تماما عندما وصلت مروحيات للقوات المغربية.ظلت ثلاث أو أربع مروحيات تجوب الحدود جيئة وذهابا طيلة اليوم.تمر بسماء المدينة ثم تختفي لفترة طويلة قبل أن تعود إلى نقطة انطلاقها.إستمر ذلك لسته أو سبعة أيام متتالية،لم يبذُ للطائرات الجزائرية بعدها أثر و لا عادت لها قدرة على زيارة المدينة ثانية.كان منظر تلك الطائرات رائعا وغروب الشمس.رآها تطير ببطء على الحدود شامخة يغازلها مغيب شمس كل مساء.

فجيج في ذلك التاريخ كانت تمثل جزءا يسيرا من التمدن الذي يوجد خلف جبال مدينة بوعرفة العملاقة كما تجلت له وهو صغير.صفت السلع داخل دكاكينها ترتيبيا.جميلة متنوعة.بعضها داخل علب معدنية.زيتون معلب وحمص ومربى التين والمشمش.تضيئها مصابيح لا تشبه تلك التي كان يراها في منزله ولا حتى في دار الطالب.مصابيح طويلة بيضاء ناصعة.سينما ودار للشباب و قيسارية بها ملابس للجنسين ولكل الأعمار.تتنوع مقاساتها وتختلف ألوانها،معلقة أو معروضة على

رفوف.محطتان للناقلات.فندق هناك أعلى تلة
يطل على بحر فسيح يتراى فيه النخيل كالموج
يتهادى فوق بساط أخضر من عشب وخضروات.بها
ملعب كبير لكرة القدم به مدرجات.كلها أشياء لم
يشهدها من قبل حتى في المدينة التي آوته خلال
مراحل حياته الأولى.

ليلة خوف

ينطلق المرء إلى مدينة وجدة من بوعرفة عبر ممر
بين جبلين ضخمين شاهقين أسفلهما واد جاف به
صخور ضخمة.عبره انطلقت الرحلة المدرسية
الثالثة لتيمح.لم تتوقف الخلافات في
عائلته.فمثلهم كمثل من اتفق على العيش في
خلاف مستمر جعلوه أمام الناس خفيا.يظل الواحد
منهم في نظر الآخر شخصا غامض الأطوار، و صار
هذا الآخر شيئا ثانويا مبهما على الدوام.يظهر
بعضهم فزاعة مزعجة ليس من جدوى في بقائها ؛
وهي لا تتوقف لحظة عن تعكير صفو الأسرة
وزعزة سعادتها.ومثلها في ذلك كمن يزور المدينة

مرة كل عام لمدة أسبوع أو اثنين، فتبدو هذه المدة على قصرها، شهورا، أعواما، بل قرونا طويلة لا تنقضي. تجثم على صدورهم، تخنقهم. لا تكاد عطلة الربيع أو الصيف تحلان، إلا وجد تيمح نفسه في حزن القرية. يستيقظ باكرا ليرعى شياه جدته. لم تكن الجدة تكلف نفسها عناء غسل كؤوس الشاي، بل تكفيها نفخة أو نفختين عليها من فمها، لتمسحها بعد ذلك بقطعة قماش ناعمة، ثم تقدم فيها الشاي أو الحليب للحاضرين المتأهبين للمغادرة إلى الحقول. كم كره ذلك الخلاف. أحب المرأتين معا، وكره أن ينتصر لإحداهما على الأخرى. كان لكل واحدة منهما أثر وتأثير في حياته. مثلت إحداهما الأمومة الصادقة، بينما شكلت الثانية منبع الحنان الصافي. كان يستمتع وأمه تنطق اسم جدته. ظاهريا، كانت تحترمها وتعزها؛ ربما كان ذلك صحيحا. كانت تناديهما بأمي. لكن في أعماقهما كان حقد وضغينة دفينين. لا يسرها نشوء علاقة بين أبناءها وبقية أفراد عائلة أبيهم. تخاف أن يصفوهم عنها فيعزلوها ويسهل التخلص منها. لم تأل جهدا في نصح ابنها بالحذر والانتباه. لقد عارضت ذهابه إلى المخيم، حيث البحر والرمال

الذهبية يتعانقان بلا حياء عبر السنين. كان متمرسا على العوم في سد القرية، لكن ذلك لم يشفع له في إقناعها. فعقلها كان حبيس فكرة واحدة تطاردها على الدوام، فكرة أن الأمر ليس سوى خطوة لإبعاد الطفل عنها. خطوة للتخلص منه ولو لفترة من الزمن. خطوة لإبعاد ابنها، لإبعاد ضمانتها. ربما استحق ذلك لأن جرأته كانت زائدة. في اعتقادها أنهم سوف يستريحون من معارض كبير لخططهم. أن غيابه سيمنحهم فرصة لتنفيذها. هذا ظنها الأبدي بهم. لقد عبرت عن ذلك وهي تودعه. بدا ذلك واضحا في عينيها، في دمعها وهي تتبعه إلى الشارع؛ وهي تعانقه بشدة عند عودته.

جعل مدينة فجيج خلف ظهره دون أن ينسى ذكريات أربع سنوات من الدراسة. صور لأماكن وأشخاص ومواقف صادفها و شكلت جزءا غنيا من خياله. جاب كل أحيائها وبعض بساطينها. دخل مساجدها وبحبوحتها وأكل من تمرها ونهل من العلم في مدارسها وعلى أفواه أساتذتها الأفاذاذ. كان تيمح كثير الحياء ، يستحيي ان يلبس البذلة الرياضية أمام تلاميذ فصله ، فكان كثيرا ما يتحايل على أستاذه

عثمان متذرعا بنسيان البذلة ، لكن السيد عثمان الذي كان يعلم كل شيء عن عائلة تيمح ، كان يوبخه بكلمات لم تستطع ثني التلميذ تيمح عن معاداة مادة الرياضة . كان هؤلاء الأساتذة افضاذا حقا ، كم كان الخوف ينتابه وزملائه اثناء حصة اللغة الفرنسية مع استاذة زايد ، كان هذا الأستاذ طيبا فعلا كاسمه ؛ لكن السبورة الملامى في حصته بحروف المادة التي يدرسها، كانت تمثل يوما طويلا عند هؤلاء الأطفال لا ساعة واحدة . تمتع بأيام من الضحك مع كبار منكنيتها. كان أحمد خاجا رجلا من بين من لا تغادر النكته شفاهه في الليالي الملاح، ليالي رمضان، حيث يحلو للجميع السمر. تعود به "تاشرافت" إلى ساحات السمر في قريته. لم ير المكان إلا مرة واحدة. لكن صورتها ظلت عالقة بذهنه كأرض للتلاقي بين شبان "قصر زناقة" وشيوخها، يناقشون فيها كل المواضيع، مواضيع الجد والهزل معا. حكى تيمح يقول:- بينما كنت وأحد زملاء دار الطالب نتجول بين الحقول المترامية، حيث تبدو حبات المشمش صفراء ناضجة على الأغصان تغري كل عين، رأى علي والجوع قد استبد بنا معا، رأى أن ندخل إلى الحقل المذكور ونتناول قليلا من تلك الفاكهة ، ثم ننصرف

بسلام بعد شبع.دخلنا الحقل،وبسرعة تسلقنا تلك الشجرة اللذيذة ثمرتها.لم يكد الواحد منا يضع حبة أو اثنتين داخل معدته حتى سمعنا نداء من بعيد يدنو من مكان تواجدنا شيئاً فشيئاً.تسمرنا في مكاننا وأرهفنا السمع،وهاهو الصوت يعاود النداء من جديد:"وَدِينْ؟ ،وَدِينْ؟"من هناك؟لم يتردد علي في الإجابة بعد أن أخبرني أنه سيقوم بتمويه صاحب الصوت بكلام يعتمد اللهجة المحلية ،لعله ينصرف معتقداً أن المتواجد بالحقل هو صاحبه أو أحد أبنائه.صاح علي:"أَدْتَتَشْ.أَدَايْ دْتَتَشْ"-إنه أنا.إنه أنا فقط-ظهر من قريب فلاح يحمل ساطورا وهو يقول:"عَادْ تَلِيدْ تَقَارِدِيدْ،حَاوَلْ أَدَاشْ نَعْتَعْ"-أمازلت تقولها؟انتظر سأريك_نزلنا من أعلى الشجرة وانطلقنا عَدُوا بعد أن قفزنا السور الذي كان يحيط بالبستان،صرنا نطوي تلك المسافة بين الدروب إلى دار الطالب،لايسمع إلا أنين بكائنا الذي يسبقنا دون أن ينقطع خوفاً من أن يمسك بنا الرجل. كنا نعتقد أنه ما زال يتبعنا.لم نلتفت إلى الخلف ولو مرة واحدة،ولم يدر أحدنا أيا منا كان يسبق الآخر.كان كل واحد منا يطلب النجاة لنفسه."كان نزلاء دار الطالب على ذلك التاريخ يقصدون الحقول فيجمعون ما

استطاعوا من فواكه أشجارها في غفلة من أصحابها؛ ثم ينسحبون ولم يخلفوا سوى أغصانا ثكلى. كان الجوع يدفعهم دفعا إلى البحث عن الطعام حتى ولو بتلك الطرق المرفوضة. استرسل تيمح في حسرة. "وصلنا إلى مأوانا نتصبب عرقا. كان الجوع قد بدأ ينخر قوانا. أطلقت على حقيبة تحت سريري كان قد استودعها إياي أحد أقاربي من هؤلاء الأطفال السبعة الذين توقفت مسيرة حياتهم الدراسية عند عتبة ذلك الجوع وذلك الحرمان، وهم الذين هاجروا من قريتهم طلبا للعلم. مددت يدي إلى تلك الحقيبة أفتحها مكرها. كم كانت دهشتي كبيرة حين وجدت بها سمنا وتينا جافا لم أجد بُدًا من تناولهما خلال تلك الأيام الصعبة التي غاب فيها ذلك الصبي إبراهيم تَأْتَبَلْحَسَنُ كما كان يناديه بذلك رفاقه وهو صغير. سمن وتين اكتشفت مخبأهما يدفعني الجوع كما دفع هؤلاء السبعة إلى العودة مكرهين إلى قريتهم ولم ينالوا من العلم شيئا. لكن ذات الجوع لم ينل من عزيمتي، ولم يثنني عن متابعة دراستي وسط تلك الظروف القاسية التي كانت تدفع نزلاء الدار إلى فعل أي شيء ليتغلبوا على ما تعانیه بطونهم من فراغ فيها-". كانت فجيح

جزءاً من حياته. تعلم خلاله معنى العيش مع الجماعة ومعنى الوطنية ومعنى جار السوء.

لم ير تيمح وجدة إلا مرة واحدة وهو في طريقه إلى المخيم. مر بها مساء آنذاك. أما اليوم فقد وصل إليها مع عمه وبعض أصدقائه من رفقاء الدرس. أقاموا في فندق بالمدينة القديمة، فندق تمسمان. كان مظلماً جداً آنذاك لقلة النوافذ فيه. قبالة اصطفت دكاكين الحلاقين في نظام بديع. تظهر المرايا داخلها كبيرة صافية بأشكال مختلفة. انبهر تيمح مما رأى، وانتابه شعور بأنه دخل دنيا غير التي عاشها من قبل. نام الجميع يومها باكراً. في الصباح التالي، انطلق صوب الثانوية، ثانوية "عبد المؤمن". غادر عمه وبقي هو مع صحابه ليواجه الواقع الجديد. مساء اليوم التالي لوصوله إلى وجدة، صار و صديقه إلى السينما. لقد سبق لهذا أن زار المدينة عدة مرات قبل هذا اليوم. إنه يعرف عنها كل ما شذ وفذ. أول ما أثار انتباه الطفل وهو في الطريق إليها، هو منارة مبنى البلدية والأضواء التي كانت تزينها و تزين المحلات التجارية على اتساعها. أنوار تضيء وتنطفئ تلقائياً. لم يستطع أن

يطأطئ رأسه من كثرة المظاهر الخلابة في الأعلى
تعجبا. كانت عيناه تشخصان لاستكشاف كل شيء
جديد. أصابته دهشة مما رأى وجذبتة الحركة غير
المنقطعة للأفراد والسيارات على الشارع. أضواء
تنظم المرور، ممرات للراجلين. فنادق ومقاهي
وملاهي ليلية وقاعات لألعاب الفيديو. مطاعم
كبيرة وأبنك. رأى السياح يمشون قريبا منه. سمع
كلامهم واندهش أكثر من اختلاف ألسنهم ولون
بشراتهم وطرق لبسهم. كان ذلك شيئا رائعا. كانوا
من جنسيات مختلفة. هؤلاء لم يسبق أن رآهم إلا في
أفلام السينما. رأى محطة الناقلات، وأعجب بنافورة
تشكل استدارتها ملتقى للطرق يؤدي إلى سوق
كبيرة للخضر ومنها إلى ساحة سيدي عبد الوهاب
حيث عشرات الحافلات تنقل الناس إلى مختلف
الجهات بالمدينة. رأى مقر حزب الإستقلال لأول مرة
فتذكر أستاذ التاريخ في فجيج. كل ذلك شغل باله
وهو متوجه إلى السينما، سينما المعراج. بناية
شاهقة تزين واجهتها أضواء ملونة. على جدارها
الأمامي ملصق عليه صورة تحمل عنوانا لفيلم
إيطالي كان بطله يومها "طوماس مليون". قاعة
الإستقبال فيها كانت مختلفة جدا عما هي عليه في

فجيج.إحتوت قاعة العرض طابقين:أرضي وعلوي مزودان بكراسي حمراء تُطوى.أمامها شاشة كبيرة تأخذ جزءا كبيرا من جدارها.عكس ما ألفه في قاعة السينما بفجيج،هنا ،رافقته إلى مقعده مضيئة يتدلى شعر ناعم على كتفيها،على عينيها نظارتان سوداوان.لطيف حديثها.تضع وزرة بيضاء وببيدها مصباح يدوي.اقتطعت ورقة من دفتر صغير عجيب وسلمته قطعة منه.لم يعهد مثل هذه الأشياء في فجيج.كان ذلك يمثل تطورا بالنسبة له وقفزة إلى الأمام في حياته.

تغيرت نظرتة للحياة بعد أن تتلمذ على يد أستاذ أمريكي أو بريطاني.رآه مختلفا عن أساتذته السابقين،عن"سي الطيب و سي العربي"في القرية.لكنه لم ير جدا و لا حزما أكثر مما رآه لدى أستاذه في الإنجليزية"المستر السعيدي"،الذي لم تختلف نبرة صوته عن ذلك الأمريكي،لمسه أيضا لدى أستاذه في الفرنسية وكان يدعى"موسيو كال".كان أنيقا،طويل القامة،جميلا.يدرس مادته بعناية لا تضاهى،على عكس الأمريكي أو البريطاني الميستر"مونتكموري"،الذي قل اهتمامه

بهندامه، ذي شعر طويل يتدلى على أذنيه وجبهته ملتويا كأنه أدغال السفانا. كان رجلا متقدما في السن نوعا ما. ظهر عليه نفور من التدريس. لم يكن يقدم للصف ما يحتاجه في هذه المادة التي كانت حيوية. كان كثير التغيب.

كل ما استعان به تيمح في تدير حياته هناك، كان ما ترسله أمه من دراهم معدودات، أو أحيانا من طعام مع أحدهم؛ أو ما كان يقدم لهم في الداخلية التي كانت تؤويهم. كانت المدينة ببنائاتها وحناتها وشوارعها شيئا مختلفا. وكذلك كان تلامذتها. كان يتابع الإحتجاجات التي عمت كل المؤسسات التعليمية بالمدينة عام تسع وسبعين و تسعمائة وألف. لأول مرة رأى بأم عينيه مطاردات الشرطة للمحتجين. يومها عمت الفوضى المدينة وانتشر التلاميذ والطلبة في كل مكان يملؤون الشوارع والأحياء. يعلو هتافهم وصفيرهم. انتشرت قوات الأمن تأخذ مواقعها على زوايا الطرقات والشوارع وداخل الأحياء. رأى ذلك مدهشا. كان ذلك جديدا عليه تماما. في ذات يوم من أيام تلك المظاهر الإجتماعية التي لم يألها من قبل، طلب

المسؤولون الأمنيون من التلاميذ الداخليين المغادرة إلى المدن التي ينحدرون منها كخطوة أولى للقضاء على الشغب الذي كان تواجد هؤلاء يؤججه. لم يتمكن كثير من الطلبة من حجز مكان بالناقلة المتجهة إلى فجيج عبر بوعرفة، فسمح لهم السيد عمر بالمبيت ليلتها بالداخلية. طلب منهم السيد عمر اللجوء إلى الغرف العلوية من المبنى. أمرهم "بقطع النفس" أي عدم إصدار أي صوت " ريثما يتمكن من صرف هؤلاء الجنود. على الساعة السابعة من ذلك المساء من أبريل، دخلت قوات الشرطة إلى الثانوية تبحث عن من يمثل لأمر الإخلاء. فاوضحهم السيد عمر بطريقته الخاصة حتى اقتنعوا بروايته وانصرفوا. كان الشباب في الأعلى يرتعدون فرقا وسط الظلام. كانت الدقائق تمضي بطيئة مميتة وهم هناك. خافوا أن يسجنوا أو يصيب الضرب رؤوسهم أو أطرافهم. كان بعضهم يُسمع الحاضرين حكايات عن الحياة داخل السجن، عن شرطي ضرب تلميذا كان يدرس في الثانوي وكان هاربا أثناء مطاردة في الشارع. زعموا أنه لم يكتشف أنه قريبه إلا بعد سقوطه. صدم الرجل بذلك وأسرع به إلى المستشفى المركزي

قبل فوات الأوان. كانت إصابته بليغة جدا. روى ذلك من شهدوا الواقعة وحكوا مشاهد أخرى وسط ذلك الظلام والصمت الرهيبين. ربما كان ذلك من وحي اللحظة وما اكتنفهم فيها من هلع. قد يكون ذلك فقط خيالا أو أفكارا ينسجونها بسبب طبيعة العلاقة المتوترة بينهم وبين الأمنيين. كانت الحكايات تسرد على مسامعه فترفع من نسبة تدفق الأدرينالين في جسمه رعبا وخوفا. انتظروا داخل غرفة طويلة انصراف رجال الأمن. وقفت فيها الأسيرة شاهدة على حزنهم، على خوفهم، على صمتهم. همسوا لبعضهم البعض كلمات ترددت كثيرا في الخروج من حناجرهم. دخل عليهم السيد عمر وطمأنهم، ثم أتاهم بوجبة لا يدرون آسراها أم كانت من بقايا الطعام بمطبخ الداخلية. في الغد، غادر الثانوية عبر فتحة في شباك معدني كان يحيط بها ويدعم ارتفاع سورها. صار يمضي معظم أوقات المساء في السينما. سينما النصر؛ حيث يستمر الفيلم الهندي لأكثر من ثلاث ساعات، وهي فترة كافية للإبتعاد عن الشغب في الشوارع وللإختباء من الوقوع في يد الشرطة. ظهر أشخاص ينظمون دخول الناس إليها في شكل طوابير طويلة غالبا ما تتوقف بسببها

حركة المرور في الشارع القريب. كان هؤلاء يحملون سياطا. كانوا راشدين وشبانا قبيحي الوجوه، رثة ثيابهم. تعلو وجوه بعضهم آثار جراح من سكاكين حادة. بينهم سكارى وحشاشون وشمامون. صاروا يضربون من في الطابور ضربا مبرحا بلا هوادة ولا تمييز. يسبون ويشتمون بألوان وأجناس من الكلمات البذيئة. يندفع الطابور على أثر ذلك هاربا في كل اتجاه. يمتلئ الشارع أكثر بهم وبالمارة. ترتفع أصوات منبهات السيارات وصراخ السائقين وقد بدت رؤوسهم من خلال نوافذ عرباتهم. يُسمع صوت أحدهم هنا أو آخر هناك داخل الصف الطويل يصبح متألما بعد أن تخترق شفرات الحلاقة الحادة لحم فخده فتدميه بغزارة. شفرات استعملوها لتمزيق جيوب الواقفين في الطابور فيسرقوا ما بها من مال ولو كان قليلا. يمسك أحدهم بالسارق فيصرخ: "شفار. شفار". يهب الجميع إليه فيشبعونه ضربا. يئن بشدة، يعتذر، حتى إذا أفلتوه، انصرف جريا يسب الجميع مبتعدا. في المساء، كان تيمح يذهب تحت جناح الظلام إلى بيت أحد أقربائه ليمضي الليل في أمان. في بوعرفة حكى لأمه وإخوانه ما جرى. ظلت أمه تستمع مندهشة

مستغربة لا تتوقف عن سؤاله. كانت تسأل عن كل شيء والدمع يزور خديها بين الفينة والأخرى، يتملكها العجب من غرابة ما سمعت.

كانت قريته "إيش" تشكل بالنسبة له فضاء فريدا لا يمكن نسيانه. كانت بها جدته. عشق كل شيء فيها. ماءها ومرعاها. أجرافها والجبال. عاشت جدته بين ثنايا جبالها وواديها. تزور أضرحة تؤمن ببركاتها. تستمد منها الشفاء عند مرضها أو العون عند عوزها. سيدي بوعزة وسيدي ابراهيم، كانا ضريحين لولييين من أولياء الله كما يؤمن بذلك أهل القرية. لا يصاب أحد بسوء إلا قصدهما. كان تيمح يمضي أيام العطلة متفرجا على ذلك الهلال المعدني أعلى قبة ضريح الولي سيدي بوعزة. إلى الأتواب الملونة التي تناثرت داخله حول القبر.



إلى الشموع و علاقتها بالضريح. لماذا تظل مشتعلة طول الوقت؟ ما علاقة تربة القبر بالحظ والشفاء؟ ما الذي يدفع الإنسان إلى نثر تراب قبر على جسمه وهو يخاف الموت ويخاف الميت؟ ما الذي يربط حصول "البركة" كما يسميها أهل البلدة بزيارة الأضرحة؟ كان الفكر الإسلامي والفلسفة مادتين تدرسان بقسم البكالوريا آنذاك. بات معجبا بهما كل الإعجاب. ارتبطت هاتان الشخصيتان في وجدانه بصور شخصيات "عبد القادر الجيلاني وابن عربي والحلاج" في خلوتهم أعلى جبل هناك في العراق أو الحجاز. تذكره تلك الأضرحة بمعالم مدن بخارى والكوفة و نينوى. ببيت الحكمة عند العباسيين. يتأمل كيف أن الناس ينطلقون في رحلة البحث عن الحظ والشفاء عند قبر رجل ميت ما من حول له وما من قوة. كيف أنه بعد العصر، يصعدون تلة وعرة إلى ذلك الضريح، نساء ورجالا وأطفالا ينهكون أنفسهم، يتعبونها وهم في رحلة البحث عن الراحة؟ كيف يقطعون أميالا لزيارة ذلك الضريح البعيد هناك على مقربة من الحدود

جماعات، يحملون قربانا يثقل كاهلهم، يتعبهم عبر كل تلك المسافة ليقدموه بين يدي "ولي" قد لا يحتوي ذلك الرسمُ جسده مطلقا. كيف يمرون إلى ضريح آخر عبر جرع نخلة تقعر وسطه، إذا أخطؤوا المسير على ظهره سقطوا و تأذوا أو ربما ماتوا وهم في رحلة البحث عن الحياة؟



ما الذي كان يحكم عقولهم آنذاك ليفعلوا كل هذا عن طواعية؟ ويتساءل: لماذا كانت أبدان الناس تشفى وتصيب نفوسهم راحة وينالون قسطا من الحظ والرزق بعد كل زيارة؟ كان يعود إلى بيت جدته

وفي نفسه رغبة في أن يسألها.أحجم عن سؤالها مخافة أن تغضب بشدة.فلا مجال أبدا للمساس بهؤلاء الأموات أو بأضرحتهم.كافرمن يريدهم بسوء حسب اعتقادها.كانت المواضيع المدرسة في مادة الفكر الاسلامي آنذاك حافزا على تأمل هذه الظواهر.على تحليلها،على استنباط أفضل النتائج استشرافا لمستقبل الفكر الانساني الذي تتحكم به هذه الظواهر بشكل ملفت.دخل في مناقشات حولها مع كثيرين من زملاء دراسته بالثانوية،وأحيانا مع أستاذه وحتى مع بعض كبار رجال قريته الذين يهتمهم أمر تلك الأضرحة،كانت مناقشات حادة صعبة معهم؛ لم تستطع النيل ولو بقليل مما تخزن عقولهم من معتقدات رسخها الجهل وانغلاق المكان عليهم....

في ذلك الخضم من الأحداث،رسب في الثانوية العامة لضعف عاناه في مادة الرياضيات.أمضى عاما يعمل كمساعد بناء أذاقه الأمرين.كان عنيدا قاسي الطباع.تكالبت على الشاب صروف الحياة سنتها.تعرض لكل أشكال الإهانة.ظهر ذلك واضحا حين دفعه أبوه ذات جمعة إلى إعداد علف لبقرة

اشتراها. لم يكن لتيمح سابق معرفة بهذه الأمور. وهاهو يتعرض لسخرية أبيه. يتوعده ويحط من شأنه. رأى ابنه ضعيفا؛ وأضحى الرسوب مبررا قويا ليتصرف معه كذلك. لم يرضه حتما ما آلت إليه حال ابنه. ربما فعل ذلك ليشحذ عزيمته وقوة الإرادة فيه. كان يعلمه ويدربه حسب رأيه. لم تكن هناك جدته فتقيه تلك الإهانة. كانت الدمعات تنهمر حارقة على خده المنهك. نظرت إليه أمه في شفقة. ربما أبكاها ذلك الموقف. لكن ما عساها تفعل؟ كان البناء يتعبه كثيرا بأوامر لاتنتهي. بلا شفقة ولا رحمة، كان يطلب منه القيام بكل شيء وفي آن واحد. يحمل على صدره طوبا ثقيلًا يؤلمه. لم يرحم البناء جسمه الصغير مقابل دراهم معدودات في كل أسبوع. وحصل تيمح على الثانوية العامة بعد عام من ذلك العناء وتلك المعاناة، ودخل الجامعة. كانت الدراسات العليا في مادة الإنجليزية مطمحا تكسر مبكرا على صخرة موقف أبيه الذي عاكس رغبته. أوقف مسيرة دراسته فدخل على أثرها سلك التعليم، ليجد نفسه في إحدى القرى الجبلية وحيدا في منزل متهرئ بعيدا هناك وسط حقول منعزلة وصلها وحلول المساء...

في الجبل

في يوم الخميس الموافق للخامس عشر من شهرشتمبر من العام ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف، أخذ الطريق إلى مقر عمله الجديد، إلى منطقة وعرة في أعالي الجبال. وصل إلى قرية مَسْتَكْمَر في الصباح الباكر عبر طريق معبدة مداها اثنا عشر كيلومترا من الطريق الرئيسية إلى مدينة تاويريت، ومنها استقل ناقلة إلى أرض يطلق عليها أهلها تَانَشَرَفِي. هناك حيث تقام سوق القرية الأسبوعية التي تجتمع بها قبائل بربرية من قرى متفرقة في الجبال القريبة "تِماسيوين، أَعْيَاظ، دَادَّ غُلي وذرِيَوْش". سلع وخضر ومواشي تباع وتشتري. كانت الحياة في السوق نشطة طبيعية بسيطة كناسها البسطاء. صراخ للباعة يسمع من كل ناحية. حركة دائبة للمتسوقين ولدوابهم. ما زالوا يفدون من كل حدب، تحمل البعض منهم دوابهم. على مقربة من هناك، استقرت وكالة بريدية قديمة تحتوي مكتبا لموظف طويل القامة، مشرق

الوجه دائم الإبتسامة.أدوات المكتب بالية،وخاصة منها جهاز الهاتف.كانت الوكالة مملوءة ناسا في انتظار مكالمة قد لا يصل الدور لإجرائها إلا بعد ساعات طويلة.مقابل الوكالة،في الجانب البعيد من السوق،تواجد مستودع كبير لحمير لا ينقطع نهيقها،يركل بعضها بعضا وسط الزحمة.غير بعيد،تقدم المعلم من أحدهم يسأله عن أهل القرية التي سيعمل بها،عن الطريق التي سيسلكها إليها،عن وسيلة ينقل بها متاعه.كلما مر بأحدهم سائلا،تنكر له ولسؤاله وانصرف.لم يسترع انتباهه من بين الكثير ممن سألهم الضامن سوى واحد حين خاطبه قائلا"فليحمل متاعه على ظهره أو ليئمت".إلتفت الضامن إلى المعلم بسرعة سائلا:"أتعرف الأمازيغية؟"كان جواب المعلم سريعا كالبرق:"لا".أحس والحال كذلك أنه أصبح على موعد مع اختبار آخر لنوعية أخرى من الناس غير أمه وجدته.متظاهرا بعدم الإنتباه،كتم غيظه و تابع سيره وقد فهم أن هؤلاء لا يريدون مساعدته؛وأنه دخل عالما معقدا يتصارع فيه الزمان مع تلك الطبيعة ومع من يعيش على ظهرها من إنسان.عالم يحتل فيه تناقض الأفكار

والطباع والرغبات مساحات واسعة في عقله وعقول هؤلاء. فهم أكثر من ذلك أن عليه أن يتدبر أمره اعتمادا على نفسه. يجب أن يختبر فطنته وقدرته على تلقي الصدمات وامتناصها. كان عليه أن يتلقى الدروس عن هذه الحياة الجديدة في تلك المرتفعات. تكونت لديه في الحين فكرة عن صعوبة ما ينتظره. ساورته ريبة في إمكانية العيش مع هؤلاء. إنته وبين يديه كيس ممتلئة ثقيلة؛ بها قينة غاز وإبريق وكأس من زجاج وصحن وطنجرة للطبخ وفراشه وكتب جلبها لتعينه على قهر الوحدة التي تفرضها ظروف العمل في تلك الأماكن النائية. وهو وسط هؤلاء الذين لا يعرفهم ولا يعرفونه، كان ينظر إلى ذلك الجبل البعيد هناك بخشية. بدا أفقا بعيدا من الزمان والمكان والإنسان غامضة ملامحه. أخذ مرافقه داخل السوق يحدثه عن المسافة التي سيقطعها مشيا على الأقدام، عن المنعرجات الوعرة، عن ارتفاع الطريق وخطورتها. لم تكن لديه وسيلة للإتصال بأمه غير جهاز الهاتف القديم في الوكالة البريدية. إتصل ذلك اليوم وأخبرها أنه بخير وأنه وصل القرية. كانت تدرك أنه لم يكن على أحسن حال. حان موعد تفرق السوق. آن

الأوان ليعود الجميع إلى قراهم محملين بما اقتنوا من مواد غذائية وكسوة لأسرهم وعلف لماشييتهم.رتب أغراضه واستعد للرحيل.سيصعد ذلك الجبل،جبل بو خوالي المخيف.بدا أمامه مرتفعا جدا،مرعبا باسمه الموحى بالخلاء.غامضا غموض الأيام القادمة في حياته.بدا شرسا جبارا واجما عنيدا.ركب المعلم والقرويون شاحنة صغيرة مكشوفة من نوع "بيكاب" وعلى ظهرها نفر كثير مع أمتعتهم.سيصعدون في طريق ملتوية جبلا شاهقا سيبدأ فيه المعلم رحلة اختبار الصبر والتجلد والتحمل.سارت الشاحنة تطوي الطريق طيا وخلفها غبار لتربة جافة تتقاذفها العجلات قُدما.لقد ظهرت آثار الجفاف واضحة على كل شيء هناك.وقف وسط الشاحنة خلق كثير من هؤلاء وماشييتهم.صعدوا الجبل يزعج هدير المحرك مسامعهم ،و تملأ عيونهم حبات التراب المتطايرة.تعبت الشاحنة من شدة الإرتفاع.يُسمع لمحركها سعال.نظر إلى هؤلاء من خلال ذلك الغبار الكثيف يحاول تبين صورهم،لكن لون التراب كان يغشي وجوههم و عماماتهم وشعرهم وكأن بركانا ضرب المكان فجأة.ربما تحدث إليه أحدهم لبرهة.لم

يعر لذلك أهمية بل ظل صامتا متسمرًا في مكانه ينتظر ما ستؤول إليه الأمور في آخر ذلك السفر الغريب. أحس بالهواء يخنقه. مضت الطريق طويلة بين أشجار مترامية هنا وهناك أسفل المرتفع. منحدرات تصيب الناظر إليها بالدوار. مخيفة، عميقة تتوعد. وصخور انزلقت فاتكأت على سفحه واتخذت لنفسها عليه سريرا. عند وصوله إلى قرية "أعياط" على ذلك العلو، وجدها أرضا مستوية ووجد أشجار الأرز فيها كثيفة لطيفة الظلال تمتد عبر الجبل صعودا. ما أحس بشدو للطيور عليها. كانت حزينة يومها لحزنه. رأى هناك ساقية ماء جارية. توقفت العربة و انتهت رحلتها ذلك اليوم عند هذا المكان. لقد آن أوان السير على الأقدام. وقف حائرا ينخر الهم دواخله. قلب عينيه في كل ناحية من المكان يبحث عن وسيلة لنقل متاعه. ما زال على تلك الحال حتى فطن أحد القرويين لما يشغل باله فوضع متاعه على راحلته وهمس بكلمات وقد رسم على فمه ابتسامة دافئة انطلقوا بعدها في سفر لا يعرف متى ينتهي ولا أين؟ ظل اليماني يكلمه طول الطريق والقافلة من الحمير والبغال تسبقهم

مترنحة تائهة تجد لحوافرها نقعا.لقد بدت منهكة.أضنتها الشمس بحرها،و أجهدها الإرتفاع.صار اليماني يتحدث عن كل شيء:عن الجفاف الذي يضرب القرية،عن ماء العين الذي نضب،عن صعوبة الحياة هناك في بلدته التي سيحج إليها المعلم بعد قليل.مازالوا يسيرون والغبار يلطم وجوههم بين فترة وأخرى، وشمس ذاك المساء تنزل ثقيلة على رؤوسهم.لم يكلم مرافقه إلا إيماء برأسه.كان متعبا جدا.مالت الشمس كثيرا ووقت الأصيل.ترأت لهم بعض ملامح القرية من بعيد.جبال عالية كثيف شجرها،تطل على واد جاف انتصبت على أطرافه مبان متفرقة من الطين والحجر.خيام منصوبة أصاب الكثير من خيوطها التلف،مَن ينظرُ إليها تعدُّ به إلى غابر عصور التاريخ.ظهرت كلاب مربوطة أمام الدُّور لا تتوقف عن النباح و دنو القافلة منها.دجاجات تسرحن بعيدا،يطارد بعضها بعضا تنتف ريشها.نساء احتشدن بالقرب من إحدى الدور واقفات يتبادلن أطراف الحديث، وشجرة استقرت وحيدة وسط الوادي.عليها أقمشة بالية بمثابة ضريح الولي الوحيد في هذه القرية.لم يسأل أحدا عن اسمه

طيلة فترة اقامته هناك ولم يسمع أحدا يذكره لا بخير ولا بسوء أبدا. بالانخفاض أكثر نحو وسط القرية، صادف صهريج ماء بناه الأهالي بالإسمنت. هاهو وسط الأشجار ينتظر أن تذر عليه العين من مائها قطرات تصله عبر قناة تنحدر من نبع لا يكاد يروي حتى عطشه. صهريج لن يعرف الملء أبدا. أخذت أرضيته لون طحالب ترحب روائحها بالمارين من بعيد. على جانبه الأيسر في قدم المرتفع، مبان أخرى وخيام أخذت لنفسها على صخوره قرارا. وعن يمينه جامع صغير أعلى تلة تطل على النبع يقف الجامع فوقها يحرس القرية و من في المقبرة خلفه، يمدهم بالرحمات عند كل صلاة. نحو الأمام نزولا، تنتشر بساتين تتراعى يمينا ويسرة. حقول ذات أحواض زانها قليل من خضروات تتألم من شح الماء في الأرض ومن السماء. دخل المعلم ساحة مدرسة القرية أخيرا يجر أمتعته. انتظر لفترة قبل أن يأتي ضامن القرية بمفتاح الحجره الوحيدة التي تمثل المدرسة آنذاك. كان ذلك الوقت كافيا ليتجمع الأهالي حوله. يرمقونه في إعجاب. يهمس بعضهم لبعض كلمات ترافقها نظرات ازدراء. كان المفتاح ضخما ذا أسنان ما كادت

تدخل القفل حتى فتح الباب على سبورة قديمة
متهترئة ومقاعد خشبية تعود إلى الفترة
الاستعمارية.حجرة واسعة ذات نوافذ بعضها يطل
على بساتين القرية القريبة غربا والأخرى على
ساحة المدرسة.سقفها من قرميد أكل عليه الدهر
بشمسه وتقلبات طقوسه وشرب.وألواح تآكلت
بفعل التقادم.بجانبها سكن من غرفتين ومطبخ قد
هاجمت الثقوب سقفه وهشمت الرياح ألواح
الأبواب والنوافذ فيه.يقابله سكن آخر بنفس
مقاسات الأول،لكنه كان أكثر تضررا من سابقه.وبين
كل هذا وذاك مساحة أرض بمثابة ساحة
للمدرسة.تجمع الأهالي أمام المعلم و انهالت عليه
أسئلتهم واستفساراتهم كسيل العرم.



كان ذلك أول عهد لهم بمعلم يقيم في مدرسة
قريتهم طويلا. سألوه عن كل شيء. عن اسمه، عن
اللغة التي يتحدثها، عن مكان سكناه، عن كل
شيء. وقف يضع إحدى رجليه على كرسي خلف
المكتب. جاءه رجل من الجمع وخاطبه: "أنت تفهم
لهجتنا. أنت تفهم اللهجة البربرية. كل المغاربة
يفهمونها. لا تقنعني بعكس ذلك". قالها وغادر، وقد
وعده بلقائه في قادم الأيام. سمع المعلم كلمات
لم تكن لتعجبه مساء ذلك اليوم الطويل
الشديد. سخر الحاضرون من كل شيء فيه. من
لباسه، من كلامه، من جسمه المنهك بالسفر ومن
شعره الذي أضفى عليه الغبار لمسة أخرى فبدا

أشقر اللون أشعث.رافق الحاضرين إلى بيت أحد كبار القرية،بيت "أعراب" هناك،جلس وسط ثلة من الشيوخ ذوي اللحى البيضاء.أدرك المعلم التعب وأصبح غير مستعد لأي حديث.جلس خداه رجل يدعونه الميلود،كُلف ساعتها بإعداد الشاي لتلك المناسبة الكبيرة ذلك اليوم،مناسبة حضور معلم القرية.جلس بينهم نحيف الجسم لا يشغل من مكان جلوسه سوى ستمترات قليلة.كان بعض تلاميذ القرية يسترقون النظر إليه من خلال باب الغرفة.بدأت الأسئلة مرة أخرى تتوارد على مسامعه كثيرة متنوعة سريعة لا ترحم.سألوه عن مسقط رأسه والقبيلة التي ينتمي إليها وعن عمل أبيه وعدد إخوته،وعن أثر الجفاف على الناس في منطقتهم؛سألوه إن كان متزوجا أيضا.بدا ذلك بالنسبة لهم أمرا ضروريا.وسألوه عن عدد زوجات أبيه أيضا.كان مُعد الشاي يقدم له الكأس تلو الأخرى ساخنة تكوي الشفاه و تحرق اللسان.وما يزال هؤلاء يسألون ويسألون،والمعلم يجيب هذا ويتجاهل سؤال ذاك ، ويذا الميلود لا تكفان عن تقديم الشاي حتى أصيب الزائر الجديد بالدوار وكاد يغمى عليه.طلب الإذن في الانصراف فانصرف.كان

عليه استكمال إعداد إجراءات الدخول
المدرسي.بدأت رحلة العذاب والوحدة في تلك
القرية بعيدا عن أمه التي كانت تواجه ظروفها
صعبة مع المرض.سيعيش بلا أنيس في عالم تلك
البلدة الصغيرة.عند المساء،وبعد أن ينصرف
الأطفال إلى بيوتهم،سيجلس وحيدا على عتبة باب
حجرة الدرس. ينظر إلى الشمس تترك حقول البلدة
على مهل وتسلمها وحيدة يملكها الظلام.نظر إلى
الأشجار فرآها حزينة تتأمل في دهشة ذلك
المخلوق الدخيل عليها وعلى المكان.لقد رقت
لحاله كثيرا.هبت نسمة باردة اقشعر لها بدنه.ما زال
يستمع إلى صوت مذياع صغير كان يرافق وحدته
ويواسي حزنه ، يتحسس من خلاله أحوال الطقس
وبعض الأخبار.بدا له من بعيد قبس من نار داخل
خيمة هناك على قدم الجبل البعيد.ومن تلك
الثنايا،ينبعث صوت نباح يتيم يخترق المساء ويمزق
سكونه.بعدها يلف الليل المكان.حينها،يحمل
أغراضه ويدخل غرفته مهزوما منكسرا يطرده
الظلام.على زوايا الغرفة التي ينام فيها،أوقد أربع
شمعات تمد الغرفة ببعض من ضوء.على الجانب
الأيمن من وسادته،يقبع المذياع رفيق الوحدة في

تلك الليالي الحالكات يحدثه بلا ملل.وعلى يسارها،اتكأت كتب باللغتين الفرنسية والإنجليزية مصطفىة منتظرة دورها في عرض ما يحتويه جوفها من حكايات لطيفة أو مغامرات مثيرة.كان العدس والحساء رفقاء المعدة جلساء الأمعاء ،أهم ما يعد به وجبات طعامه ليل نهار.لم يكن الخبز متوفرا إلا ما يجود به الأهالي و يحمله إليه أبنائهم.في الصباح الموالي لوصوله إلى المكان- حيث لم ينتظر طلوع شمس الخريف طويلا-هاهم الأطفال العشرة يصلون تباعا.يطلون من هناك من خلف التلال القريبة.تمتد ظلالهم كأشباح عبر الأشجار طويلة مع خيوط الشمس الفاترة.يقتربون شيئا فشيئا وقد أتوا من كل صوب.فتح المعلم الجديد المذيع يتصفح أخبار إذاعة "ميدي1"الدولية،كم كانت شيقة في ذلك التاريخ.اعتمد عليها آنذاك اعتمادا في معرفة أحوال الطقس،وطقس الجبل هناك عنيف.تساقطت حبات البيض بين يديه كقطع من بَرْد في يوم عاصف؛تمدها أياد ناعمة صغيرة جعل الشروق من نسيم براءتها له نفسا.وقنينات صغيرة من زيت الزيتون الخالص،وأرغفة من صنع أياد عاملة

كريمة.أخرج المقلى على عجل يبتغي
الطور.وضع بضع بيضات على زيت يهتز على
إيقاع حرارة تلك الآنية، ثم نادى على الأطفال
يدعوهم لمشاركته تلك الوجبة الدسمة.ربما أحس
هؤلاء الأطفال بالرغبة في تقاسمه ذلك
الطبق.لكن حياءهم منعهم،بل أغناهم عن ذلك
فقط فرحهم باليوم الأول مع المدرسة ومع المعلم
الجديد.قام بتصفية ما احتوته تلك الآنية، ثم قام
ينظفها وينظف يديه،وهم يعانق الفصل سعيدا
بالصباح منتشيا.بفرح شرع والتلاميذ يرتبون
المقاعد و يزينون حجرة الدرس ،يكنسون الارضية
ويعلقون الصور على الجدران.لم يمر عليه يوم
أجمل من ذلك الذي بدأ فيه عمله لأول مرة.أثناء
انشغاله ،دخل عليه رجل من أهل القرية دون
استئذان و عليه أثر تعب وإعياء.يلق بحذائه بعض
من تراب الحقول،إنه اليماني،جاء يدعوه إلى فنجان
شاي بمنزله.اعتذر المعلم بدافع مزاولته لعمله،لكن
إصرار الرجل في دعوته لا يقاوم.فهناك،لا سبيل
لرفض الدعوة ولا حتى للاعتذار عنها.إنه يعني
احتقارا لصاحبها،ويعني التنقيص من قدر أسرته ،
بل يعّده أكثر من ذلك كِبْرًا.أبلغه المعلم بقبول ما

دعاه إليه، فانطلق مسرورا إلى مسكنه. رآه من خلال تلك النافذة يسير بخطى سريعة جدا. عليه أن يصل مبكرا ويخبر أهل بيته تماما كما فعل ذلك الطفل حين حمل رسالة أبيه للمعلم لخمس عشرة سنة خلت. أمسك بطرف من عباءته وصار يمخر عباب تلك الممرات الضيقة بين الحقول يكاد يتعثر. وكيف لا؟ وهو الذي سيشرب الشاي مع المعلم. وكيف لا؟ وهو من سيكتب له التاريخ السابق في استضافة المعلم إلى بيته في بلده. لا شيء يضاهاه فخره اليوم وسعادته. "سوف تحل البركة ببיתי وعلى أهلي وأبنائي وغلتي" قال ذلك وقد غادر المكان. كان يمشي مشيرا إلى كل من يقابله في الطريق يخبرهم أنه في عجلة من أمره. لا وقت لديه لأحد فيستوقفه. عند الظهر، كان المعلم على موعد مع قصعة من لحم عنزة ومرق وخبز لا يزال رماد الفرن يتمسك ببعض حوافه. جلس الرجل وزوجته قبالة، وبين الفريقين طبق من نبات الخلفاء يتحلق الخبز حول جوانبه. ما زالت زوجة اليماني تنظر إلى الشاب مرددة "كل يا بني كُل، لا تستح مني، فأنا في مقام أمك" وما زالت تطلب منه أن يمد يده إلى الطعام بلهجتها حتى يادرها الزوج

قائلا: "دعيه، إنه لا يفهم ما تقولين" صارت تخزه على ركبتيه بأصبعها ربما ليدفع المعلم إلى المزيد من الأكل. فهم المعلم كل ما قالت و هو يمد يده بطيئة إلى الطبق. كانت عيناها تقعان عليه مباشرة وهما لا تملان النظر إليه. لقد لاحظت المرأة إحجامه عن الأكل فانصرفت وابتعدت إلى داخل الدار تحمل القصعة بين يديها بما حملت. وضعت اللحم الناضج في قطعة ثوب بيضاء نظيفة، ثم جعلته بين يديه وهي تودعه عند مدخل الخيمة. ودع مضيفيه شاكرا كرمهما وانحدر عبر الجبل يمشي على مهل مخافة الانزلاق. في المساء، جلس في تلك الغرفة المنعزلة يسترجع أحداث ذلك اليوم ويتأمل كرم هؤلاء البسطاء.

رجل ك'جان قال جان'

أشرق صباح ذلك الأحد بنور شمس ربيعية أخاذة. إستيقظ فيه على وقع أغرودة طائر نزل على أرضية حوش ذلك المنزل القديم. بعد إتمام الطقوس الصباحية المعتادة، كان له موعد مع الجبل. لقد خطر بباله يومها أن يقضي النهار متجولا

بين أشجاره، ليكتشف ألقانه وأغانيه. ليقترّب أكثر من خطر بعض حيواناته. ليخبر أسراره وألغازه. كان يعيش الوحدة في تلك البقاع شبه الخالية. فالناس منشغلون بأعمال الحقل. ولا مؤنس له غير مذياعه الصغير. يتملكه الملل ويفسد عليه عيشه هناك. رأى بعض الرعاة يبتعدون. يصعدون الجبل إلى أعلى نقطة فيه. يتعمقون لعلمهم يظفرون بقليل من كلاب تتوق إليه ماشيتهم. قبل ذلك اليوم، كثيرا ما رأى هؤلاء الشبان يفدون إلى ساحة المدرسة بعيد كل ظهيرة يلعبون لعبة العصا والجورب "تشورت"، تماما كما دأب شبان قريته يفعلون خلف الباب "نُورَاز". ينهالون على الكرة ضربا بالعصي. تندفع صدورهم إلى مرمى الخصم ثقيلة مسرعة. لعل أشد ما أثار انتباهه و مات بسببه ضحكا، هو أن معظم الضربات كانت تصيب أقدام اللاعبين، فيترك اللاعب المصاب الكرة ويقفز قفز كنغر رافعا رجليه المتضررة إلى أعلى من التالم، ينطلق على أثرها جريا للإمسك بمن ضربه. يفر غريمه خارج الملعب فيتبعه. يختفيان بين الأشجار فيتطاير على أثر عراكهما غبار كثيف. بعد فترة يظهران من جديد. يمسك أحدهما الآخر من كتفه في

وفاق،يجر بعضهما الآخر نحو الساحة.يشتد السب والشتم بين أعضاء الفريقين على تلك الحلبة الصغيرة،ثم يغادرون الملعب ساخطين ناقلين يُقسمون على الثأر لأقدامهم المصابة في قادم الأيام.أحضر المعلم كرة ابتاعها وقتذاك من المدينة و دعا إليها القوم بعد عصر كل يوم.لم تمض أيام حتى خلق لنفسه رفقة دائمة من جميع أبناء القرية،وخلق لهم بديلا عن تلك الضربات التي غالبا ما كانت تدمي أقدامهم أو تسبب لهم آلاما يصعب عليهم تحملها،وجروحا لا تندمل الا بعد مرور أيام .هاهمُ اليوم يلعبون ويسجلون أهدافا قبل أن تنتهي مبارياتهم بالاتفاق على مباراة ودية أخرى،وبعد متعة أصابوها وقد حرمتهم منها كرة العصا لسنين.

كان يهتم كثيرا لذلك الرجل الذي يقف هناك خلف المرمى يمسك بعصاه.على رأسه قبعة عريضة على طراز قبعات رعاة البقر الأمريكيين؛تنتشر فوق رأسه ولا تُظهر منه شيئا.يقف وقد جعل الشمس خلف ظهره فملاً ظل جسده المتمدد معظم ساحة اللعب تلك.يقف هناك متفرجا.طويل القامة عريض

الوجه. بدت آثار الشيخوخة واضحة عليه بخطوط ملتوية. على ذقنه شيب تتدلى شعيراته حتى لامست عنقه. يلبس جلبابا ممزقا وسروالا لا يتجاوز ركبتيه. تظهر سيقانه النحيلة وعليها زغب أبيض وتتوءات تنبئ بمرارة ما أمضى من سنين. كان يتوكأ على عصا طويلة لا تتجاوز كتفيه إلا قليلا. كان يقفز مع حركة الكرة واللاعبين. يضرب بعصاه وقدميه على أرضية المكان ضربا قويا عنيفا يتطاير له الغبار فيلامس كسوته. لا يردد من تلك الشفتين الغليظتين المتدليتين تحت أنفه العريض إلا كلمة: "كُثْ كُثْ أحمد""إضرب، إضرب يا أحمد". عادت بالمعلم مخيلته وهو يتأمل حال ذلك العجوز إلى بطل قصة "البؤساء" جان فال جان، "في هيأته، في انزوائه في شروده و إنسانيته. كما عادت به وهو يتأمل جديته وقد فقدت أمها العنزة أياما بعد ميلادها، إلى تلك الفتاة بطة القصة "كوزيت". كان يهتم بها كل الإهتمام، يحملها بين ذراعيه، يندفع بها نحو المرعى عبر ذلك الجبل اندفاعا. يطعمها و يسقيها صباح مساء. كان يجوب القرية في وقت فراغه والعنزة الصغيرة تتبعه، ينصح هذا، ويؤنب ذاك، تنظر اليه في اهتمام، تجعل وجهها تجاه وجهه. تناديه؛ تتحدث اليه

فيجيبها.جُلّ ما كان يوصي الناس به،هو العناية بالمعلم أو"الفقيه"كما يحلو له أن يسميه.كان فقيرا،أبا لابن واحد هو"أحمد".عاد به الرجل الجوال ذاك إلى"خالي دودا" في قريته إيش.لا يلتقي شابا ولا طفلا ولا راشدا خلال زقاقي إيش الرئيسيين،إلا دخل معه في حديث.ناصحا أو مؤنبا أو مرشدا... لم تمض إلا دقائق من ذلك

الصباح،حتى كان المعلم هناك ينتشي بهواء الجبل النقي ويستمتع إلى أناشيد فتياته من الراعيات اللائي كن يسرحن الغنم أو يجلبن الحطب.في ذلك الزمان وفي مثل ذلك المكان،لم يكن مسموحا أن تقترب فتاة من شاب حتى ولو من باب الفضول.كانت يمامة تلك الفتاة التي تجرأت لأول مرة ونادت غريبا قائلة " ألمعلم ".لم تكذ تكمل كلمتها حتى نادتها إحدى صويحباتها بصوت غليظ مهددة بإخبار أخيها.فهم تهديدهن من خلال إشارتهن وحديثهن.كانت"يمامة"فتاة زاهية الجمال،نشيطة.إذا صارت متن الجبل أطلقت العنان لصوتها تغني.يصله صوت ذلك الغناء فيقطع عليه حديثه الى الاطفال أثناء الدرس.رآها

تحمل كومة من الحطب قد غطى معظم جسمها
ذي الأحد عشر ربيعا. ظل يراقب من بعيد و هو
يتقدم شيئا فشيئا، يتعمق في الجبل الكثيفة
أشجاره، بينما هي تبتعد وتختفي أكثر فأكثر وسط
كومة حطبها. اختفت خلف رفيقاتها وهي تفكر في
الخطيئة التي اقترفتها. في ما ستقوله الفتيات
عنها. كيف ستتعامل مع الفضيحة ؟ فضيحة مناداة
المعلم. لقد كسرت عادة من عادات القرية. أحس
وهو ينظر إلى وجه هؤلاء الفتيات الغاضبات أنها
خائفة. لا شك أنها تبكي. لا جرم أن الدموع تنهمر من
عينها ، تخفيها تلك الأكوام من العيدان اليابسة
التي على ظهرها. تخيلها لا تقوى على مسح دموعها
ويدها تمسكان الجبل الذي يشد الحطب إلى
ظهرها. تخيل دمعاتها الحارة الندية تسقي أرض
الجبل لعلها تنبت عليه تحررا من ذلك الواقع
المر. لقد نادى غريبا. نادته أمام شاهدات لن
يرحمونها أبدا. ربما أحست على ظهر ذلك الجبل
بتحرر نسبي من عادات وتقاليد القبيلة وهي تنطق
تلك الكلمة. كانت هناك مختلفة عن الأخريات. فهم
أن "المعلم" بالنسبة ل "يمامة" كان أكثر من مجرد
جسد تغطيه بذلة مغايرة. أكثر من مجرد شخص

قادم من المدينة. كانت يمامة تريد أن تلج هي أيضا عالم المعلم. أن تعيش عالم المعلم، عالم التعلم عالم "القراءة والكتابة". فأهلها وأهل القرية تحكمهم عادات وتقاليد راسخة تصعب مملتها. أرادت يمامة أن تتمرد عن تلك العادات التي تحرمها من التعلم. أرادت أن تكون مثل هؤلاء العشرة الذين تحتضنهم جدران قاعة الدرس بمدرسة البلدة. كانت تريد أن تترك الحطب والجبل وتقف في الصف وتلمس بدورها نكهة النجاح وتعيش نشوته.... كانت الخنازير البرية تترائي من هناك تجري وتسابق خيوط الشمس المغادرة. كان المساء يسرع الخطوات ليحرم الطبيعة تلك الأشعة الدافئة الناعمة.

في الفصل، وبعد مضي أيام، جاءت "حُلة" تطلب الإذن في إخباره بشيء ما. وقفت مترددة ثم همست: "لا تريد يمامة أن يعلم أحد في القرية". نظر إليها في دهشة، وقبل أن يسأل أردفت في عجالة: "إنها تريدك أن تطلب من أخي أن يسمح لها بدخول المدرسة". لم يتردد وهو المؤمن بضرورة توعية المرأة وتحررها، بل تحفز على إبلاغ الرسالة لأخيها. صار عليه أن يمتحن كفاءته مرة أخرى. لكن هذه المرة، على مستوى له علاقة بالمجتمع هناك. بتقاليده وعاداته، بعقليته التي نهشتها أظافر الجهل لسنين. بأسلوب تفكيره الذي طبعه العناد وسيطرت عليه النظرة الأحادية. همّ بأخبار أخيها وإقناعه، لكنه أحس أن سيكون له موعد مع حرب كلامية بسوس من أجل بلوغ ذلك الهدف، حرب قد تعصف بحياته إلى الأبد. تخلى المعلم عن الفكرة تماما، فصارت يمامة تمر بعنزاتها قريبا، تتأمل من بعيد تلك الحجرة بعناية. تستمع إلى ما يردده الأطفال داخلها من أناشيد وآيات القرآن الكريم. يستولي الحزن عليها وهي تتدبر المكان الذي لا مكان لها فيه. لا تكف عن ضرب عنزاتها بعود يابس تخلت عنه شجرة ما عند

الخريف ضجرا وتحسرا قبل أن تلقي به بعيدا
بقوة. وتمر كل يوم أمام تلك البناية وفي نيتها أن
المعلم سيخبر أباها. وأنه سيناديها يوما ما بعد
ذلك، ويقدم لها كتباً وكراسات. ويطلب منها أيضاً
استظهار الآيات والمحفوظات. يقدم لها ورقة
نقطها فتسرع إلى أمها فرحة تعانقها في
سعادة. لكن بدل ذلك، ظهر عجز المعلم عن فعل
أي شيء لصالحها واضحاً. ظلت هناك تكبر مع
الجبل والخطب. و من بعيد، صارت تختلس النظرات
إلى ذلك الفصل؛ وفي نفسها رغبة جامحة في
دخوله ولو لمجرد الزيارة. وفي نفسها خوف شديد
لا ينقطع من تقاليد الجبل التي لا تهزم.

طابور أحزان

عاش في تلك البادية بعقله وكل جوارحه يتقاسم
هموم الناس وآلامهم وأفراحهم. في ذلك
الصباح، كانت تقف هناك، تتخذ من حائط الجامع لها
متكأ. على وجهها حزن شديد وعلى عينيها
دموع. تبكي هناك وتنوح وحدها بعيدا عن ابنها. لم
يعد ابنها، فهو الآن جثة هامة. تنظر إليه تارة، وطورا
تتركه. تقترب كمن لا يصدق ما حدث، وتبتعد حين
تدرك أن الأمر واقع وحق. تمننت لو تمنعهم من
إتمام طقوس الدفن. لا تريد أن ترى ابنها الذي ربما
كلمها منذ يوم أو يومين و ناداها "آيم" على سماعه
جهاز الهاتف القديم في القرية المجاورة. لا تريد أن
تراه يدخل تلك الظلمة وحيدا بلا مرافق. كرهت أن
ترى الدود ينهش جسده الذي طالما لمستته بيديها
ونظرت إليه بعينيها وسمعت صوتا قادما من
جوفه يناديها "يا أمي". لا تسعها رؤية عزيزها يوارى
الثرى. تجثو على قبره تلك الأكوام من التراب
تخنقه. كان صوتها مرتفعا بالعويل. ذلك الصوت
الشجي الذي أرادت من خلاله أن توقظه من تلك
الرقدة السرمدية. تناديه بحنان لعله يتراجع عن
موتته ويعود إليها. لم تكن في وداعه إلا حين خرج
ذلك الصباح يبغي الشاحنة التي أقلته إلى دار

البقاء. ودعته مع الفجر. كان يعمل في مدينة
"بركان"، المنطقة الفلاحية الغنية بشرق
المغرب. غنية بخضرها وبرتقالها. "بركان" التي كان
لها مع أبناء تلك القرية والقرى الأخرى المجاورة
قصص وحكايات. كانت متنفسهم للعمل وجلب
المال لذويهم. كان شابا فلاحا صلب العود رشيق
القوام كما حكى عنه الناس هناك. انتظرت الأم
عودته من قبل كلما غادر القرية فكان يعود
إليها. لم يخلف قط تلك العودة. لكنه هذه المرة
تخلف. ربما انتظرت أن يأتيها بهدية تفرح بها كما
تسعد بقية الأمهات عند عودة أبنائهن من رحلة
عمل طويلة. ربما انتظرت أن يجلب لها وشاحا تزين
به رأسها. في ذلك النهار، غدر بها غدرا. ستزفه إلى
قبر موحش بدل عروس تملأ عليها الدار بنينا
وبناتا. غاب أغلب أطفال المدرسة عن
الدرس. تجمعوا بذلك المكان وتحلقوا حول
الجتة. لم يهتم المعلم لهم ولا لعدددهم. فقد شرد
انتباهه ووجدانه مع تلك الأم الثكلى. لقد قتل
أحدهم ابنها. زميل له في العمل أغضبه الشاب
فأرداه بسكين كبيرة حادة قتيلا. لقد جاءت تودعه
إلى مقامه الأبدي. كان أطفال المدرسة يغتمون

مثل هذه الفرص للتغيب عن الدرس. فالآباء
ينشغلون بتلك الطقوس الحزينة التي لا تسمح
لأحد بأن ينتبه إلى مصالحه الخاصة. كانوا كلهم
هناك وكانت الأمهات يبكين بحرقة ذلك
الشاب. تترائى ظلال أجسادهن القوية وحركات
أيديهن من بعيد يلطمن وجوههن بحفنات
التراب. كانت النافذة مفتوحة على ذلك المشهد
الكئيب بين ثنايا أشجار البساتين المجاورة. إنتظمت
كل أحزان ذلك اليوم في طابور طويل يمتد إلى
الأبد. وإلى تلك المقبرة، كان الجمع يتجه في صمت
رهيب. تمشي خلفهم تلك الأحزان تبلل الدموع
خدودها. تمسح عيونها الغاضبة. أحزان لبست
السواد تسير وتلك المنعطفات مطأطئة رؤوسها
منحنية الظهر. تغشاها الأشجار بظلال أغصانها وقد
نكست أوراقها أسفا على الشاب الذي كثيرا ما
عانقها مروره. يلامسها، تهب عليه نسيمات
هوائها، يستلقى، يغفو قبل أن توقظه أنشودة
عصفور يطير فرحا وسط تلك الخضرة. تابع المعلم
المشهد من بعيد. أسند رأسه إلى حائط المنزل
الذي يسكنه. هاهي الدموع تتهادى وتنساب رقراقة
صافية غزيرة مع إيقاع ذلك الصوت المنساب

كالشلال الهادر من هناك، من تلك المقبرة. تحلق الرجال حول القبر يلبسون جلبابا لا يتجاوز ركبهم إلا قليلا. يتلون القرآن الكريم ويرددون أدعية يرفعها إمام جامع القرية "سي عبد الله" !!! تواجدت بالمكان نساء وفتيات أيضا. لم يجد الطعام إلى نفس المعلم سبيلا. ظل حزينا كئيبا تدمع عيناه كلما ارتفع عويل تلك المرأة التي شاء القدر أن تصعد تلك التلة الوعرة نحو مقبرة القرية لتشهد الحاضرين نكبتها. لتنقل لهم ألمها. "لقد لقي الله" - يقول أحدهم "ابن أحمد" قتل في بركان". مر اليوم و ذلك الصوت لا يفارق أذني المعلم. ستمر المرأة بالقرب من المدرسة. ستمسك النسوة بذراعيها ويساعدنها على تلمس منزلها عبر المنحدر. عبر كل تلك المسافة وعلى متنها، ستسمع البشر والشجر والحجر نواحها. سترشهم بدمعاتها الحارقة. ستذكرهم بابنها الذي مر يوما من هناك و تحدث إليهم، ولامسهم وجالسهم واحترمهم بل وأحبهم. ستتوسل إليهم أن يبلغوا سلامها لابنها، أن يبلغوه أنها تحبه دائما. أنها تريده أن يعود إليها وإليهم. أنها ستنتظره كل مساء عند باب خيمتها، ستهب لتعانقه. ستحضنه بقوة. ستمر من

هناك مساء وستسمع المعلم شاء أم أبى تلك
الكلمات. ستعلق بذهنه كل مفرداتها لا
محالة. سيكون ليله طويلا ذلك اليوم، سيتذكر كل
شيء مر أمامه. سيهجر النعاس جفونه طالما
حفظت مخيلته تلك الصور الرهيبة..... تشارك أهل
القرية في مآدبة في الجامع ترحموا بعدها على
روح فقيد تلك المرأة وفقيد **قريتهم**.

لحظة شرود

كان ذلك في الجبل، في يوم من أيام ثمانينيات
القرن العشرين. بعدها، مر ذلك اليوم، ومرت بعده
الأسابيع. ثم مرت الشهور، في الخريف التالي، كانت
شجرة التين قد انزوت هناك بالقرب من
غرفته، تصافح نافذتها بغصين يكره أن يموت. تمد
ذراعيها لتمسح عنه غبار الكآبة والوحدة. تمده من
حين لآخر بما تبقى من ثمر من ثمارها ليققات به
في مساءات تلك الأيام المنفردة.. ويمر بتلك الحقول
وحيدا صامتا. لا صوت مسموع إلا ما يحدث به مذيع
عبر أثير بعض إذاعات الوطن. من بعيد، تترائي التربة
المهيأة للحرث حمراء تعلوها بقايا سنابل الموسم

الفأنت. كان صديقه "محمد" يمسك بالمحراث الخشبي وأمامه بغلة تلهث مكابدة لتنفيذ أمر قائدها، أمر صاحبها. صبورا كالفلاح الصبور الذي لم ير من مصدر رزق له سوى تلك التربة وذلك الحيوان. ألقى عليه التحية فبادله إياها بإشارة من يده. سار والجانب الأيمن من الحقل يبغى الإقتراب منه أكثر. صفت السماء إلا من غيمات خجولة لا تحمل مطرا. تسافر عبر أجوائها في استرخاء. بعض طيور السنونو تحلق معلنة قدوم الخريف. تتبع حركة الدابة ووقع حوافرها باهتمام. لم يجد ما يفعله. ملّ من القراءة والإستماع إلى المذيع. شعر بوحدة قاتلة تضغط على كل جسمه وعقله هناك. تواردت على مخيلته صورة معلمة من فاس و قد عينت قريبا من مقر عمله حين لم تجد من بُد سوى التخلي عن وظيفتها بسبب هذا المنفى الرهيب. بقي المعلم هناك وحيدا لثلاث سنوات. كانت أقراص "ترانكسين" و"ليبريون" و"نوبريوم" وغيرها من المستحضرات الطبية رفيقته في تلك البقاع الموحشة. طلب من صديقه في لحظة شرود أن يسمح له باستعمال المحراث. سيستعمله لأول مرة إذا وافق. سيمسك به فعلا. عجبا! كم هو سعيد! فالمحراث بين يديه

فعلا إنه يحس به إنه وسط الحقل كالفلاح تماما.يمتد ذلك الفضاء من التربة أمامه وخلفه على شكل سطور لا تعرف لها منتهيات.لقد سمع عنه فقط مع المعلم أثناء دروس المحادثة؛ و رآه على الكتب المدرسية في السبعينيات من القرن الماضي.لم يحظ بفرصة استعماله أبدا.وقبلها لم يتذكر أن رآه عند الفلاحين في قريته وهو صغير.لم يرفض محمد الطلب، بل ناوله إياه، وهاهو يبدأ عملية الحرث في خطوط ملتوية لا تغوص فيها السكة داخل الأرض العطشي سوى لسنتمرات قليلة.طفقت البغلة تجذبه إليها جرا يكاد يتعثر..اندفع صاحب البغلة يناديه ويداه إلى الأعلى محاولا ثنيه والبغلة عن المزيد.. "توقف،توقف،الخطوط ليست مستقيمة.توقف،توقف فورا".لم يستطع المعلم التحكم في الآلة العجيبة تلك،ولا في ذلك الحيوان.دخل الفلاح الحقل الواسع وانتزع منه المحراث وعلى شفثيه كلمات لم يسمعا جيدا.كلمات جعلته يحس بانهيأ شديد وذل كبير.كان صديقه حقا،لكنه يومها أهانه قليلا.لقد سحب منه الآلة بقوة ثم تركه وانصرف مكفهر الجبين.سلم عليه من بعيد وهو يخفي خجله وانكساره أمام ما سمع

و انطلق... إلتفت خلفه فرآه ينظر إليه لبرهة وقد توقف عن الحرث.ربما ندم على ذلك التصرف.ربما أراد أن يعتذر له.صار المعلم يبتعد عنه وعن دابته مسرعا وسط الحقل الذي ملأته سيقان السنابل اليابسة.صار الرجل ومحراثه يختفيان،تلتهمهما تلك المسافة بلا رحمة.

بعد ذلك،والعام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف قد بدأ طريقه للتو على سكة الزمن،كان جمع من الأهالي ينتظرون المعلم ليشهدوا ما سيحكم به عليه قائد المقاطعة آنذاك من عقاب بسبب غيابه عن العمل لبضعة أيام.جاءه صباح يوم الثلاثاء أحد أفراد القوات المساعدة وكان من معارفه هناك،جاءه حاملا أمرا بزيارة السيد القائد.توجه المعلم إلى مقر القيادة.وبعد أن قدم التحية بالأدب المعهود والمطلوب في مثل تلك المواقف والأماكن،رد القائد التحية وأشار عليه أن اجلس فجلس.تأمله القائد لبضع ثوان ثم اكفهرت أسارير وجهه وانفعل فجأة وأخذ الغيظ يتطاير من عينيه وفمه.ترتفع يداه لتضرب على مكتبه ضربا مفرعا ثم ليبادر قائلا والمعلم صامت يستمع:"أنت تعمل كموظف حكومي،وأنت تتقاضى من أجل تعليم أبناء الناس و..."حاول المعلم توضيح ما كان،لكن القائد

استرسل يقول "أنت منقطع عن عملك. لم تجد من يراقبك. إنك تتصرف كما يحلو لك". أخبره المعلم في أدب وهدوء أنه في رخصة مرضية بسبب سقوطه على مؤخرة رأسه، ثم دعاه إلى الاتصال بمدير المجموعة المدرسية للتأكد من الأمر.

في ذلك المساء الواقع في الثالث والعشرين من ديسمبر أربعاً وثمانين وتسعمائة وألف، اكفهرت سماء المكان وأندرت بثلج قادم سيغطي كل ما يوجد على تلك الأرض المرتفعة. وضع المعلم قليلاً من حطب على مجمر من طين ابتاعه من أحدهم في القرية، ثم أوقد به النار وأضاف كثيراً من فحم حطبي جعلها بعد ذلك تتأجج تحت تأثير تلك الريح التي تسبق عادة أي تساقط. داهمه الثلج فجأة وحمله على نقل مجمره إلى داخل غرفته حيث تستقر طاولة قديمة وضع على إحدى زواياها شمعة تستلقي تحت قدمها صورة لأحد أحبائه، وفي وسطها انتشرت جذاذات ومفكرته التربوية. على المجمر نصب طنجرة صغيرة بها عدس قد بدأ للتو رحلته الطويلة لينضج، ثم أغلق عليه الباب وجلس ينجز تصاميم دروس غد كاد ألا يأتي أبداً. وهو على تلك الحال، أحس بدوار خفيف ألم برأسه. نهض يبتغي فتح الباب، لكن الدوار أصبح عنيفاً كاد يسقطه أرضاً. تماسك قليلاً وتقدم نحو الباب يريد فتحها، لكنها أبت ذلك. أحضر سكيناً أدخله في مكان ما بين الباب وإطارها، لكن الأمور زادت

سوءا والدوار يقوى على كل مجهود يبذله.تمسك بقفل يتدلى على جانب من تلك الباب، ثم في غياب كل وعي له بأي شيء، سقط على مؤخرة رأسه مغمى عليه.كانت الضربة قوية جدا على تلك الأرضية الصلبة من الإسمنت.ها هو المعلم يستفيق من جديد،حاول أن يقوم من مكانه لكنه ما قدر.أصاب الاهتزاز والعجز عن أي حركة كل أطرافه.تقيأ بقوة ثم صار يزحف متمسكا الخروج من تلك الغرفة.كان رأسه خال من أية خصلة شعر بعد أن حلقة قبل ذلك بأيام.وسط تلك الوحدة والظلام والبرد،مد رأسه يملؤه بحبات الثلج المتساقطة.لم يدر المعلم أن رغبته في أن يستعيد مزيدا من وعيه سيؤثر على صحته في قادم أيام حياته.زحف من جديد نحو الغرفة،كانت الشمعة قد أخذت طريقها نحو التهام الصورة،ثم تمتد إلى جذاذة التحضير،فإلى الطاولة الخشبية،ثم بعدها إلى فراشه و تنتهي بالتهام السقف،ليحترق المعلم هناك بين تلك الساعة الثامنة والتاسعة من ذلك الليل الشتوي الفريد.هل كان القرويون سيهبون لنجدته قبل فوات الأوان وهم على تلك المسافة منه أعلى الجبل؛يشاهدون الدخان الذي يخفي المكان،وألسنة اللهب المتصاعدة التي صارت تبتلع كل شيء فيه؟أبعد الشمعة ثم قام بصعوبة يحمل المجرم بطل تلك المأساة إلى حوش الدار.كان العدس

يغطي مساحة من تلك الأرضية.ربما امتدت يد المعلم إثر سقوطه ولامست الطنجرة بقوة فقلبتها وسال ما كان بها من طعام.لم يعبأ المعلم لذلك وهو فاقد للوعي.بحث عن شيء يأكله بعدما أصابه جوع شديد فلم يجد سوى قليل من خبز متعفن صار يلوكه بين أسنانه بمرارة وببطء شديد.كان المذيع مؤنسه وشاهد مأساته لتلك الليلة،يزوده ببعض الأخبار ويقرب إليه الساعات الأولى من الصباح شيئا فشيئا.كانت الساعة الخامسة من صباح اليوم الموالي لما حدث،ربط رأسه بعمامة أبيه.وضع جلبابه الصوفي وحذاء طويلا،ثم على ظهره حمل وثائقه الإدارية وانطلق يعانق تلك الظلمة وذلك البرد وتلك المسالك قاصدا المدينة لزيارة أحد الأطباء.كانت الأرض مبللة جدا والضباب كثيفا.لا مخلوق يُرى في ذلك الخلاء ولا صوت يسمعه عدا وقع أقدامه ترتطم بقطعة ثلج متبيسة هنا أو هناك على جانب تلك الطريق.إثنان وعشرون كيلومترا كانت كافية لتجعله يصل أخيرا إلى المدرسة المركزية حيث المدير.تحدث إليه الشاب يشرح ما حدث في ذلك الليل،لكن المدير علق بكلام ضاعف من درجة إحباطه:"لا تخبرني أن هذا حدث لك.كيف وأنت كالحصان أمامي، وقد قطعت هذه المسافة ماشيا كما تدعي.أنت تتمارض من أجل أن تتغيب لفترة طويلة.لن أتردد في إبلاغ النيابة بغيابك.تحمل

مسؤوليتك". نظر إليه المعلم ونظر إلى خارج غرفة الإدارة حيث ترسو سيارة الجيلالي متأهبة للإنطلاق نحو المدينة. سلم عليه وخرج، وهاهو بين يدي الطبيب يرخص له بالتغيب لمدة عشرة أيام. رافقت هذه الحادثة المعلم طول حياته. تدفعه إلى تلمس الشفاء من معاناة سببها ذلك السقوط العنيف في ذلك الليل البعيد.

أدار القائد عجلة الهاتف القديم دون تلوؤ وقال للمدير "في مؤسستك معلم متغيب وأنت لا تعلم. ما هذا الإستهتار بتعليم أبناء الناس؟" إكتفى القائد بهذه الكلمات ثم صار كلامه بعدها عبارة عن ميم مسترسلة "مَم ، مَم ، مَم". ربما أخبره المدير أن غياب المعلم كان مبررا. إلتفت القائد إلى المعلم في هدوء بعد أن وضع السماعة ببطء، وقبل أن ينطق بكلمة نظر إليه مليا وهو يشبك يديه بعضهما ببعض ثم ابتسم. بعد تفكير لم يدم طويلا، باشر ينصحه بالصبر وبالعمل مع "أولاد الناس"، ووعد بأن سيوصي به خيرا. كان طيلة حديثه معه يقلب أوراقا. يوقع على بعضها تارة وطورا يضع أخرى جانبا دون أن يضع عليها خطا من يده. شكره المعلم وانصرف. عند ركوبه الشاحنة حيث اعتاد أن يتخذ من بابها الخلفي مكانا مفضلا له عبر تلك المسالك الجبلية الخطيرة، لم يكلمه أحد، بل كان كل الحديث بينهم سهاما ونبالا لا ترحم ساخرين. لقد ودوا حقا لو قام القائد

بمعاقبته. بالضغط عليه أكثر حتى لا يغادر الجبل إلا عند الحاجة الملحة. خالوه يتعمد التغيب. لقد كانوا غاضبين...

خلال الأسبوع الذي تلا تلك الحادثة، ظل يتناول الخبز الذي جلبه من المدينة. خبز هاجمته الفطريات فتعفن من جراء التقادم. علم "فقيه" مسجد القرية بحاله، فجمع الناس ولامهم على تقصيرهم في حق غريب في بلدتهم؛ وكيف إن كان ذاك الغريب معلما.

وتمضي به السنون هناك. كان النهار حارا، والناس صيام. بينما كان يتجول بين الحقول في ذلك الصباح الواقع في منتصف شهر يونيو من العام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف، كان المختار يذبح سيقان السنابل ذبحا وما رق قلبه لتألمها. لقد تعب خلال الخريف في وضع بذراتها، ثم مد يده إلى السماء طويلا خلال الشتاء سقيا ورعا لها. إنها مصدر عيشه الأساسي إلى جانب بضع نعجات وعنزات وبقرة. رجاه وهو يعيش فترة فراغ قاتل حيث لا ماء ولا كهرباء و لا تلفاز و لا محمول يتصل به مع العالم الخارجي في تلك الجزيرة الجبلية النائية، رجاه أن يناوله المنجل؛ أراد أن يجرب ويطبق ما درسه وهو صغير عند "السي الطيب" في بلدته "إيش". لم ير

يوما أهل قريته يحصدون به إلا البرسيم. كانت أرضهم تنتج الخضر فقط. ما كانت لتتسع لمثل هذه الزراعات. كان المنجل حادا فرحا تتساقط السنابل أمامه صرعى كأنها رؤوس متحاربين في ساحة الوغى. لم يرغب عنه ساعتها موقف صديقه أثناء الحرث. فعملية البناء كما يقال أصعب من عملية الهدم. فقد يسهل أن يقطع المرء سنبله، لكنه كثيرا ما يعجز عن زرع حبة قمح أو غرس شتلة شجرة. فالفصل مختلف. والأرض المكشوفة خلال الحرث ليست هي تلك التي أصبحت الآن مغطاة بالسنابل والأعشاب الجافة. خلال نشاطه وهو يحصد، مر عليه بسرعة كالبرق ملتويا ملونا بكل ألوان الحقل يغشى لسانه سواد ليل حالك. ذو ذيل قد ابتعد عن رأسه بمسافات طويلة. مر فجأة دون أن يسمع لحركته صوتا. لم يصدر من فمه فحيحا فيحذر لسعته. رمى المعلم المنجل في مكان ما وفي اتجاه لا يعلمه وهو يصيح: "ثعبان، ثعبان، ثعبان". تماما كما حدث لذلك الصبي تيمح وهو يقطع عنقود العنب لإطعام جدته قبل سنوات. لوعضه آنذاك حيث الجبل، حيث لا وسيلة نقل حاضرة ولا دواء، هل كان ليسرد حكايته. بدا

المختار منزعجا خائفا يتلعثم. لقد شحب وجهه فجأة واصفر و صار ينادي: "ماذا ماذا؟ أين أين؟" ظن المختار أن الحية نالت من المعلم. عد نفسه المسؤول عن حدوث هذا الأمر. سيعاقب إذن بشدة. فقد تسبب بالأذى لمعلم البلدة. فهو من سلمه المنجل. سمعه المعلم يصيح وهو يتبعه. فجأة، هاهو يقف أمامه، يتفحص يديه. يسأله في لهفة. إشتد شهيقه وزفيره. إحمر وجهه وزادت سرعة دقات قلبه. بادره المعلم بابتسامة فتحت أمامه أبواب الأمل في عدم إصابته بمكروه. ما يزال يتنفس بسرعة حتى جلس على الأرض وقال: "الحمد لله، لقد أفزعتني، سامحك الله" ثم صار يسأله عن منجله بين تلك السنابل كان الثعبان يختفي مسرعا وقد خلف مروره بالمكان رعبا شديدا. هل كان إنقاذ المعلم لذلك الحصاد من موت محقق يومها صدفة؟ أكان عليه أن يمسك تلك الآلة في تلك الساعة من النهار ليفلت المختار من قدر أراد به غدرا؟ لم يجرب المعلم تلك الأداة مرة أخرى. كان المختار كلما التقى به يصرخ قائلا "ماذا ماذا؟ أين أين؟" ويضحكان معا و يمضيان. كان ذلك موقفا مخيفا حقا.

في يوم من أيام نوفمبر من العام أربعة وثمانين وتسعمائة وألف، عم السكون المكان خلال تلك الساعات المسائية الموحشة . انزوى الجميع إلى خيماتهم وقد أوقدوا نارا تجمع حولها الأهل يتسامرون في سلام، وبات دخان المداخن يعلو المنازل ويمتد عبر المدخات معانقا نجوم السماء ينبئ بموعد البرد القارس، بينما هو كذلك، جاءه "الضامن"، وهو آنذاك أحد أعوان السلطة بتلك المرتبة وذلك الاسم في مثل تلك الأماكن البعيدة. تبادل الرجلان التحية المعتادة ثم أخذ مكانه إلى جانب المعلم وهمس في أذنه: "أريد أن أخبرك بأمر خطير، لكن عليك ألا تتهور، و تصرف بهدوء". لأول وهلة خيل إليه أن أحد أفراد عائلته قد حل به مكروه. بدأ الرعب يسري في كامل جسده سريعا سريان السم في عروق ملسوع. لم يرغب في سماع المزيد مما سينقله الضامن من أخبار. انشغل عقله يتساءل: "أي سوء حل بعائلتي؟ وبمن؟ ما العمل في هذه الساعة المتأخرة؟" كان يعلم أن أمه مريضة. لا وسيلة نقل ينتقل بها إلى مدينته والليل على الأبواب. أيتحرك مشيا على الأقدام، يقطع تلك المسالك الوعرة

التي ألفها وألفته؟ ومتى سيصل والضواري لا تترك شبرا على الجبل إلا وملأته بخطرهما. وهي لا شك تنتظره و سوف تعطل حركته؟ لا هاتف ولا محمول فيعرف به الذي جرى. دار كل شيء في رأسه بسرعة. ربما كلمه الضامن للحظة دون أن يكثرث لما قاله. نظر إلى السماء فإذا النجوم تصطف رويدا، رويدا. يجلي الليل بريقها بعد أن طرد ضوء النهار. وقفت الأشجار أمامه أشباحا تتوعده بأظافرها الجارحة. و خلفه، بدت بناية المدرسة شاهقة تمتد في زاوية منها كالطود المخيف. تسمر الرجل أمامه ينتظر. يادره بصوت متقطع: "هل حدث مكروه لأحد أفراد عائلتي؟" كاد البكاء يستولي عليه لولا أن الرجل قال: "لا". تنفس المعلم الصعداء ثم أردف وذهنه يزداد استغرابا وتشتتا: "وما الأمر الخطير إذن؟ قال وهو ينظر إلى الأمام، يتأمل ذلك الظلام الحالك الذي لا يمر بشيء إلا ستره: "أنت هنا تعيش وحيدا بيننا". قال المعلم مستفسرا: "وما الجديد في الأمر؟ قال الرجل: "وتسكن وتنام وحدك". أجابه إيجابا. أضاف الرجل بعد صمت مميت: "هناك مجرم هارب من العدالة، وربما يكون في جبلنا هذا. فاحذر أن يؤذيك أو أن تسمح له

بالمبيت عندك ففتهم بالتستر على مجرم". قال ذلك ونهض. لاحظ الضامن تغير لون وجهه مُجالسه فتجهم قليلا ثم انفرجت أساريره وقال: "لا عليك لا تخف، فقط لا تسمح له بالدخول. وإذا ما كان هنا، أخبرني على الفور". فكر المعلم قليلا ثم قال: "نعم نعم". لكن، كيف سيخبره على الفور إن كان المجرم يغلق عليه كل المنافذ ويتهدده؟ كيف يخبره ومنزل الضامن يقف أعلى التلة البعيدة، تحرسه كلاب ضارية؟ كيف والوقت ليل مطبق؟ غادر الضامن بسرعة يتفادى الظلام. ومع ابتعاده كانت الكلمات في فم المعلم تحاول أن تتبعه. أرادته أن يمكث معه للحظات أخرى. رغب جدا في ألا يبرح الضامن مكانه أبدا. أرادته سندا إذا ما حل الضيف الخطير بالمكان فجأة. كان خيال جسده يبتعد حثيثا وتبتلعه الأشجار والممرات. قرر احترازا أن يتصرف بسرعة. أخذ إحدى الأغطية ثم سمرها على النافذة القديمة التي لن يتعب في اقتلاعها في ثوان لو حضر فعلا. أخذ الورق المقوى وغطى به النافذة الخلفية الصغيرة، ثم، وبدل أربع شمعات، أو قد واحدة فقط. حجب الضوء عن كل شيء إلا عن مكان جلوسه حيث يكتب جذاذات

الدروس لليوم الموالي. ذلك اليوم الذي قد لا يأتي أبدا إذا حل ذلك الزائر المهلك على حين غفلة. جعل صوت المذيع ضعيفا أيضا. تناول المعلم القليل من الخبز والشاي ثم سهر حتى الصباح يتربقب القادم في جوف الظلام. يتربقب في خوف وصول المجرم الفار. ربما غالبه النعاس فنام لساعة من الزمن. في الغد، دخل الفصل وصورة ذلك المساء لا تغيب عنه. ظل ينتظر الضامن لعله يأتيه بخبر ينفس من الضغوط التي تثقله. أرسل إليه بعد الظهر مع أحدهم أن احذر. مضى مرسله وقد زاد من عذابه ومعاناته. بقي لليوم الثاني خائفا مذعورا يتربقب. ربما نام تلك الليلة قليلا بعد أن امتص الضربة في الليلة الفائتة. نام تحت تأثير مفعول الأقراص المهدئة. في الصباح عاد إلى الفصل كالعادة يحمل هم تعليم تلاميذه وهم المجرم الخطير الذي ضاعف تأخر حضوره من قلقه. أخبره "الضامن" بعد ذلك بيوم أو يومين أن المجرم وقع في يد العدالة فهذا خاطره قليلا، لكن الحياة لم تعد إلى سالف حالها منذئذ بالنسبة له. ظل الخوف يسيطر عليه من حينها. أصبح يخاف من كل شيء هناك... انقطعت الأخبار عن أسرته إلا

قليلًا مما يأتي به الهاتف من حين لآخر. كانت أمه تشكو من المرض باستمرار و من مشاكل عائلية لا تنقطع. أصبح الحديث إلى أسرته يقصم كاهله شيئًا فشيئًا في ظل تلك الأوضاع. كانت تزيد انشغالا بها، تصرفه عن عمله وتجره إلى التفكير فيها جرا ينهك عقله باستمرار. كان يمضي أكثر أوقاته منهمكا يحضر جذاذات الدروس والوثائق التربوية الضرورية تحسبا لكل زيارة من مسؤول إلى المدرسة حتى وإن كان يعلم يقينا باستحالة تلك الزيارة أمام تلك الظروف التضاريسية الصعبة. وتمر على ذلك الحادث الأيام تتلوها الشهور. حتى كانت السنة الثالثة له في هذه البقعة البعيدة الموحشة. لم يعد يحتمل البقاء هناك وقد رأى ما رأى، وسمع ما سمع، وعاش فترة من عمره غالية تحت رحمة الظروف السيئة على متن الجبل. عليه أن يفكر في الخلاص. في الانتقال للعمل في ناحية أخرى تقربه من عائلته ومن المدينة. لن يتمكن من ذلك إلا بزيارة المفتش التربوي له وحصوله على نقطة حسنة. ولكن كيف السبيل إلى ذلك والمكان به وعورة لن يقبل المفتش تجربتها؟ كيف والوقت يسابقه ويحاول سبقه؟ بات

حائرا يترقب والأمل في ذلك يتلاشى قليلا قليلا. لم يتم إخباره إلا ذلك المساء من شهر دجمبر من العام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف. مالت الشمس الشتوية إلى الغروب حين ظهر من هناك، من خلف الأشجار يسرع في خطاه، أحد أبناء القرية وقد عاد لتوه من زيارة إلى منطقة تانشرفي حيث توجد الإدارة التربوية. ذهب الرجل هناك ليعصر غلة حقوله من زيتون ذلك العام، فحملة المدير الرسالة الشفهية التالية "قل للمعلم أن يأتي غدا إلى مستكمر إن كان يرغب في الحصول على نقطة المفتش وإلا فالذنب ذنبه".... "سأذهب بالطبع." يردد في نفسه، "أو ستبليني السنون هنا". لكن الطريق طويلة إلى هناك والوسيلة منعدمة. فما العمل؟ بينما هو كذلك مشغول الفكر ضائع، أتاه صاحب قصة المحراث ودعاه لتناول طعام العشاء. حكى في ذلك الليل أنه سافر إلى هولندا قبل سنوات. وبينما هو يبحث عن عمل، صادفته دورية للشرطة الهولندية في إحدى منعطفات شارع هناك وطلبت منه أوراقا تثبت شخصيته. حكى يقول: "وقفت مذهولا وما استطعت حراكا ولا ملكت لأسئلتهم جوابا. خطر ببالي أنني سأعود إلى

بلادي. وأن حلمي الذي هاجرت من أجله قد طواه موقف ذلك المساء إلى الأبد. وفيما أنا على تلك الحال وقد هم الشرطيان باحتجازي داخل سيارتهما، تقدم أحد المواطنين المغاربة هناك وهمس لهما بكلام لم ألتقط منه شيئاً، حديث جعلهما يعتذران وينصرفان في وقار". زعم أن الرجل الغريب وجد له بعد ذلك مأوى وعملاً لمدة نصف عام، فكان ذلك تحولا آخر في نظرته إلى الناس وخصوصاً ساعة العسرة. عاد إلى القرية بسبب موت أبيه، من يومها، أقسم على أن ينفذ وصية والده بأن يهتم بكل غريب يفد إليها، وكان المعلم الجديد أولهم. بعد العشاء كان عليه أن ينام حتى يصحو باكراً وينطلق في رحلة البحث الصعبة آنذاك عن نقطة تربوية تمكنه من الانتقال إلى منطقة يختارها وتبعده عن هذه الأرض القفر. ذكره صديقه بما يميز هذه الممرات الجبلية التي سيقطعها حتى منطقة أعياط من منعطفات ومرتفعات ومنخفضات وعرة. عن الحيوانات التي قد يصادفها كالخنازير البرية والذئاب الجائعة وغيرها. أخيراً طلب منه التجلد والمشي شجاعاً. كان في الخامسة والعشرين آنذاك لما انطلق يطوي

الطريق طيا، يحمل حقيبة تملؤها وثائق تربوية وكراسات. لقد أزعه ذلك الحمل كثيرا. انطلق والوقت يكاد يلامس الفجر؛ لا يداعب البرد جسما إلا جمده. لا يزال يسابق الخطى بين ثنايا الجبال ومنحدراتها، كان الضباب كثيفا يلف المكان ويحجب عنه الرؤية. وصل منطقة أعياط على بعد خمس كيلومترات ولا أثر لذئب ولا لخنزير بري ولا حتى لعفريت. كان الأهالي قد أخبروه بوجودها وبوجود أشباح أيضا. كانت حمولة عقله من تلك الحكايات ثقيلة. لم يتوقف عن استحضارها خلال تلك الرحلة. قبل تلك الليلة، تناول طعام العشاء في خيمة أحد الأهالي ممن له دراية بمرتفعات المكان وخباياها ودسائسها. حكى أحد المدعوين أنه بينما كان يقطع الطريق بين دادا علي وأعياط ليلا، أخذت بغلته تتوقف بين الفينة والأخرى، ثم تنطلق وثبا كأن شيئا حادا يخز ناحية ما من جسمها قبل أن تحجم عن المسير من جديد. ظل شحيجها يتصاعد باستمرار. تضرب الأرض بحوافرها الأمامية بعنف. تحرك رأسها بقوة في كل اتجاه. علم الرجل أن شبعا كان يتربص به وبدابته: "تابعت السير ولم ألثفت إلى الخلف. خفت أن يكتشف أنني عرفت

بوجوده فيؤذني،ازداد شحيج بغلتي وقوي أكثر وأكثر و قوي معه خوفي وتوتري.أدرت رأسي تجاه جبل قريب فلم أر شيئاً.أمسكت بدابتي أصوب وجهتها،فإذا هي تجفل.ارتفعت وتيرة دقات قلبي لدرجة التوقف حين تبينت ذلك الشيء يطل علي من هناك،من على صخرة بأعلى الجبل.رأيته على هيئة ذئب كثيف الشعر، طويل القوائم الأمامية.يمتد رأسه حتى يلامس النجوم.بدت عيناه أمامي تشعان حمرا.كانتا تتجهان صوبي تماما.خفت أن تمتد إلي ألسنة النار تلك فتحرقني.ظلمت دون حراك والبعلة تحفر الأرض حفرا.رفع الشيء قائمه ملوحا لي أن انصرف. ترددت لبرهة من هول ما رأيت أريد أن أتأكد مما تشاهد عيناى،فإذا به يبادر ملوحا من جديد و بعنف جعلني أبتعد في عجلة مرتعدا.مازلت أراقبه حتى أخفته عني جذوع أشجار الغابة الطويلة المورقة... "خاف المعلم جدا أن يتكرر المشهد معه.تخيله عدة مرات بنفس الهيئة التي وصفها الرجل بالأمس.كأنه خلفه تماما.يحاول أن يهمس في أذنه.يريد أن يضع قائمه على كتفه.كأنه يشتم رائحته الكريهة.كأنه على بعد خطوات منه.ماذا يفعل؟أيصرخ وهو وسط تلك

الغابة الشاسعة الموحشة فتجتمع حوله بقية الأشباح إن اشتهت رائحة خوفه وتستفيق معها الضواري على وقع صراخه. هم بالهرب. لكن إلى أين؟ أيهرب إلى الغابة؟ فهو فيها. أيهرب من وحوشها؟ فهي الآن حوله. أيفر من أشباحها وعفاريتها؟ إنها الآن تطارده وتسبقه إلى كل مكان يريد الإختباء فيه. لقد فات الأوان. أضحى الآن محاصرا. شلت حركته تماما... أشرقت عليه شمس ذلك اليوم أمام مبنى دار مدير المدرسة الذي يادر يقول "حسن، لقد فعلت بنفسك خيرا إذ قدمت، وإلا مكثت بالجبل إلى...." قطع كلامه ثم قال "لكن كيف ستذهب إلى مستكمركم؟ أخبره المعلم أنه سيطلب من أحدهم نقله إلى هناك ولو على دابة أو سار على قدميه حتى يبلغ القرية الموالية فيحقق حلم الرحيل عن الجبل. لقد صعب عليه كثيرا البقاء هناك لسنة أخرى. كان مضطربا جدا وهو ينظر إلى أمله يضيع وتطويه تلك المسافة التي لا تتجاوز مدة قطعها ساعة واحدة، لكن لا وسيلة لتحقيق ذلك. همس له المدير وقد لاحظ شروده وتبين ضجره من الأمر قائلا: "لو كان بسيارتني بنزين لنقلتك بواسطتها". فهم المعلم الأمر فزود السيارة

بالبنزين ثم انطلقا يتجاذبان أطراف الحديث عن
الجبل وأهواله وعن ذلك الذئب الشبح و...وصلا
المدرسة المركزية وكان المفتش التربوي قد
حضر. كان على موعد مع كثير من المعلمين يومها.
أصبح على المعلم أن ينتظر حتى منتصف النهار
وسط تلك الزحمة من المربين لعل الدور يأتي عليه
فينال تلك الهدية الثمينة التي ستغير إيقاع
حياته. عندما هم المفتش بالرحيل من المكان بعد
طول عمل وشدة تعب، لاحظ المدير دمعا يملأ
عيني المعلم فتحدث الى الرجل بكلمات أثنته عن
الانصراف مترددا. تبادل الرجلان التحية الصباحية
حتى وإن كان الزمن وقت الزوال. ،أخبر المفتش
التربوي أنه قطع مسافة اثنين وعشرين كيلومترا
ذلك الصباح مشيا على الأقدام، وأنه يشعر بجوع
شديد، كما وأن عليه قطع المسافة نفسها عودة عند
المساء. لم يصدق الرجل الأمر إلا بعد تدخل المدير.
قدم المعلم درسه وعرض كل الوثائق التربوية التي
تشهد على جدية عمله وحسن ادائه. مازالت كلمات
المفتش التي أنقذته من الجبل لا تفارق
أذنيه: "ستحصل على نقطة الإمتياز. بإمكانك
المشاركة في الحركة الإنتقالية لهذا العام". قال ذلك

ودفع بقطعة ثوب تحيط برقبتة وتتدلى على جانبي صدره إلى الخلف، ثم سلم وانصرف. سعيدا منتشيا بما سمع، شكره المعلم، وما زال ينظر إليه حتى اختفى خلف الباب الكبيرة لتلك المدرسة. ودع المدير و شكره على التوصيلة ، ثم سارت به الطريق آخر المساء إلى الجبل من جديد. بدأ الظلام يخيم والبرد يشتد و يزداد قساوة. أخذ المجهول يجلي بصور غريبة تلك الأشباح والحيوانات في ذلك الليل الدامس. مر بكل تلك الكيلومترات بما عليها من حجارة وأشجار عراها الشتاء مرغمة. لقد أحست الحيوانات داخل جحورها بحركته. لم يخطر بباله طوال تلك الساعات الثلاث سوى أنه قد حصل على نقطة تؤهله للخروج من ذلك الجحيم. نزل الظلام باكرا يومها، لكن المصباح اليدوي في يده كان يحدثه عن تلك الأماكن ويكشفها أمامه. جبال ومنحنيات أرضية وشعاب وأشجار شهدت على مروره من هناك. وجد نفسه في غرفته بالمدرسة الفرعية وبجانبه صديقه يدعوه إلى وجبة العشاء. كان منهكا لا يقوى على أية حركة. كان فرحا مزهوا يبدو أمامه منذ ذلك الليل أفق جديد ينتظره. مصابيح كهرباء الشارع. شوارع وحانات

ومرافق وسيارات.أسواق عامرة وحركة دائبة للناس وللسلع.

في الصباح التالي،أيقظه صياح نساء وبكاء أطفال.كان ذلك مرتفعا بشكل رهيب.كان حزيناً،شجياً يبعث على البكاء.قام كالمعتاد يصلي، يهين فطوره وينتظر وصول الأطفال.لم يأت أحد منهم إلى المدرسة يومها.لم يكن اليوم يوم عطلة.طفق العويل يعلو تارة وينخفض أخرى.تجمع الرجال على مسافة من تلك الخيمة المنعزلة قريبا من تلة كانت تخفي الكثير من الأسرار،أسرار شجرة شؤم استقرت منفردة بين الصخور؛كأن أغصانها رؤوس عفاريت رؤوس ثعابين،كأنها شاهد قبر على تلك الخيمة.مد المعلم بصره يتفحص الأرجاء من بعيد والحزن يسري في كيانه بطيئا بطيئا،يرتعد من هول ما يجمله عن ذلك الجمع الغامض.كيف لا وقد أصبح اليوم واحدا منهم.بهمه ما يشغلهم.يفرح لفرحهم ويحزن لما يصيبهم من مكروه.هل قتل أحدهم كما حدث لابن أحمد في بركان؟هل ستمر حذاءه أم أخرى لتزعزع المكان بنحيبها فتتزلزل من وقعه نفسه وكل كيانه؟ظهر أطفال المدرسة

يجرون قريبا من الخيمة، يدورون حولها بلا فائدة خلا أن يصبوا مزيدا من الزيت على النار المتأججة يأسا وأسفا وبكاء، إشفاقا على تلك المسكينة التي حضرها المخاض. تحلق حولها حشد من النساء المجربات لا تتوقف حركتهن. تنحني رؤوسهن إلى الخيمة ومنها دخولا وخروجا. قال أحدهم: "لنأخذها إلى المدينة". "أي مدينة ولا وسيلة نقل موجودة؟" يجيبه آخر وقد دخلا في جدال لا ينتهي بصوت مرتفع: "فكر في وسيلة نخلص بها الشابة هنا". يضيف بقوة وعنف ويدها لا تكفان عن الحركة. تحدثا عن نقلها إلى أعياط على ظهر بغلة. ربما بدأ نقاش آخر أكثر حدة في زاوية أخرى من المكان، تغذيه أفكار مشتتة غير ذات قيمة أملتها طبيعة اللحظة وقلة الحيلة. وقف منجذبا إلى ذلك الحديث الفضفاض في ذلك المكان المقفر، في ذلك الزمن الأغبر، وفي مثل تلك الحال السيئة بلا هاتف ولا وسيلة نقل. لم يجد ما يساعد به أهل القرية أمام هذه الظروف التي كانت تنحو شيئا فشيئا نحو الأسوأ. كان صوت المرأة يُسمع قريبا. كانت تنادي على أبيها. لا أحد يدري لماذا خطر بالها أن تناديه وقتها. كان في عالم غير الذي هي

فيه.عالم الاموات.بكى المعلم راثيا لحالها،و لعجزه وسكان القرية عن إنقاذها.اقترب من أحد الرجال سائلا:"ماذا يحدث يا عبد الرحمن؟"أجاب والدمع قد فضح حزنه:"إن زوجة"مَحْنَد"الشابة قد تموت بسبب الولادة المتعثرة،وأن مولدة القرية قد أعلنت فشلها في إتمام العملية".ما العمل؟لاشيء غير انتظار رحمة الله تعالى.عاد والدمع والحزن والأسى يسيطرون عليه إلى الساحة.جلس على حجر كبير يتأمل الموقف وما جفت عيناه.تمر به ذكرى"فاطنة"في قريته أعواما قبل ذلك.مازال هناك والأصوات ترتفع وترتفع.مازال يتأمل والعويل يتصاعد.مازال هناك ومناقشات عقيمة بين رجال يحبسهم الجبل عن القيام بالواجب لا تنتهي.وما زال يبكي حين يتذكر أنه لم يستطع في لحظة ما وهو بدوره يعيش المأساة هناك-لم يستطع أن يقدم شيئا ينفع به الأهالي في ذلك اليوم العسير المشؤوم.فهم يومها أنه كان وإياهم في مكان وزمان وحال خارج الزمان والمكان وخارج الحال.كأنه كابوس.كان وحيدا في ذلك الجبل مع أناس يشعرون بالوحدة.وحيدون،لولا تلك العربة الزرقاء التي تسافر بهم صعودا ونزولا على امتداد

أسابيع السنة، وعبر مرتفع يدل اسمه على وحشته، جبل بوخوالي الرهيب. تأمل الخيمة وتلك الشجرة طويلاً ثم قال في نفسه: "يا إلهي ماذا لو ظهرت إحداهن تنعى الشابة للجميع. ماذا لو خرجت تقول: "-لقد ماتت، رحلت. سافرت"- ذهبت إلى حيث فاطنة وجنينها وعصفوري الصغير المقعد. يا إلهي! ماذا سافعل؟ ما العمل؟ لأأمل. لا أمل. إنتهى الامر. إنتهى كل شيء....." ثم حل المساء....

إستيقظ باكراً ذات صباح وقد مضى على تلك الأحداث زمناً. سار نحو موقف الشاحنة الأسبوعية التي تقل المتسوقين من الأهالي إلى العيون. بجانب مسجد القرية، كان الناس ينتظرونها بأعداد كبيرة. نساء قد لففن أجسادهن في لحف صفراء براقية. أطفال من الجنسين قعدوا القرفصاء تحت حائط قديم كأنهم ينتظرون وليمة. رجال من كل الأعمار يشربون بأعناقهم يترقبون بشغف أن إطلالة الشاحنة من بين تلك الثنايا. وغير بعيد من هؤلاء وأولئك، تواجدت أمتعة وحيوانات ستنقل إلى السوق الجماعي بالمدينة. كان بعض من هواء بارد يجعل الأسنان تصطك ويصيب البدن بقشعريرة

يحسها المرء في انتظار قدوم سفينة الجبل. لقد زاد حديث المتسوقين اللحظة جمالا ودفئا. لا تنقضي دقائق حتى يسمع أزيز محرك الشاحنة على بُعد أميال قليلة. يتحرك لها المنتظرون تلقائيا مسرعين- كان يغادر القرية من حين لآخر لقضاء مآرب له بالمدينة. لم يكد يمشي بضعة أمتار ذلك الصباح، حتى بدا له جسم مجرد تماما من كل لباس إلا ما يستر أسفله. هبت ريح شديدة باردة والفصل شتاء. ريح شتوية تلدغ الجلد وتجرحه. تحركت الأغصان من جديد، ليظهر ذلك الجسد العاري واضحا. سمع المعلم وسط الضباب صوت ماء الساقية الممتدة إلى البساتين يصب نزولا ويصفع الأرض. سار المعلم في طريق مستقيمة مندهشا مما رأى وخلفه ذلك الجسد تقرصه صنارات البرد اللافة، وتلطمه رشقات الماء الباردة. لم يكد يصل الشاحنة التي كانت ستقله إلى العيون- وكان صاحبها "أبوسماحة" رجلا مسنا ذ شوارب رجولية ملتوية بيضاء كضباب ذلك الصباح، متمرسا على القيادة على تلك المرتفعات- إذا بأحدهم يمر بجانبه قائلا "صباح الخير أيها الفقيه". رد المعلم التحية وبادره صاحبه: "استغرب لكونك 'فقيها' ولا تفشي

التحية لمن تمر بهم". قال المعلم في استغراب: "لكن أنا لم ألتق بك اليوم". عاجله الشاب يقول: "بلى لقد مررت بجانبى وأنا أستحم". تساءل المعلم: "أكنت ذلك الجسد العاري وسط الضباب قرب الساقية؟". قال: "نعم". سأل المعلم: "وكيف تستحم في مثل هذا البرد الشديد؟ ألا تخشى على نفسك مرضاً؟" زكاما أو سعالاً؟ قال: "لا أعبأ به. لقد شربت كأساً من زيت الزيتون، وأنا الآن في أحسن حال". كان المعلم في نظر هؤلاء البدو فقيهاً أيضاً. لا يسمح له بالخطأ. كانوا يعتمدون عليه كثيراً في تصويب الكثير من مواقفهم من الأحداث والظواهر التي تصادفهم كل يوم في تلك البقاع النائية. كان تفقده يفوق علم فقيه المسجد الذي يؤمهم عند كل صلاة ويجمعهم كل جمعة ليحاول تصويب بوصلة بعض تصرفاتهم وسلوكهم. كان المعلم بالنسبة لهؤلاء شيئاً موقر الجانب مقدساً. لم ينس قط هذه الحادثة. كان الناس هناك يغامرون بالاستحمام في العراء، لا يخشون الصقيع ولا برد الشتاء. يغتسلون عند هذا الطقس المميت؛ فقط، لأن مناعتهم بذلك الزيت كانت قوية كما اعتقدوا بذلك ورسخ في أذهانهم، يتوارثونها أباً عن جد منذ أزمان، وأين

يتطهرون ولا حمام في قريتهم؟ كانوا فقط صابرين-يقترّب كل واحد في عجلة حاملا أمتعته وهو لا يكثرث لمن كان قبل قليل له نديما. ما تكاد الشاحنة تقف حتى يهرع إليها الحاضرون، يدفع بعضهم بعضا في زحام شديد وتدافع ضروس. يسقط من جرائه طفل هنا وتصيح بسببه امرأة هناك. تحركت بهم الشاحنة نزولا. أمسك بعمود معدني وراء بابها الخلفي. كان يبدو له المنظر غريبا وهو خارج الشاحنة. لم يجد له مكانا بداخلها بسبب كثرة من على متنها. إنه المكان الذي بقي شاغرا بعد تحميل العجل الأسود والماعزة والأمتعة والناس على ظهرها. كان شابا. وكان كلما توقفت الشاحنة، صار يعد الوافدين الجدد إليها. أربع نساء في مقدمتها مع السائق لا يدري المرء كيف اتسع المكان لهن هناك. عشرات الأشخاص، خليط من كل الأعمار والقامات، إنزلت بهم الشاحنة عبر الطريق الجبلية المنحدرة خائفين هلوعين. كان يتأملهم من ذلك المكان. رأهم هناك وسط الشاحنة يئنون من شدة الضيق. يكاد الصغار منهم يختنقون. على وجوه كبارهم قسمات السخط على هذه الحال السيئة. إستوت لها الطريق غير المعبدة بعدها

واستقامت. و حين ظن الركاب أنهم نجوا، وعدوا
الفرج والوصول قريبا، لاحت في الأفق دراجة نارية
عليها شاب يضع نظارات وعلى رأسه خوذة
سوداء. باتت سرعة الدراجة تزداد كلما اقتربت من
الشاحنة. أخذ الشاب يلوح بيده من بعيد. توقفت
الشاحنة على بعد ثمان كلمترات من المدينة. تحدث
الإبن مع أبيه بضع كلمات غيرت على أثرها الشاحنة
اتجاه رأسها صوب طريق أخرى أكثر خطورة. كان
خلال هذه الرحلة الجديدة يمسك بالعمود المعدني
يخشى السقوط؛ تصعد الشاحنة وتنزل بقوة ومعها
تتطاير الأجسام أمامه على ظهرها كأنه هروب في
فيلم داخل أدغال أفريقيا المرعبة. سأل أحدهم عن
سبب ما يحدث فأخبره بوجود دورية للدرك الملكي
ترابط غير بعيد من المكان. إختار السائق هذه
المغامرة ولو على حساب أرواح هؤلاء
الناس. توقفت الشاحنة أخيرا واستطاع المعلم أن
يميز بين حبات الغبار صاحبها وهو يطلب منه
معتذرا، السير لبضع كيلومترات مشيا على
قدميه. كان يكثر من استعمال كلمة فقيه. في هذا
اليوم، علم المعلم أي نوع من الناس كان وكان
هؤلاء القرويون البسطاء. قرويون لم يكن يعبأ

لحالهم أحد.قرويون يقطعون هذه المسافة عند كل مناسبة ثم ينسحبون إلى الجبل يكابدون على أمل أن يفتن أحد ما لأنينهم تحت رحمة ظروف ذلك المرتفع، وأزيز شاحنة زرقاء قديمة؛وسائق استطاع أن يتحكم في تلك الطريق ويروضها لسنين بعد أن بلغت به الشيخوخة ما بلغت،وتركت عليه السنون آثارا لا تزول.

وتمضي به الأيام في ذلك الجبل،جبل بوخوالي الموحش وحيدا بين أناس كانوا يحسون بالوحدة.إنعزلت بهم الطبيعة في ذلك المكان القفر وسنوات الجفاف لم ترحم صغيرهم ولا وقرت كبيرهم.لم يكن يجد ما يضيء به الغرفة غير ما كانت تجود به دموع الشمعة في تلك الليالي الطويلات الباردة.في ذلك الليل من فبراير خمسة وثمانين وتسعمائة و ألف،بعد تناول طعام العشاء،ولم يكن صديقه المرحوم عبدالرزاق يتناول منه كثيرا،.كان مريضا،وكان البرد القارس القارس بحكم ارتفاع المنطقة يزيده ألما. صار يبعث فيهما الدفء بقنينة ماء ساخن يضعها أسفل قدميه في ذلك الليل الذي لم يكن من مؤنس فيه غير الصبر

وانتظار الفرج،اتفقا والليل قد نما ظلامه واشتدت
حلكته أن يخرجنا إلى ساحة المدرسة عسى أن يجدا
لهما من التسلية في تلك الأوقات القاسية
مغنا؛فما ألقيا غير باب المنزل القديم الذي كانا
يسكنانه وسيلة لبلوغ ذلك.كان المعلم خلال
دراسته الثانوية قد اكتسب قليلا من فن الضرب
على الطبل"لعلوي"-كما هو معروف في شرق
المغرب-إبان تلك الليالي التي كان التلاميذ يداوون
فيها جراح البرد والجوع والشوق بالرقص على
صدى أنغام القرع على أبواب حجرات
الدرس.أمسك بباب المنزل القديم ثم صار يعزف
عليها ألوانا من فن "لعلوي"،بينما انطلق صديقه
يرقص محركا رجله المريضة لعلها تحظى بقسط
من الدفء تناله من خلال تلك الحركات.كان ساعة
ذاك يصيح معبرا عن انسجامه مع تلك الموسيقى
والناس في أعلى الجبل نيام.كم كان رقصه جميلا
وهو يمسك بالعصا!يتلاعب بكتفيه المرتجتين
ويلوي جسده مستجيبا لوقع ذلك الطبل.حتى إذا
بلغ بهما العياء شوطا بعيدا،ودنا الليل أكثر من
الصبح القريب،سارا إلى غرفتيهما وخلدا إلى
النوم.كان صديقه قد رزق بابن سماه"طه"،واسمه

الأول "حسين"؛ كان يفتخر بذلك ويقول "على الأقل سيكون لابني اسم كاسم عميد الأدب العربي" كان يردد دائما: "أتمنى أن يدرس ابني فيصير بالفعل" طه حسين". مات الصديق وبقي أبنائه ومنهم "طه" على أمل أن يصير له شأن عظيم كما أراد له أبوه. فهل للطفل "طه" خبر بما عاناه أبوه في ذلك الجبل مع البرد والمرض؟ وهل يعلم "طه" أن في قلب أبيه، كانت رغبة يتمنى عليه تحقيقها. رغبة أن يصير لابنه شأن كما كان لعميد الأدب العربي "طه حسين"؟

في تلك الليلة من رمضان، وقد اشتد الحر من شهر يونيو، وقفت هناك تودعه. لم ير منها إلا ما كانت تجود به عليه من خير ورعاية طيلة السنوات الثلاث التي أمضاها هناك. قبل رأسها -رحمها الله- وطلب منها أن تسامحه. قالها بلهجة أهل البلد، ثم انصرف يبكي في تلك الظلمة وكأنه ودع أمه. كان يبكي طول الطريق وفي يده قنينة لبن حملته إياها المرأة لصديقه المريض. عبر تلك الجبال التي كان يعرفها جيدا وتعرفه، ظلت صورتها مطبوعة في مفكرته، عالقة بذهنه لا تبرحه. لم ير قط وجهها. لكن

ذلك الجسد الذي يحتوي تلك اليدين اللتين ما فتئتا تقدمان له الطعام، لم يغفل عقله عن تذكره أبدا. كان ابنها إلى جانبها حين ودعهما. كان ذلك الوداع آخر عهد له بالجبل. آخر عهد له بأسراره. في تلك الساعة المتأخرة من ذلك الليل الرمضاني، وحين حلت الساعة الثانية من صباح الثلاثين من يونيو من عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف، إنتهت مغامراته على ذلك الجبل. وصارت كل دقيقة وكل يوم وشهر وسنة و كل فعل أو ردة فعل عليه طيلة تلك المدة الطويلة، صار كل ذلك مجرد صور للذكرى والإعتبار .

كان تيمح منشغلا طول الوقت بما يحدث في أسرته. حكى ذات مساء يقول: "خطبت شابة منذ عام، وعلي اليوم أن أعقد قراني. كان والداي يرغبان في تزويجي منذ سنوات بسبب مرض أمي. كان وجود امرأة تساعد على تدبير شؤون البيت خلال هذه الفترة أمرا ضروريا. ظهر الصراع جليا، واحتدم الخلاف بين كبار العائلة حول نوع المرأة التي سيتم جلبها إلى هذا البيت.. كان أبي يرغب في تزويجي من بنت أحد أصدقاء عمره من أبناء القرية. أرادت أمي

أن تبحث عن فتاة تساعدك وتقف إلى جانبك ساعة العسرة. لكن، يجب ألا تخضع الشابة إلا لأوامرها. بينما رأت جدي أن تزوجني من إحدى بنات ابنتها أو بنات بناتها. كانت عملية البيع والشراء والأخذ والرد في هذا الأمر نشطة جدا. أصبحت كل جهة تدفع ببضاعتها، تبدي محاسنها ومساوئ الأخباريات؛ ليس حبا فيّ؛ بل على الأرجح طمعا في ما يملك أبي. لم يكن الأمر وليد ذلك العام أو العام الذي قبله، بل منذ كنت صبيا في الابتدائي، لا، بل منذ أن ولدت تلك الفتاة لأبيها. طلبها أبي من والدها وهي لا تزال في المهد رضية. ربما ألفت عليها أمي منديلا أو قطعة من قماش وهي في حضن أمها لا تعلم من أمرها شيئا. لقد جرت العادة عند أهل البلد أن يفعلوا ذلك كلما ولدت لهم فتاة. يتسابقون إلى اختيارها ووضع اليد عليها حتى لا يتمكن أيا كان من خطبة فوق خطبتهم. ظلت رؤيتي لها أمرا ممنوعا عليها. ففي ذلك الزمان، لم يكن مسموحا للفتاة رؤية خطيبها حتى ولو كانت الخطبة عرفية أو من نسج خيال الأبوين. ما كان يحق لها النظر في وجهي ولا التحدث إلي. حتى يوم قابلتها صدفة، انسحبت بسرعة. كان علي أن أكون زوجها دون أن أعرف عنها أو تعرف

عني شيئاً. يخيظ الوالدان الرباط، وما على الأبناء إلا أن يلبسوا ثوبه أياً كان مقاسه. هذا ما شاع داخل المجتمع الصغير ذاك، على ذلك الزمان. أردت أن أخبرها بأمر هام، أن أقطع دابر تلك العادة السيئة التي تعارفها الناس حتى جعلوها مقدسة، وظلت تقيد حركة الفتيات وتفرض عليهن الأمر الواقع لسنين. أردت أن أقول لها أنني لا أراها زوجة بل أختاً. سيحررها هذا تماماً ويحررني. لكنها تركتني وذهبت مذهولة مسرعة. هي أيضاً مثل يمامة، ارتكبت خطيئة. أخبرت أمها أنني حاولت أن أكلمها فوبختها بشدة. لقد اعتقدت أنها هي من سمحت لي بلقائها. تمننت لو أن بنتها دخلت جوف الأرض أو طارت إلى أعالي الأجواء ولم تنظر إلي، ولم تكلمني. لقد ارتكبت خطأ فادحاً تلك الفتاة. لكن ذلك اليوم، كان فارقاً في حياتنا؛ يومها وضع الطريق أمامنا معاً. لم أعد لها وما عادت لي. احترقت تلك القطعة من القماش التي ظلت الأسرتان تتمسكان باعتقادهما ببركاتها وقدرتها على فرض الأمر الواقع علينا. وضعت جدتي "فيتو" على تزويجي من غير من تختارهن بنفسها. كان لي رأي آخر في الأمر. إن لم يكن للهرب من بد، فإنني كنت

أرغب في امرأة خارج ما يقترح علي أولئك المتنافسون جميعهم.تزايد الخلاف حول الموضوع حدة داخل تلك الأسرة.لقد زجت بنفسي في ذلك الصراع يوم أردت الزواج من غير بنات العائلة أو حتى من غير بنات بلدتي.أضحت أمي مرضها يزداد ويضغط أكثر في اتجاه التعجيل بتزويجي من أي شابة دون أي اعتبار"" .سكت تيمح وقد عادت به الذاكرة الى الورا قليلا ثم استرسل يسرد ما فات : "كنت أقرأ رسالة من والدي وأنا هناك في الجبل على عتبة ذلك المنزل الذي شاء القدر أن يؤويني لسنين.اقترح علي يومها اسما لفتاة من أسرة في البلدة.شرح لي كل شيء:"أنها شابة يسهل التحكم بها.تنفذ كل ما يطلب منها دون مناقشة.أسرتها تحترم وضع ابنتها الجديد وكذا قانون الأسرة التي ستنتقل إليها".هذا ما كان يريده الوالدان في ذلك الوقت ،وعند كل الأسر عموما.قرأت الرسالة يغمرني حزن شديد.كنت مضطربا جدا.كدت أمزق الورقة بين يدي غضبا..جلست هناك وحيدا وتلك الرسالة؛ بدت الأعشاب أمامي شاحبة حزينة تتمايل ونسيم أواخر أبريل.كان أبي جادا فيما كتب.لا مجال لامرأة أخرى خارج ما يرى". في بلدته،تخطب الأم لابنها عروسا

على مقاسها. ترسل "المُعَايِنَة" إلى بيت العروس فتأتيها بكل التفاصيل عن مظهرها الخارجي، عن قدها وقوامها وجمالها، كما عن بعض الأحاسيس تجاه ابنها. قال وقد استبد به الضجر: "فكرت في الرد على أبي، لكن الأمر صعب علي وأنا الذي لم أجراً قط على مناقشته حتى في أبسط الأمور. ماذا سأقول له؟ أخبره برفضه؟ أم أطلب استبدالها بأخرى؟ أم أقبل على مضض؟"

عاد إلى الغرفة والليل قد جن جنونه وسال ظلامه. نظر إلى الأعلى، إلى سقفاها. هناك، وقفت سحلية ملونة تزحف عبر الحائط تشمئز النفس من منظرها المقرف. زادت لهمه غما ولاضطرابه هياجاً. أضحى يخاف تلك الحشرات، يكرهها منذ أن رأى ما فعلت بجده ذات يوم. أصبح ضوء الشمعة ضعيفاً جداً. فكر طول الليل في ما سيفعله في الغد. قرر أن يكتب لأبيه. لكن الرسالة بقيت في محفظته لثلاثة أشهر قبل أن يطويها النسيان إلى الأبد. لم يبعثها. لم يستطع فعل ذلك.

في الصيف الذي تلا تلك الرسالة، كان يتردد على ذلك المنزل. كانت هناك، فتاة يتيمة، ماتت أمها وهي

في ربيعها العاشر. لقد رآها ذات مساء أمام موقد قد أزهرت النيران فيه وتعالَت أغصان لهيبتها. في ذات مساء من أيام الشتاء، جلست هناك قبالة تمديد يديها لتتال قسطاً من دفء بين أيادٍ كُثُر. نظر إليها ونظرت إليه ملياً. ربما أحسا منذ ذلك المساء أنهما فعلاً أصبحا حرين. خرج يومها وفي قناعته أنه وجد الطريق. -أصبحت تصرفاته تبعث القلق في نفس أمه التي أحبته حتى ذلك اليوم. لن تحبه بعد ذلك. باتت نظرتها إليه اليوم مغايرة. تم العرس في بداية الشهر السابع من ذلك العام. حضر الجميع إلا الجدة. لم تكن راضية. ما كانت لتبارك ذلك الزفاف وهي ترى غير بنات ابنها أو بنات بناتها تتربعن عرش تلك الأسرة. لم يمض وقت طويل حتى ظهر الشنآن واضحاً بين الأم وابنها. كم تمنى ألا يتكرر ما حدث في عائلته بالقرية بين أمه وجدته. كم طمع ألا تنظر أمه إلى زوجته بنفس النظرة التي طبعت العلاقة بينها وبين جدته سابقاً. لقد طمح جداً إلى أن تتجاوزا عقليات الماضي وطرق التفكير البائدة التي غذاها الجهل والأمية والعادات المتسلطة. لكن موروث الماضي غلب كل مطمح له وكل أمل في تغيير عقليتهما. فأَي انفراد في الحديث بين الزوجين، يُقابل

بالشك والريبة و بظنون تثير ثورتها. كانت أمه امرأة محافظة تخاف أن تتحكم به زوجته، تخاف أن يفقد ابنها شخصيته أمام تلك الشابة. تحسب كل حركة يتحركها هي أمر منها. غاب عنها ما كانت تكرهه من جدته في القرية.. لقد شق عليها الإيمان بشخصية ابنها وبثقافته التي كان لها الدور الأعظم في اكتسابه لها، وصار من نتائجها حبه للتحرر مما عاشته هي من أثر تلك العادات والتقاليد البغيضة التي طالما حبستها وآلمتها وأبكتها وجعلت حياتها جحيما.

صباح مختلف

خرج تيمح وزوجته من المنزل باكرا وصلاة الفجر. كانت الجدة في توديعهما عند الباب الخارجي للمنزل. كرر التاريخ أحداثه بصور واضحة. صارت ترفع يدها مودعة دون دموع. في يده حقيبة بها بعض من ثوب زوجته، وعلى اليد الأخرى غطاء سرير اقتناه قبل عرسه بأيام. سارا تحت أنوار الشارع الكاشفة بعد أن عبرا شارع الحسن الثاني. كان بعض المصلين هناك. سارا عبر زقاق ضيق أوصلهما إلى شارع المسيرة الخضراء. كان عريضا طويلا مظلما

تدب فيه حركة خفيفة للمسافرين تتصاعد على مهل مع إطلالة الصباح المحتشمة. كانت كلاب ضالة تجوب المكان تبحث في صناديق القمامة عن فضلات طعام. ركبا الناقلة ولم يلتفتا إلى الخلف بعد ذلك. كانت أياما قاسية على الجميع. سيستيقظ الكل على صباح مختلف. وجد تيمح نفسه وزوجته الشابة الحامل وراتبه الهزيل أمام دنيا جديدة سيعتمد فيها على نفسه كليا. سيواجه المتاعب بمفرده. هو يعرف أن أمه ستظل تبكي لسنين عديدة بسبب ما وقع. يعرف أن فراقه سيؤلم إخوته. سيكرهونه. لكنه يتذكر اليوم الذي غادر فيه المنزل بالبلدة على ظهر جدته. يعرف أن جدته بكت، دمعت عيناها بعدها لسنين عديدة أيضا. ربما أخطأت جدته التقدير يومها. ربما كانت هي من تسببت في هجر ابنها للقرية. واليوم هاهي عروسها أم تيمح أيضا تخطئ التقدير وتتسبب في نفس المأساة. هي أيضا لم تحسن التصرف. قد يعود خطؤها إلى أميتها وجهلها وحبها الزائد لابنها. وهاهو الزمن يكرر أحداثه ولو بصور مختلفة. قد يكون تيمح أخطأ هو أيضا بسبب تحرره الزائد عن العادات

وتقاليد الأسرة. قد يكون أبوه مخطئ كذلك وهو الذي تسرع في إبعاد ابنه. لم يفكر مليا قبل اتخاذ قراره. لم يكلمه حتى ليعرف ما حدث. عندما خرج من بلدته "ايش" لم يكن أبوه حيا فيطرده. هو من أثر الخروج وترك أمه وترك أخيه وأخواته. كان يرى في خروجه منفعة لأبنائه. رأى أن يمكّنهم من العلم.. كان العلم والتعلم على ذلك العهد يمثل قيمة القيم. وظل التفاضل بالعلم ميزة أساسية عند ذلك المجتمع الناشئ. لقد تصرف يومها مدفوعا بمصلحة رآها. لم يعبا لدموع أمه. لم يعد إلى بلدته بعد ذلك أبدا. كان أبنائه سيكبرون وقد تعلموا فلاحا الأرض، وقد تدربوا على رعي الشاء. وقد تشبعوا من أخلاق بلدتهم. كانوا سيكبرون تحت الظلال الممدودة، وبين أحضان ماء الوادي. يأكلون من ثمر تلك الجنة.... اختار الخروج والمغادرة. لكنه اليوم ها هو يعيب على ابنه لأنه قام بمثل ما قام به هو ذات يوم. لقد تعارف الناس على أن "من شبه أباه ما ظلم". و تيمح لم يفعل إلا مثل ما فعل أبوه منذ ثمانية عشرة عاما خلت. ما قام بذلك عن قصد، وما خطط له. خرج لأجل مصلحة اقتنع بها. أحب الإبتعاد

اتقاء ما قد يغضب والديه.ربما خالجت نفسه مصلحة أخرى حين كره أن يعيش أبناءه وسط تلك التناقضات التي سادت أسرته والمجتمع الذي يحتويها، وأبرزها الإيمان ببركات المشعوذين، إضافة إلى الكرم الزائد لأبيه.ظل هذا المنزل محجاً لكل أبناء البلد وخصوصاً من أفراد العائلة والأصحاب.لا يشعر فيه المرء بانتظام الزمن أمام زياراتهم.تمّ تلخيص دور المرأة فيه في القيام بواجبات المطبخ على مدار الساعة.لم ينس لهؤلاء الأهل ولا لأولئك الأصحاب تهكمهم وسخريتهم منه في تلك الظهيرة وهم يتناولون وجبة غذاء في داره عند قدم جبل بالمدينة.كانت داراً قديمة.سقفها من صفيح.تجمع هؤلاء واستعدوا للتهام الطعام التهاماً،قدم لهم تيمح ماء لغسل أيديهم،وما كاد يبدأ حتى امتلأ المكان بصخب قهقهاتهم وكلامهم الجارج،فقط، لأن الطفل كان مزهوا بساعة من لدائن اشتترتها له أمه بمناسبة نجاحه في امتحان الدور الأول من سنته الثانية في الابتدائي.كانت ساعة جميلة.شكل جسمها استدارة رائعة فوق ساعده الأيسر.عقاربها ملونة.رآها بحزام رفيع تحيط

بمعصمه النحيف الأبيض وقد زانتته كثيرا.لكن هؤلاء
يومها قلبوا فرحة الصغير تيمح بها نغصا.انتزعها
وضرب بها عرض الأرض دون أن تفلح أمه في لجم
دموعه السائلة حزنا واغتياظا. لم يسلم عليهم،بل
غادر إلى المدرسة حيث ينتظره حدث لا يمكن أن
يخبر به أحدا أبدا-بات المنزل أيضا وكرا للمشاكل
بكل تجلياتها بين الجدة وعروسها لأتفه الأسباب.كان
استعمال آنية لسقي نعاج كانت تربي في جانب من
المنزل اتخذته الأسرة حظيرة وهي تحتفظ ببعض
مظاهر البدو حتى بعد انتقالها إلى المدينة-بضع
نعجات وعنزة وخروف للعيد المقبل-كان ذلك كافيا
ليجعل ذاك النهار مأساويا.عصفت رياح ،وزمجرت
رعود تحت ذلك السقف الذي شاءت الأقدار أن
يجمع المرأتين تحته.كانت مجرد آنية قديمة ملقاة
في مكان ما بالدار.لكن استعمالها كان كافيا لإثارة
أحقاد الماضي.ظهر كل شيء فجأة. ففي ذلك الزمن
البعيد في قرينته الصغيرة،كانت الجدات يتربصن
بعرائس أبنائهن.كن يقتنصن كل فرصة للإيقاع
بهن.كن يشتكينهن لأزواجهن لأبسط الأسباب.كان
يكفي الجدة أن تبكي أمام أبنها،أن تبدي

وجوما، ليفهم ابنها ويصب جام غضبه على زوجته. يسبها، يشتمها، يعيرها بأقبح النعوت ويضربها حتى يدمي جسدها؛ بينما الجدات يشاهدن أو يسمعن مفتخرات برجولة أبنائهن ثم ينتظرن بعد ذلك أن تعتذر العروس بتقبيل رؤوسهن وأقدامهن. تمثلت الرجولة آنذاك في أن يذل الرجل زوجته أمام أمه فتتكفى مذمومة مدحورة وتنتصر الجدة وتزداد تسلطا. انقلبت الأمور اليوم. تراكمت بين المرأتين مشاكل بالجملة أدت إلى التنافر بينهما فكانتا سببا مباشرا في ما تعتقدان أنه تشتيت لشمل أسرتهما. فهم تيمح بعدها بسنين أن أمه وزوجته أو حتى بنته وأخته، لسن إلا صورة منسوخة عن جدته. وأن كل واحدة منهن، كان لها أن تتصرف بمثل ما قامت به جدته اذا استشعرت خطرا يتهدد مملكتها الصغيرة ولو على سبيل الشك فقط. وأن هؤلاء كلهن وجه لامرأة واحدة سواء نهلت من العلم منهلا أو كانت جاهلة أمية حين يتعلق الأمر بحياتها الأسرية، بعواطفها. العقل عندها لا يستطيع التحكم في غيرتها. وأنها لا تبالي إن دفعتها تلك الغيرة إلى ارتكاب الخطأ كما حدث لجدته من قبل ولأمه من

بعدها. وفهم تيمح أن أباه كان رجلا بكل معاني الكلمة. رجلا في تصرفاته مع أمه ومع جدته، ورجلا حين رباه بالوسائل التي أملاها عليه عقله آنذاك، ورأها صحيحة في توجيه ابنه التوجيه السليم الذي ضبط سلوكه وجنبه الكثير من الأخطاء في حياته. فهم أنه إن كانت الجنة تحت أقدام أمه، فإنها أيضا بين يدي أبيه اللتين علمتاه وحصنتاه وأنارتا دروب الحياة أمامه.

مكيدة

وصل إلى مكان عمله صبيحة ذلك اليوم من شتمبر والعام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف ينحو نحو الأفول. أخبره المدير أن عليه أن يغادر إلى مدرسة أخرى. لم يعد له مكان في هذه المدرسة التي عمل بها لسنتين قادمًا إليها من الجبل. وجد زملاءه هناك على فُرقة وخلاف. استطاع المدير أن يجعل من العاملين بها خصمين. فريق خاضع معه وآخر متمرد عليه. لم يجد المعلم بدا من الإرتباط بالفريقين. فهو ضيف على المدينة وعلى المدرسة. ونظرته إليهم متساوية. لكن مدير المدرسة كان ينظر إلى الأمور

بعين مغايرة. طلب منه في أكثر من مناسبة الإنحياز إلى فريقه. استضافه ذات يوم والوقت زوال إلى طعام الغذاء في غرفة كان يكثرها بأحد فنادق المدينة. قالها بملء فيه وهما على المائدة: "يجب أن لا تجالس فلانا وفلانا و فلانا وإلا...". حاول المعلم فهم كلماته وإقناعه بأن لا دخل له في ما بينهم من شأن. حاول كثيرا أن يكون وسيط صلح بين الفريقين لا شيطان فرقة. لكن الرجل مال إلى التعنت والانتقام جنوحا. ظهرت بدايات انتقامه جلية بعد إصابة ذلك التلميذ "ميمون" في يده. كانت ساحة المدرسة واسعة مفتوحة لا سور يحيط بها؛ وكان على المعلم أن يقوم بنوبته من الحراسة مع أحد الزملاء الموالين للمدير. إتفقا أن يحرس الجانب المفتوح من المدرسة، على أن يقوم زميله بحراسة الأقسام والجانب القريب منها. كانت "ليلى" و"تورية" تلعبان داخل القسم دون أن ينتبه لهما الزميل الذي كان في جلسة حوار مع المدير وباقي فريقه. كان "ميمون" يضع أصبعيه بين الباب وإطارها، فإذا ب"ليلى" تغلقها مانعة صديقتها من الخروج وهما في قمة انتشائهما باللعب، وهي لا تعلم أنها تسببت في قطع جانب

من أصبعي صديقها في الفصل.نادى المدير على المعلم وشرع يوبخه بكلمات نابية عن تقصيره في الحراسة،بينما طفق زميله يزيد الطين ابتلالا،يحملة كامل المسؤولية.طلب منه المدير أن يصطحب التلميذ إلى المستوصف المحلي حيث أمر الطبيب بأن يُنقل إلى المستشفى الكبير.رأى أن يرافقه رفقا به واستحياء ومعه أحد أقاربه.

في المستشفى،ظل يستجدي عون كل من يمكن أن يقدم العلاج لذلك الصغير.كان ينظر إليه وهو يتألم.كان الجزء الأعلى من أصبعيه يسيل ماء وقد فصلا عن بقية الأصبعين إلا قليلا من الجلد يمسكهما.كانت أربع ساعات من الانتظار طويلة جدا أمام درجة إحساسه بالألم وأمام لا مبالة لمسها المعلم هناك يومها.مرت ممرضة بالمكان فجأة،تقدم نحوها وسألها:"أما من أحد يبادر إلى مداواة هذا التلميذ من فضلك؟سألت:"من أي المدن هو؟ولأي مدرسة ينتمي؟أجاب المعلم بسرعة:"من مدينة كذا..ومدرسة كذا".سألته الممرضة مرة أخرى"هل تعرف المعلمة تورية؟أجاب بسرعة"نعم إنها زميلتي.إنها طيبة

للغاية".أخذت الممرضة سماعة هاتف كانت على حائط بالردهة ثم تحدثت إلى أحدهم.في التو واللحظة،ناداه أحدهم وقد خرج من السلم الآلي قائلا:"تعال.هل التلميذ من مدرسة النجود...؟أجاب بالإيجاب.دبت حركة سريعة نقلت التلميذ عبر ممرات طويلة إلى أماكن متعددة من المشفى.أدى المعلم ثمن الأشعة،واشترى بطلب من أحد الأطباء الجبص الطبي وأدوية أخرى.وأجريت العملية للتلميذ بنجاح.لما كانت الثامنة مساء،نزلوا من سيارة الأجرة التي أقلتهم عودة،وما كاد يضع قدمه على أرضية الرصيف حتى بادرت أم الطفل:"أين إبني؟ماذا فعلت بإبني ؟ماذا فعلت بإبني؟ما أعجبه زمنا!بدل أن تشكر المعلم على تضحيته،صارت تعاتبه وتلومه.في الغد كان المدير وفريقه في انتظاره ليقدم تقريرا عما قام به بالأمس.لم يأبه أحد منهم للجهد الذي قدمه خلال ذلك اليوم الطويل،ولا لما صرف من مال.لم يعر أحد اهتماما لما قالت أم الطفل ليلتها.أوهم المدير أسرة التلميذ أن معلمه كان مسؤولا عما حدث لابنها بسبب إهماله،وطلب منهم الضغط عليه لأداء مصاريف الدواء طيلة مدة العلاج.صار أفراد

الأسرة يترددون عليه لتحصيله مدعين أن جرح ابنهم يتعفن. وهو على تلك الحال لثلاثة أشهر بعد الحادث، أنبأه أحد الزملاء أن الأمر لا يعدو كونه مكيدة دبرها المدير للإيقاع به، و نصحه بالإحتجاج عليه. ما أن تناول المعلم الموضوع حتى صار المدير يتلعثم، يتمتم وقد فقد توازنه مرتعد اليدين، تعلو وجهه صفرة وهو يردد: "إذا عاودت الأسرة طلبها، أخبرني دون إبطاء وسوف ترى". انقطع الحديث عن هذه الحادثة من يومها. كان ذلك من عمل المدير كيدا وانتقاما من هذا المعلم حبا في ثنيه عن مجرد الحديث مع خصومه. اليوم لم يعد له مكان في تلك المدرسة. لقد أحكم المدير مكيدته القذرة وغير من مجرى حياته. ظل لأسبوعين يتردد على إحدى المجموعات المدرسية والإيصال بالمسؤولين الذين كادوا يلقون به في أحضان البادية من جديد، فيبدأ فصلا جديدا من المعاناة، لكن الحال استقرت به في مدرسة أخرى كمدرس للغة الفرنسية. أي خلق ذاك الذي تتملك فيه الرغبة في الإنتقام نفس صاحبها ليؤثر سلبا على حياة الناس؟ تعلم يومها درسا آخر في العلاقات بين

الناس.تعرف عن قرب إلى أنواع أخرى من النفس البشرية الأمانة بالسوء.

إفترش ورقا مقوى وقطعة لدائن في ليال معدودات تلت استقراره بالمدينة وزوجته.إلتحف الغطاء الوحيد الذي اصطحبه يوم خرج من بيت أبيه مطرودا.كان البرد قارسا تلك الأيام من شهر نوفمبر.خرج من بيت أبيه مدينا للكثيرين.أصبح غير قادر على التعامل مع هذه الجال الجديدة.أصبح جبل المعاناة يلتف حول عنقه ويدفع إلى خنقه.لم يجد من يقف إلى جانبه في محنته سوى عائلة جزائرية كانت تملك فندقا قديما بالمدينة من "آل عبيد".فندق التجارة.يقطنه موظفون عذب ينتسبون لعائلات من خارج المدينة.به مقهى ايضا وقاعة للفيديو بمثابة سينما المدينة.يلجها أشخاص من كل الأعمار.أغلب مرتاديه من المعلمين..

في ذلك اليوم الذي سيصبح فيه أبا،كانت الخامسة صباحا من اليوم الأول من شهر مايو والناس صيام،أحضر القابلة "مسعودة"،وكانت امرأة مشهورة جدا في تلك المدينة.كانت جدة الكثيرين من أبنائها.كانت ملونة مثل "حنا سول".لكن في

هذه المدينة لم يوجد محتجزون داخل الصخرة فينقذهم ذبحها.عجيب أمرها من أيام أعادت نفسها من جديد.أي صدفة تلك التي تكون فيها مولدة قرите ومولدة هذه المدينة من الملونات؟أي صدفة تلك التي جعلت منهن امرأتين غريبتين عن قرите وعن المدينة التي تحتضنه ؟ أي صدفة تلك التي جعلتهما تتحدثان قليلا من لهجة أهل قرите ؟ظلت النسوة من أسرة"ال عبيد"في حركة دائبة يساعدن القابلة ويقدمن لها كل ما يساعدها على إتمام عملية الولادة بسلام.لم تستطع القابلة فعل أي شيء.خانتها تجربتها مع هذه الشابة.يوم رمضاني كامل من الإنتظار والسعي المضني دون نتيجة.حلت السادسة تجر معها المساء،أسرع يستشير خبيرا في التوليد من الممرضين بالمستوصف المحلي.بعد المعاينة،أخبره الرجل أن الجنين ميت داخل رحم أمه،والأمر يتطلب عملية جراحية عاجلة.زاد ذلك من الضغوط عليه.ماذا يفعل والليل على الابواب؟لم يتناول من طعام الإفطار إلا القليل.لا مال عنده فيساعده على التحرك.كادت الحيرة تتلف أعصابه.كان عبد النبي تاجر ملابس بالمدينة على حافة زاوية من الشارع الرئيسي.كانا

صديقين.أظهر الرجل تفهما و اهتماما كبيرا بذلك المشكل..لم تتوفر سيارة الإسعاف ليلتها بسبب عطل ألم بها و انشغال سائقها.إزداد الأمر سوءا.فالجنيين ميت حسب ما يرى الممرض،وهذا يشكل خطرا على الأم؛و لا شيء يدعو إلى القلق بعدُ حسب ما تقول مسعودة القابلة،عدا عدم توفر وسيلة النقل. نقل المعلم زوجته إلى مستوصف المدينة،ثم ركبوا بعدها سيارة أجرة إلى المستشفى الكبير بوجودة وهمُّهم إنقاذ الشابة من خطر موت محقق.كان يخشى أن تتكرر معها مأساة تلك الشابة في الجبل،وتلك الشابة في قريته منذ عشرين عاما.خطر بباله صوت نحيب "محبوبة"على ابنتها.وتواردت عليه صور ذلك الجمع من الرجال وهم يفكرون في طريقة نقل تلك الشابة من ذلك الجبل.كانت حيلتهم منعدمة أمام ظروف الجبل القاسية كما كربت حيلته تنعدم لولا ما أقدم عليه عبد النبي.استعجل السائق بغية الوصول في أقرب وقت.دخلوا غرفة المستعجلات و الوقت ليل قد انتصف.لكن،لاسبيل لإدخال المرأة إلى غرفة التوليد.هناك،في الردهة الموصلة إلى الغرف التي تحتضن المرضى،كان جمع غفير من الناس

يقفون، يملؤون المكان، يغلقون كل منفذ. أراد جلب عربة صغيرة ينقل عليها المرأة إلى داخل المشفى، لكنه فشل. صار يستجدي كل ممرض يمر به، لكن الأمر بدا مستعصيا. لقد كان الكل منشغلا. صار ألم المرأة يزداد ومرور ثواني و دقائق تلك الساعات الفاصلة. أمر فطيع للغاية ذلك الذي لم يسمح بالإهتمام بأي شيء أو بأي شخص أو حالة إلا بمجرياتة. ظهر الشخص يرقد هناك على أحد الأسيرّة محاطا بجنود و أمنيين. كانت أسرته هناك تنسقي دموعها المكان حزنا وأسى. وامرأة وقفت قريبا منه يكاد شهيقها يخمد أنفاسها من شدة ما تنوح. استطاع تيمح أن يتبين من بين تلك الأجسام الضخمة التي يزينها اللباس العسكري وجه ذلك الشاب الذي تمدد جسده وقد نال منه الموت كل منال. حضرت العربة أخيرا بعد جهد جهيد وتدخلات من هنا ومن هناك، وتوسلات لهذا ولذاك، طارت بالمرأة أمام ذلك الحشد وعبرت بها ممرات طويلة إلى غرفة العمليات. ممرات بيضاء لا تنقطع حركتها. كان الضحية يعمل تاجرا قرب الحدود حين أردته دورية جزائرية قتيلا قد تمزق بطنه وخرجت أحشائه. سافرت به ذاكرته وسط تلك الزحمة وعبر

تلك الممرات إلى قريته إيش. إلى موت أخيه على حافة جرف هناك. إلى محمد أويحي على الحدود. إلى جدته وهي تغني راوالي حمو يحيى راوالي. إلى ذلك العقيد الجزائري الذي هاجم منزل العائلة. إلى صور تلك الطائرات الجزائرية وهي تحلق فوق إعداديته بفجيج، ليتوقف كل شيء عند تلك الأسرة ذات الأصول الجزائرية التي وقفت إلى جانبه وساعدت زوجته إلى أن رزقت بمولودة : " سلمى ". يومها، انتصرت التجربة والخبرة على العلم حين صدق رأي مسعودة وخاب رأي ذلك الممرض الذي قتل الجنين قبل ميلاده.

لم يكن له حظ من الرزق في تلك المدينة. كان يرغب في تربية أبنائه بعد أن خرج بهم من حضن عائلته تربية تقيهم تقلبات الحياة و تبدل أحوال أهلها. أراد أن يعلمهم علما نافعا. أن يدرّبهم تدريبا يمكنهم من تدبير حياتهم المستقبلية في خضم مجتمع يتطور باستمرار وبسرعة. لم تغب ساحة "أسهوو" التجارية عن باله أبدا. فكر في تدريب أبنائه على التجارة خوفا عليهم من قلة فرص الإجارة بعد أن يتّموا دراستهم. قد يغدر الزمان به أو بهم فيجدوا ما

يقاومون به تبدلاته. لم يتأخر غدر الزمان بتيمح. كان له موعد مع نصاب يتردد على مدرسته باستمرار. استعمل النصاب كل الإغراءات وقدم كل التسهيلات للإيقاع بضحيته. بسرعة البرق وقع تيمح في الفخ. أراد أن يشتري دكانا. قدم له النصاب قرضا مقابل توقيع وصل على بياض. أقنعه النصاب وطمأنه. وقع على الوثيقة كالأعمى. ومقابل امتلاكه للدكان، ذهب النصاب بقسط كبير من راتبه إلا قليلا. أمسى محتاجا إلى كل جهده ليعول أسرته. ثلاث سنوات طويلة قاسية صعبة. هل غدر الزمان به أم غدر به النصاب أم هل غدر بنفسه حين وثق به؟ أصبح معلما خضارا. معلما بقالا. معلما يخبط خبط عشواء عسى أن يوفر لقمة تستر جوع وظماً أبناءه الأربعة. كانوا صغارا لم يَخْبُرُوا الحياة بعد. لا يحسن به تركهم في الدكان. قد يتعرضون هم أيضا للنصب. بات لزاما عليه أن يواجه بمفرده. أصبح يصارع ما حل به بثبات. لا ينتظر من ساعات النهار وأوقاته إلا تلك التي يحتويها المساء.

كان "سي المدني" و"سي أحمد ميموني" شخصيتان مدته بالعون الذي استطاع به مواجهة تلك

الكارثة. كانا صديقين بل أخوين مداه بالعون في محنة حذراه من الوقوع في براثنها من قبل. كان "زاكورا" عين تمار" بقالا في السوق الجماعي بتلك المدينة الصغيرة. كان شابا شهما. وجد من الألم ما لا تطيقه نفس بشر. بنى تجارته بجهد وعرق جبين. أتقن البيع والشراء وتفنن فيهما. أحسن معاملة كل زبون. صبر كثيرا أمام ما اعترض سبيل نجاحه من مشقات. مسته من الظروف أقاساها ومن ألوان المعاناة أسودها ومن طعم العذابات مرها وهو شاب غريب عن المدينة. كان يملأ ذلك الركن من السوق بحديثه الشيق. يتحدث إلى أي كان بأسلوبه اللطيف المميز. أسلوب حديثٍ تنفتح له النفس وينشرح من وقعه على الروح صدر المكروب. كان أمازيغيا، في عروقه تجري نخوة الأطلس، كرم الأطلس، كبرياء الأطلس. لا يأتيه محتاج إلا كان له عوناً وملاذاً وسندا. يفرح سامعه وهو يهاتف أمه رحمها الله. كان يحبها كثيرا. ذهب إليه يومها مهموما قد بلغ من الابتئاس قمته، ومن القنوط نهايته، و من القلق ذروته. أخبره بما جرى. أخبره بضياح راتبه. أخبره أن أبناءه سيضيعون خلال السنوات الثلاث

القادمة. كان أبو فاروق وفيما لما التزم به معه. كان مصدر شعبهم خلال تلك السنوات العجاف. وجدته مثالا للنفس السمحة، وطنيا لم يرض لابن وطنه ولأبنائه الضياع. مؤمنا تجري قيم الدين بين يديه وعلى شفاهه. اجتماعيا لا يأتيه زبون إلا أكرمه. لم تكن بينهما ضمانة لهذا الوفاء إلا ما ربطهما من صداقة وما تحلى به كل واحد منهما من احترام لكلمته وعهده. ما انقطع الخير من يديه وما ينقطع. لقد كان شهما....

سكن تيمح وأبناؤه في منزل قديم من حجر وطين سقفه من خشب. جدرانه عريضة عالية. نوافذه صغيرة من خشب متآكل. كره "سي أحمد ميموني" أن يراه وأبناؤه يقاسون ويعانون. رحمه الله، كان من الصالحين. لا تفوته صلاة جامعة إلا أداها. ولا فَعَلَ خير- إن ألقى إليه سبيلا- إلا سعى إليه. جعله أبنا له وقد حرم أبناء من صلبه. كان مديرا للمدرسة التي انتقل إليها. أمضت المدرسة تحت إدارته عشر سنوات من الحيوية والنشاط والتآلف. رجل فنان، محب للرياضة، مثقف لا يفارق الكتاب يديه. مضيافا. صاحب نكتة. يؤم الناس في

الصلاة. هو من وضع اللبنة الأساسية لمسجد السوق الجماعي. كان تاجرا عارفا بكل تفاصيل التجارة. وهب تيمح ذلك المنزل ليستر فيه أبناءه. ليتخلص من مصاريف كراء منازل تثقل عاتقه. كان المنزل من غرفتين كبيرتين ومطبخ قديم وبهو. كان السقف مرتفعا عن أرضية الغرف بشكل غريب. منعزلا في مكان من حي قديم بالمدينة. يصله المرء عبر طريق غير معبدة. لا ماء ولا كهرباء فيه. عاد ذات ليلة من عند البقال "زاكورا" مزهوا بأغراض يجلبها لأبنائه ويأمل أن يفرحوا بها كثيرا. مشى في تلك الظلمة التي ساعدت الكثير من الكلاب الضالة والسكرارى على التجوال بحرية. وضع دراحته "الميني" على جانب الطريق، التقط حجارة طفق يضرب بها في كل اتجاه جماعة من كلاب مسعورة هاجمته بنباح لا ينقطع، ونظرات لا تضر له إلا شرا. بصعوبة تجاوز ذلك الموقف، دخل الدارفوجد زوجته قد لازمت إحدى زوايا المنزل تئن خائفة شاحبة الوجه. كان أبناءه الصغار يرتعدون فرقا مما رأوا، وعلى ما آل إليه حال أهمهم. كانت تهدي كمصاب بمس من الجن. كانت تشير إلى الجدار بأصبعها. شرع يسألها بصوت

مرتفع وسريع عما حدث. كان مضطربا غاضبا جدا، قلقا، مشتت الفكر. أراد أن يعرف الذي حدث، لكن إجاباتها كلها كانت إشارات غامضة بأصبعها إلى أعلى، إلى الحائط الذي يفصل المنزل عن دار أحد الجيران.

كان المساء، وشمس الغروب قد فارقت آخر نقطة على هضبة شرق المدينة؛ كانت جالسة في حوش الدار تداعب نباتات صغيرة نبتت في ركن منه؛ تقدم لها بين فينة وأخرى قطرات ماء ترويتها لعل أعناق غصيناتها تطول وتطول وتكبر وتكبر وتنمو نموا. ظهر من خلال ذلك الضوء الذي يسبق انتشار الظلام رأس امرأة كالشبح المخيف. ظهر وجهها مليئا بالدماء يغطيه شعرها الكثيف. تتشبث بالجدار بأصابع كمخالب كاسر أصابه الوهن. قالت المرأة الشبح "هيه هيه! أنت هناك، اسمعي" التفتت إليها جميلة مفزوعة، وقبل أن تسأل، تابع الشبح حديثه: "ضربني زوجي. ضرب رأسي على جدار الغرفة،. أنظري، إن أنفي ينزف بغزارة، ويسيل جبيني دما؛ إنه يحبسني داخل المنزل، سيقتلني.. أرجوك أطلبي من زوجك أن ينادي على أبي أو يخبر

الأمن. إنه يريد قتلي". قالت ذلك ثم انسحب رأسها ومازالت مخالبتها تنتشبت بجانب من الجدار حتى توارت يخفيها الظلام النازل. هل ضربت بحق أم كان ذلك مجرد خدعة لتعذيب تلك الأسرة انتقاما بسبب ما كان بينهما من خلاف؟ أظلت ذلك المساء بظلالها كالجنّي. بذلك المظهر البشع المخيف. أصابت الهلوسة أم الأطفال من جراء ذلك المنظر الرهيب الذي زينه حلول الليل بأقبح زينة. توقف ذهنه عن أي تفكير. فزوجته ملقاة على الأرض في زاوية من زوايا ذلك البيت القديم. كانت تهدي، تشخص ببصرها إلى ذلك المكان الذي غادره الشبح بعد أن أدى مهمته باقتدار. كانت تشير بأصبعها إلى وجود شيء ما هناك أعلى الجدار. ظلت تردد مرتعدة: "إنها هناك، إنها هناك، الدم، الدم، الدم". كان أطفاله صغارا لا حيلة لهم ولا قوة. هل عادت به الأيام إلى الوراثة؟ إلى قرينته؟ إلى ما أصاب أمه وذهب بعقلها وجعلها مجنونة تهدي. أخذ زوجته إلى المستوصف المحلي. حملها بين ذراعيه وقطع بها تلك الطريق التي بدت طويلة فارغة ليلتها، ملتوية مبلة. قدم لها الطبيب الرئيسي عقارا مهدئا ثم عاد بها تيمح فاقدة كل وعي. كان الوقت متأخرا جدا والحركة قد توقفت

تماما على كل المسالك داخل المدينة. كان المكان خاليا يبعث الخوف في النفس. كل أبنيته من أربعينيات القرن الماضي. نُقلت المرأة إلى بوعرفة لزيارة أحد الأولياء الصالحين الأحياء. كان "أمحمد أطيب" ممن امتلكوا سر مخاطبة الجن ووضع الطلاسم لإخراجهم من أجساد من مسوهم. نجت زوجة تيمح على يد ذلك الرجل الصالح. ظلت تلك الحادثة تطارد مخيلته لسنوات دون أن يفهم ما جرى. أحقا توجد مخلوقات تسكن أجساد الناس ويكون الخلاص منها بكلمات يلقيها هؤلاء الصالحون على مسامعهم؟ ما الذي يحدث عند دخول من مسته تلك المخلوقات إلى الأضرحة؟ ما الذي تجده تلك المخلوقات في تراب ضريح أو حجارته أو حتى في الفراغ داخله فيثيرها، ثم تكون ردة فعلها عنيفة على جسد المريض، ويضطرها أخيرا إلى الخروج منه؟ أو قد تشوه خلقته إلى الأبد، فيعجز الطب عن مداواته؛ ثم يضطر أهله إلى حمله إلى أحد الأضرحة، فيظهر تأثيرها واضحا يبعث في النفس العجب.

كان الشمع رقيق الأسرة في ليالي الشتاء الباردة. شمع يذرف طوال الليل دموعا لينير الغرفة لهؤلاء الأطفال حتى ينالوا نصيبهم من العلم. نام ذات ليلة بعد أن قرأ جزءا من كتاب بالفرنسية ورثه عن ليالي الوحدة في الجبل "لاج دو غيزون" سن الرشد. نام ونسي إطفاء شمعة كانت تجلي الحروف أمام عينيه، وبالْحائط المشقوق فتحة تتسرب منها نفحة من ريح إلى تلك الغرفة. وجدت الشمعة متنفسا لها من خلال تلك الفتحة وغذاء لنار فتيلها فتأجج لهيبه ومد ألسنته نحو فراشه وخزانة ملابسه فأضطرم؛ وهاهو يطال كل شيء. كانوا نائمين. شرع الدخان ينتشر رويدا رويدا ويلتهم ما تبقى من إمكانات للتنفس. ها هي النيران تمسك بخشب السقف تريد ابتلاعه. استفاقت "جميلة" كما كان يسميها وقد اخترق الدخان قنوات تنفسها وكاد يغلقها إلى الأبد. صاحت بزوجها توقظه. وخزته بقوة عدة مرات على كتفه. على كل ناحية من جسده. كان يغط في نوم ثقيل. كان ثاني أكسيد الكربون آخذا في القضاء على ما كان متبقيا من أمل في حياة الرجل. نهض مفزوعا مرعوبا يتخبط. سعل بشدة. نظر من حوله فإذا النار تأكل كل

شيء. إحترقت الملابس وحقيته الوحيدة الصغيرة. إندفع نحو الباب يفتحه. طفق يلقي بأطفاله الواحد تلو الآخر على أرضية بهو الدار حيث يتنفسون وينجون من احتراق وشيك أو اختناق أكيد. أسرعت الزوجة تحمل رضيعها مغادرة الغرفة. شقت طريقها وسط ذلك الفضاء المظلم فداست بقدمها قطعة لدائن قد انصهرت من الإحتراق فإذا هي تكتوي. تألمت كثيرا ليلتها وما باعدها الوجد لأيام. عاد تيمح إلى الغرفة بيتغي إطفاء حريق أصبح الآن أمرا واقعا وصارت السنة لهيبه تغلب كل شيء. أتت نيرانه على الأخضر واليابس في تلك الغرفة الصغيرة. أخذ إحدى الأغطية و صار يضرب هنا وهناك و اللهب يتهاوى أمام ضرباته شيئا فشيئا ويصير دخانا وقد خارت قواه. جلب سطل ماء، وهاهو يرسله بواسطة كوب صغير إلى كل اتجاه، وإلى السقف الذي انتشرت فيه النار انتشار جراد على حقل ذرة. يملأه ويفرغه مرات ومرات. ظلت جميلة تئن وتئن على امتداد ذلك الليل الحزين. خرج من الغرفة وقد تيقن من إطفاء حريق كاد يؤدي بحياة أسرة. ظل يتألم بشدة وقد أصابت النار يديه. لم تكن بالمدينة مصلحة إطفاء

فيتصل بها وتكفيه وأسرته شر تلك الحادثة. ظل لأيام يعاني من حروق بليغة. ضاع الكثير من أثاث منزله وملابس أبنائه. تفحم خشب سقف المنزل. قاوم الرجل النار وضررها بمفرده. تعلم من تجربة يومئذ أهمية الإعتماد النفس. تجربة فهم بعدها أن تلك القيم المجتمعية التي كان يؤمن بها و يعتقد بوجودها - قيم التعاون والتضامن- كانت مجرد أفكار في عالم متغير بسرعة.

قصف رعد شديد ذلك المساء- ولم تغب عن عقله تلك الحادثة المؤلمة- وبرق البرق يضيء كل أرجاء المدينة المظلمة بغيمة حالكة السواد. نزل مطر شديد تقذفه السماء كالحجارة من عل. تدفعه رياح عاتية إلى كل الأنحاء. سالت الشوارع أودية تغرق كل ما تصادفه في طريقها بعد أن دمعت شعاب الجبال غديرا. كان يسكن في ذلك المنزل الذي شهد فيه حريقا مهولا تلك الليلة. كان ابنه الصغير- الرضيع يوم الحريق- كان يدرس بعيدا عن البيت. خرج تيمح ليصحه من المدرسة وقد اشتدت العاصفة زمجرة. سار عكس تلك الرياح وذلك المطر الغزير، يدفعان بجسده ويعيقان حركته نحو

الأمام. حمل الصبي على كتفيه يريد إبعاده عن تيارات الغدير الجارفة. اقترب من مجرى نهري يخرق الطريق العامة و يشطر المدينة نصفين. وضع رجله-والطفل يعتلي كتفيه-على أول نقطة فيه، وإذا بالتيار يجرفه عبر حفرة إلى أسفل الشعاب. إنزلقت قدمه داخل الحفرة فتدلت وعلقت الأخرى بالطريق. مال الطفل إلى الأمام بشدة يكاد يسقط وخلفهما موجة عاتية من الوحل تتقدم قوية يسبقها هدير صاعق. كانت ترفع عوالق وأدراننا. حاول تيمح سحب رجله من الحفرة دون جدوى. اختفت الطريق أمامه وذلك المطر النازل يزداد شدة وسرعة وعنفا؛ إختفت وختت إلا من قبس من ضياء نور عربة كانت تجتهد لتعبر الطريق. وظلال جسوم على عتبات الدور المتاخمة لذلك المجرى المائي، ظهرت أيديها خلف المطر الكثيف تلوح مضطربة. وأفواه تنادي: "شدّ الولد و خُرجْ مَنْ طُريقٌ" "أمسكْ الولد و غادرِ الطريق". خافوا أن تدوسهما العربة المقترية وهي تحاول المغادرة مخافة أن تغمرها السيول. وضع الصبي على الطريق يلطمه الماء وقد أمسكه بيد يخشى أن تدفعه الرياح أو ينجرّف بعيدا. كابد تيمح وهو ينتزع

رجله اليسرى من بين أظافر ذلك المجرى المتدفق. كانت المياه باردة جدا. حمل ابنه واندفع عبر ذلك الشارع الطويل الهادر لا يرى إلا ما تسمح به حبات البرد الكثيفة أن يتبينه. تحولت أرضية منزله إلى أحواض ماء مما نزفه السقف ومرور العاصفة. وجد زوجته على أسوء حال تدفعه إلى خارج الدار. كانت تهمس بكلمات تدل على عدم رضاها بحالها؛ على سخطها مما آلت إليه حياتها. تبللت ملابسها وملاً الطين قدميها. أصابها العياء ونال منها الضجر. مازال المطر ينزل ويدفع بالطين من أعلى، من خلال ثقوب على قطع الصفيح التي كانت تغطي مساحة كبيرة من سقف الدار. لم تسلم الغرفة الأخرى من مياه ذلك السيل. قضت الأسرة ليلتها في جانب ضيق من الغرفة لم تغمره المياه، لتبدأ مع الصباح التالي يوماً جديداً في انتظار الفرج. لم يتأخر ذلك الفرج. سيسكن اليوم وأبناؤه في منزل قريب. لا حريق بعد اليوم ولا سيول تغمر مياهها غرفة نومه. سيروي لذلك المنزل محتته على مر السنين. سيحكي لجدرانها، لسقفه، لأبوابه وللنوافذ فيه ما مر به في ذلك المنزل القديم. سيقص عليهم

مآسيه هناك ليل نهار. سيقص عليهم قصة مأساة أخرى، مثل ضحيتها كمثل مأساة فاطمة الصغيرة وقد لفها الموت في ظلماته السحيقة وأبكى أباه وأحزن أمها خلف باب بوطويل. رآها فجأة في حذاء "إسلام" وهو ملقى على أرضية ذلك الشارع الملعون الذي أبى إلا أن يكون سببا في تغييبها عن أهلها ظهيرة ذلك اليوم الحزين. حذاء مفرد، انفرد هناك بعد أن تخلت عنه صاحبتة غصبا مكرهة؛ ترجم في عقل "تيمح" كل عبارات الأسى والحزن التي يمكن أن تحملها مأساة في هذه الدنيا. مأساة ملاك حلق فجأة في سماء الموت الرهيب. بكى تيمح "فاطمة" لمجرد أن رأى من حوله يفعلون. بكاهها صغيرا و بعدها سكت. لكنه ما نسي. و اليوم يبكي المعلم "اسلام" كبيرا. يتمزق قلبه كمدا. وهل يطيب لدموعه أن تجف؟ وهل يجدر بعقله أن ينسى؟ بكاهها بحرقة. وكيف لا وهي من كانت قبل قليل تلميذة بمدرسته. ربما صادفها يوما تجري وتلعب وسط ساحتها فرحة سعيدة. ربما تخيل للحظة أنها ستكون إحدى تلميذاته بعد سنوات، يغذي عقلها علما ومعرفة. تخيلها للحظة بطلة على خشبة أعماله الدرامية على خشبة مسرح مدرستها. يتطاير شعرها

الصغير فرحا على وقع تصفيقات زميلاتها اللاتي
أبين إلا أن يحضرن عرضها. لكنها وا كمداه ستلعبها
على خشبة مسرح المنايا المخيف. لم يتذكر
وجهها، لكن حديث ذلك الجمع المدهول من الناس
عنها رسم في مخيلته كل الصور التي يمكن ان
تكون لها أمام عينيه.



كان المعلم يؤمن بقدرة الله في خلقه. ما شهد صبيرا
قد تجسد إلا عند أبيها. لقد ترجم في نفسه كل
معاني الإيمان الصادق، معاني الكبرياء أمام أعظم
المصائب. ومن يصبر على ابتلاء كذاك الذي أصابه

وأصاب الجميع إلا ذو كبرياء، إلا صادق الإيمان. كان أبو "اسلام" دائما شجاعا في الخير كبيرا كريما، لكن ذلك اليوم من أول رمضان في السنة الثامنة عشرة بعد الألف الثانية للميلاد، إزداد شموخا وكبرياء وهو يسامح. يسامح من حرمة إطلالة بنته كل صباح تقبله وتخبره عن موعد المدرسة. تخبره عن درس ذلك اليوم في فصلها. عما حفظت من أناشيد وآيات. تحدثه عن زميلاتها، عن المعلمة. في ذلك اليوم أخلفت "اسلام" وعدّها لأبيها؛ لم تأته كعادتها تقبله وتدغدغ سمعية بكلماتها الصغيرة. لم تخبره عن أحد. لم تسمح له بأن يملأ عينيه بإشراقه وجهها الصغير، بابتسامتها الملائكية الرقيقة. كيف لإسلام الصغيرة أن تتنبأ بما كان مقدرًا عليها؟ كيف استبقت ما كان سيحدث وأعطت إشارات لأمرها عنه؟ أخبر التلاميذ المعلم والكل في خضم الحزن والأسى أن إسلام طلبت من أمها المبيت في حضنها تلك الليلة. أنها مشتاقة إليها أكثر من أي وقت مضى. وأخبروه أيضا أن الأم طلبت من "إسلام" صباح ذلك اليوم الغريب تناول فطورها، فأبت إلا أن تجيب: "لا يا أمي. أريد أن أذهب إلى المدرسة صائمة". حكايات وأخرى تلت

غياب "إسلام" في هذه الواقعة التي ما كانت قط في حسابان أحد. ظهر أمام "تيمح" إعجاز الله في خلقه واضحا جليا. إعجاز فضيلة الصبر التي ما فتئ جل وعلا يوصي بها عباده الصالحين في كتابه الحكيم. كان "آل عابد" من هؤلاء وممن خص الله بهذه السجية على مرأى ومسمع من القوم يوم اختبرهم في تلك الصبية. كيف لمن حلت به مصيبة أن يعانق من تسبب فيها ويعفو عنه في اللحظة التي هو في ذروة غضبه مصدوما بما نزل عليه، وهو يملك قدرة النفس على دفعه للانتقام، إلا من كان في قلبه قوة إيمان، إلا من فهم اختيار الله تعالى لامتحانه كما تناقل الناس عن أم إسلام، رضى وقبولا بما قدر لها؟ ويكى أب الضحية ويكى صاحب العربة متعانقين. وأي صبر وأي فضيلة تلك التي ينتبه فيها صاحبها وهو أب الضحية في غفلة من الجميع ممن كانوا منشغلين بما حل بهم، كيف ينتبه لمن تسبب بموت فلذة كبده فيأمر بسقيه و إطعامه وحلول إفطار رمضان في محبسه. علم "تيمح" يومها والأخبار يتناقلها الناس أن الإعجاز الرباني قد وقع في استجابة "آل عابد" لداعي الله تعالى. لقد منحت "إسلام" أباهما فضلا

ورفعة وزادته شرفا بين أهله و قومه وبين يدي الله تعالى. سيحكي الناس عن صبره كما تناقلوا كرم ابن طيء على مر القرون. وكشفت "إسلام" عن معدن ناذر من الناس، مصدقة في والديها وأهلها قول الله تعالى "الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون". وترقد "إسلام" في سلام. ويحي الأبوان صابران وقد علما الناس كيف يصبرون عند المصيبة وكيف يسامحون ويعفون عند المقدرة. وتحى إسلام.....

باب بوطویل



باب بوطويل، كانت حلقة وصل بين ثلاث
واجهات تهم ذلك المجتمع العشائري الصغير من

قريب. كانت بابا خشبية صلبة لا يتعدى طولها وعرضها المترين. تنغلق على ممر طويل مظلم، جدرانها من حجارة تبدو للعيان متراصة متآلفة يجمع بينها قليل من طين. تقف على جانبي أرضية رملية لا يتوانى غبارها يتطاير كلما داسته قدمي إنسي. يقف خارجها كل يوم رجل يحمل عصا من الخيزران دأب الصغار والكبار في البلدة على تسميته "نونو". يقف على جانبها الأيسر. جلبابه من الثوب الأبيض، وعلى عينيه نظارتان لا تغادرانها. تفتح الباب على ساحة "أسهوو" التجارية من جهة اليمين، وعلى اليسار تمتد ساحة الجامع العتيق. وخلفها، في عمق الممر تستقر منازل عائلات مشهورة ب"آت عبال" و"آت عاشور" و"آت باعدي" إضافة إلى عائلة "آت بيبي" والتي يمكن اعتبار منازلها تحفة معمارية رائعة في قدمها وانغماسها في حضن الطبيعة. كانت باب بوطويل شاهدة على كل ما يحدث في تلك الساحة من بيع وشراء ونزول للقوافل وخروجها منها. شاهدة على عدد الصلوات وعدد المصلين الذين يرتادون الجامع على مر السنين. وعلى المناسبات الدينية وأشهرها ليلة المولد، حيث يجتمع المصلون خارج

المسجد جالسين القرفصاء أو على ركبهم يرددون بصوت الجماعة: "صليّ يا ربنا وسلم على من هو للخلق رحمة وشفاء". باب تشهد على حضارة غابرة في الزمن ظلت القرية تحتفظ بها و تدل عليها المباني القديمة المنتشرة خلفها وعلى أطرافها. شاهدة على عادات هؤلاء وتقاليدهم التي تطبع حياتهم ليل نهار. تشهد على أدواتهم الضاربة جذورها في عمق التاريخ. أبراجها تنبئ بسالف عهدها؛ تحرس القرية وبساتينها في إباء. باب تشهد على حركة الناس، وهي تأشيرتهم للانتقال إلى حقولهم البعيدة صباح مساء، أو إلى الجانب الآخر من القرية حيث السكان والدور والمدرسة والطريق إلى العالم البعيد. باب تشهد على حياة الناس ونبضهم. كان يمر من هناك صغيرا قبل دخوله إلى المدرسة. تمر به صور لأشخاص وأحداث وأماكن كانت تؤثر فيه كثيرا وساهمت بعمق في تحريك عواطفه وتوسيع خياله. كانت هناك، وقد عبرت الزقاق مسرعة لآلاف المرات. تتلاعب بشعرها. يميل مع رأسها يمينا ويسارا يكاد يلامس تربة الزقاق من طوله ومن شدة ما انحنت بجسمها إلى الأمام. كانت طفلة جميلة سعيدة بريئة. رآها يوما تلعب مع أبيها

هناك في ذلك الحقل الجميل وبجانبه بضعة رجال. كانوا هناك تحت الشجر، حيث الظلال ممدودة والعصافير شجية الترنيمات. كانوا يشوون خرافا من أجل ذلك العرس المقام بالقرية. كان أبوها مزهوا بها. ما رأى الصغير مثل تلك العلاقة بين أب وابنته في القرية قط. كان عاملا في فرنسا. كان يداعبها، يدغدغ عواطفها في سعادة أمام هؤلاء، ولسان حاله يقول: "أنظروا، إنها ابنتي " فاطمة " الصغيرة الجميلة". أعجبه التباهى بها وهم ينظرون. كانت تجلس على فخذه، يتدلى شعرها بين كتفها كأنه الزمن. تعانق أباهما في حبور. كانت أعينهم تسقط عليها بنظرات كالجمر. باطنها يحمل حقا شديدا وحسدا حتى وإن بدت أنيابهم باسمه. ما كان له ليفعل ذلك أمامهم. فالعين حق. في غفلة منه ومنهم، ماتت فاطمة بعد ذلك بقليل. ماتت صغيرة. ربما ابتلعها ماء بركة من برك الوادي الهادئة، أو أصابها جني بمس بعد أن أغضبتة في غفلة منها. رآه حزينا وسط هؤلاء الذين كانوا يواسونه بعد ذلك المصاب الاليم الذي ألم به فجأة. لم يكن الطفل يفهم ما كان يجري. ظل يراقب فقط. ربما سألت دمعة من عينيه يومها مع

الباكين. كانت علاقة متميزة، علاقة صداقة بين أب وابنته. وموتها كان تصديقا للعين التي لم ينكر أحد أثرها يوما في تلك القرية. كثيرا ما سمع الناس يتحدثون عنها. كان يريد أن يعرف كيف تقتل العين الناس. كم كان يخاف أن ينظر إليه أحدهم. أراد أن يعرف كيف ينبت الملح وكيف يحتاج النبع إلى شحم وكذلك كيف يصل كنغر أسترالي إلى بلده؟ وكانت رغبته أقوى من كل هذا وذاك في معرفة كيف قتلت العين فاطمة ذلك النهار. لم يخل حديث النسوة في كل بيت يزوره من اتهام العين بقتل فاطمة. كانت تلك ظواهر ظل ينشد فك ألغازها. لكن خلف باب بوطويل، كانت ألغاز أخرى وأسرار تشغله و تحتاج منه أن يفهمها أكثر من ذلك. خلف تلك الباب



العجيبة يحلو له سماع تلك الموسيقى التي لم تكن تجد مكانا لها إلا هناك. ولم تكن لتوجد بذلك المكان لولا عودة أحد رجاله من بلاد المهجر وقد جلب جهاز تسجيل "تاغنايت" الفونو" كما يحلو لأهل القرية أن يسموها. تشدو أغاني عبرت موسيقاها من الجزائر. بطلاها "خليفي أحمد" و"الشيخة الريميتي". اعتمدت هذه الموسيقى على الناي والطبل. وتغنت بالفراق والحب والمحن والمعاناة والهجر والرجولة وغيرها من المواضيع التي كانت تثير فضوله وتحرك وجدانه. أدمج كل هذا في أقراص مستديرة كبيرة الحجم يسميها أهل المكان هناك "الطّْبْسي". مر من تلك الباب مرارا عندما تكلفه أمه بجلب بعض المتاع أو الأواني من دار

أحد أقربائها هناك. رأى نسوة يتجمعن في فناء عريض مفتوح على فضاء واسع من الأشجار والنخيل. تتوسط مجلسهن صينيات عليها أباريق الشاي تحف بها كؤوس بيضاء من زجاج رقيق اشتهرت باسم "كيسان حياتي". تجري بين أيديهن وأسنانهن مكسرات لذيدة يقمن بدقها بحجارة ملساء ثم يقضمنها على نغمات ذاك الغناء الذي يسافر بأرواحهن إلى عوالم الخيال البعيدة، عوالم عشق الطبيعة وعشق الإنسان وعشق الذات. إلى هناك، إلى ما وراء باب بوطويل، حيث تتناوب الأفراح والأشجان على تملك القلوب. ويتصارع الأمل مع القنوط في ملحمة لا غلبة فيها إلا للصابرين. يعانق فيها الهجر اللقاء في قصة مسرحها باب بوطويل وبطلتها "تاغنايت". كانت تلقي بهن طراطين مثل "ياي ياي ياي ياي" في أحضان الدموع وبرائن الأشجان. كان ينظر إليهن، يحركن رؤوسهن طربا وانتشاء. أكثرهن من المتزوجات ومن الطاعنات في السن. تتجمعن في هذا المكان لفترتين من العام: حين يحل المهاجر ضيفا على منزله وعلى القرية، وحين يهم بمغادرتهما. ترافق الدموع الفترتين. تبكي النساء

بشوق ووصول المهاجر بعد فراق طويل. يقبل رؤوس العجائز منهن فيتشبثن بيديه ويربتن على كتفيه. ومنهن من تتعلق بكسوته لا تفارقها حتى يصيبه أو يصيبها الحرج مرددات: "حمدا لله على سلامتك يا ولدي" يحمدن الله لأمه أولا، ثم بعد ذلك لأبنائه أو بناته وأخيرا لزوجته والكل يجيبيهم: "إحمّد رايك على خير". كانت الأم أهم وأول من يجب أن تقدم لها التهاني بوصول ابنها. لم يكن الشوق إلى رؤية القادم هو ما يجلب هذا الحشد من النساء إلى المنزل فقط، بل الطمع في أخذ حصتهن من العطر والبخور وبعض الأثواب التي غالبا ما يجلبها من فرنسا. كانت فرنسا هي بلد المهجر الرئيسي لأبناء البلدة. تحضر الضيقات أيضا وليمة العشاء الأولى الفاخرة لتلك الليلة. أثناءها يحلو السمر تحت ضوء المصباح القديم، حيث يجرد بعضهم لبعض ما جرى خلال فترة الغياب. كان تيمح يجري مع أطفال قدموا إلى هناك مع أمهاتهم. يعلو صراخهم وتكثر حركتهم ويشتد إزعاجهم فتلعن العجائز الجالسات المنتظرات لعبهم وصراخهم؛ وكثيرا ما تأخذ إحداهن حذاء أو نعلا، ثم ترسله بكل قوتها فتصيب به إحدى الحاضرات أو القائمات على إعداد الطعام، فتدعّو

عليها همسا وتنعتها بأقبح الأوصاف، أو قد تقول
إحداهن: "هل أنت عمياء؟ لقد أصببتني في
مقتل". يستمر الجدل بينهما ويستمر الأطفال
يلعبون في مرح وسط الدار إلى حين وضع
الأطباق بما تحتوي. حينها، يلتزم حولها المدعوون
ويسرع الأطفال إلى أخذ أماكنهم في فوضى
متدافعين، يمدون أيديهم بلا استحياء إلى قطع
اللحم يسرقونها. يغادر المدعوون المكان حيث
تحتضن الجميع ظلمة باب بوطويل المخيفة لبضع
دقائق قبل أن تغلق على أسرار تدفنها داخل تلك
العتمة حتى انبلاج فجر اليوم الوليد. تمر أمام تيمح
صور هؤلاء النسوة وهن يبكين حرقه على فراق
المهاجر. ما أن يسمعن صوت محرك الشاحنة، حتى
تنفطر قلوبهن من هول ذلك الموقف. كان صوت
المحرك ينساب حثيثا كلعاب الأفعى بين
الجبال. يرسل جبل "منعة" صداه إلى كل دار. وعبر
فتحات باب بوطويل، يتسلل الهدير إلى كل أذن
فيخترقها كالسهم المسموم. لقد اقترب موعد
الفراق. تبكي الأم أولا وهي تتبع ابنها مودعة إلى
باب بوطويل. تضع يدها على كتفه تتكى عليه. يتلو
ذلك بكاء النسوة خلفها وقد تبللت مناديلهن

بالدموع. يحاول رجال من العائلة أو من الأصحاب
ثنيها عن البكاء. يخاطبها أحدهم: "لماذا تتطيرين من
سفره؟ إن فعلت قد لا يعود مرة أخرى". تحاول الأم
كفكفة دموعها ثم وهي تمرر المنديل على كامل
وجهها تقول له: "إذهب يا ولدي في حفظ الله
ورعايته ولا تنس أن تخبرني عن أحوالك". يسمح
الرجل دموعا تعجز عيناه عن إخفائها وهو يقبل رأس
أمه ويطلب منها الصفح. تقف الزوجة هناك في آخر
الزقاق تنظر من بعيد. تمسح عينيها في صمت. قد
تلوح بيدها لزوجها في استحياء. لا يجب أن ترى أمه
تلك الإشارة ولا حتى هؤلاء المودعات. ستجر على
نفسها إذن مشاكل هي في غنى عنها. "إنك تثنيه
عن السفر. تمنعيه من الذهاب إلى
عمله. ستحرميننا من لقمة العيش. أنا أعرفك
وأفهمك تماما. إنك تتعمدين ذلك" تقول الأم إن
اكتشفت تلك الحركة. يغلق الباب على ذلك الرجل
وقد اختفى خلف ساحة الجامع. يعود الجمع ليتوارى
خلف تلك الباب. تقدم أطباق الخبز وصينيات الشاي
من جديد. يطلق العنان للموسيقى مرة أخرى. أكثر
الذي استهوى الصبي من كل كلماتها كان: "يا بّا
خيبي... شيبّ يا راسي شيبّ" كانت الدموع تسيل

من وقعها في نفس الحاضرات أنهارا.تغسل الزوجة التي انعزلت في المطبخ وحيدة تبكي بتلك الدموع وجهها الغاضب.تخاطبها إحدى العجائز ساخرة"هل اشتقت إليه؟هل أناديه ليعود إليك؟"تبتسم الزوجة يغلبها الحياء والدمع يفضح ما بداخلها ،ثم تسافر مع زوجها في رحلة الذكريات الجميلة التي نسجتها الأقدار بينهما لأيام قليلة وراء باب بوطويل.لا تغادر النسوة المكان إلا القليل منهن.يزداد ارتفاع أصواتهن شيئا فشيئا ويعلو صياح صغارهن.لا يكره المساء يحل إلا و فرغت الدار من هؤلاء الزائرات.يغادرنها قبل أن يعم الظلام باب بوطويل.كان تيمح ينصرف باكرا ليسبق هؤلاء النساء إلى الخروج.كان يخاف الظلمة،وظلمة باب بوطويل من أكثر الظلمات إثارة للخوف في نفسه.كان المكان مهيبا بها.كانت قريبة من بئر الجامع حيث يوجد محمل الموتى.وكانت أقرب ما تكون إلى منزل الشاب"امحمد اقلال" الذي مات فجأة أياما بعد أن رأى في منامه أفعى تحيط برأسه.عرض أهله الأمر على"السي أحمد جندي" فأخبرهم أنه سيموت قريبا.علقت صورة هذا الصبي في ذاكرته وحفظت فيها وحفرت لها

مكانا. كان الزقاق المظلم خلف باب بوطويل شاشة كبيرة تتجلى فيها كل الصور الرهيبة. كثيية مرعبة. كانت صورته من بين تلك الصور. لقد رآه مرات عديدة يلعب "تشورت" مع الأقران من أبناء القرية. كان طفلا لا يزال. لم يتجاوز الأربعة عشر ربيعا بعد. رآه وهو يقف مستندا إلى حائط دكان "آل النعيمي" يمد بصره إلى تلك الساحة خلف باب "إنوراز". خرج من منزله تدفعه توق النفس إلى التسلية. كان قوي البنية. ذا شعر أسود. هو أيضا كان يحب الحياة. يريد أن يعيش ليلعب ويكبر ويحتضنه وجه القرية الأخضر لا باطنها المظلم.

كانت الخفافيش التي تختبئ في ثنايا سقف الزقاق وبين حجارتها تخيف الصغير تيمح كثيرا. كانت تمثل بالنسبة له عالما غامضا بشعا. تخرج من تلك الظلمة بلا استحياء. بلا سابق إنذار. تطير فوق رأس من يدخل المكان. تفرعه بصوت أجنتها العريضة المنتشرة. بمنظرها الفظيع. كان موت الأطفال الرضع مرتبطا عند أهل القرية بهذه المخلوقات الكريهة. صار يمقتها بشدة. كان يلتقط حكايات الناس عن الوطواط "طائر الليل" والذي إذا ضرب

الصغار أماتهم. لم يكن يفهم لضربة هذا الطائر معنى. هل يضرب بمنقاره؟ بأجنحته؟ أم بمخالبه؟ كلما مر وطواط في سماء إحدى الدور، أسرعت النساء فيه إلى تغطية أبنائهن بلحاف أبيض أو حتى بأية قطعة قماش بيضاء. لم يكن يفهم لم يفعلن ذلك. لم يتطلب الأمر ثوبا أبيض؟ كن يتركن كل شيء، كل عمل، مقابل إخفاء أبنائهن عن عيون الوطواط. لكن الوطواط أعمى. كيف سيرى هذا الثوب ويعرف لونه فينصرف عن الصبي بعيدا؟ تنتشر رائحة القطران فتشتمها أنوف كل من زار بيتا به رضيع. أي لغز كانت تخفيه هذه العلاقة بين الناس وهذا المخلوق؟ سمع أن الخفاش لا يحب البياض. لم يكن يعرف لماذا ولا كيف يكتشف وجوده! كان الأطفال يمرضون ويموتون بضربة وطواط. لكنه لم ير أبدا وطواطيا يضرب صبيا أو صببية. لم ير يوما أثرا لهذه الضربة على جسد أحدهم. ظل يلزم الرضع، يقترب من كل امرأة لها رضيع. يحاول تفحص جسمه ليرى أثرتلك الضربة. كان يرغب في معرفة الكيفية التي يضرب بها الخفاش هؤلاء. كان ينتظر في شوق وقوع هذا الحدث وهو خلف باب بوطويل. كانت تطير

قريبا.تلتصق بجدران المنازل أو سقوف
الغرف.تبيت مع النائمين.حتما لم يكن ضربها يشبه
ضرب "فقيه"المدرسة"سي الطيب".هذا النوع من
الضرب لم يقتل أحدا.لم يجعل أحدهم يمرض لدرجة
الهزال.كانت الجدات أكثر حرصا على نشر مثل هذه
الأخبار بين عرائسهن.يحذرنهن باستمرار.كن يطلقن
أنواعا من البخور في الجو - حرمل وفاسوخ-.رأى
الأمر واقعا عندما تفقد أسرة ما رضيعها.كان يراها
حقيقة تحدث أمام عينيه بلا كذب.لم يسردها عليه
أحدهم؛انسيا كان ولا جنيا فيشك في صدق ما
يروى.ارتبط إيمان الناس خلف هذه الباب أيضا
بوجود طائر آخر أكثر خطورة من الوطواط يطلقون
عليه اسم"تاجضيت".طائر غريب لم يره أحد
أبدا؛لكن هذه الباب ظلت تحضنه وتخفيه
عتمتها،وظل الكثيرون يدعون وجوده ويحذرون من
خطره ولم يقدر أحد منهم على وصفه.ربما كان
الأمر مجرد ادعاء.لكن الأطفال كانوا يموتون بعد
ظهور علامات تدل على مروره،تعرفها على وجوههم
الخبيرات من العجائز.ربما كان شبح ذلك الجندي
الفرنسي الذي يسمع أنينه في بستان"باعزة".أو كان
من الجن الذين يسكنون"الصخرة السوداء

الضخمة" خلف جبل "تاويرت"؛ وأول الذين يحتجزون الكثيرين في "طوطوبت نبلغردة". كان باب بوطويل أكثر الأماكن استقرارا لذلك المخلوق المشؤوم. المخلوق الحاضر الغائب. الموجود المنعدم. كان يضرب الأطفال دون الخامسة. يتخيله وهو يسير عبر ذلك الممر المظلم. يتحسس مخالفه الضخمة الحادة الجارحة ومنقاره الطويل ذو الأسنان المميّنة. يحس به خلفه. عن يمينه ويساره. أجنته السوداء العريضة تطبق على كامل جسمه تزيد المكان حلكة وتحاول أن تختطفه. ريجه التنتنة تسكره. يخترق صوته أذنيه فيصمها. ها هو محاصر في ذلك الزقاق خلف الباب يريد أن يهرب. لكن تلك الصورة البشعة تثقل قدميه. تقيد حركته. لا تترك له أي فرصة للفرار. ها هو يصرخ من أعماقه بصوت مرتفع ولا يسمعه أحد. يركض دون أن يغادر مكانه. يمسك بين يديه قلبه الذي لا يتوقف عن إسماع دقاته القوية. قلبه الذي يسبقه جريا إلى تلمس الخلاص. ها هو يمسكه بين يديه. يتشبث به كي لا يسقط منه أو يختطفه الطائر غير المؤلف. حتى إذا لاح قبس من ضوء في الطرف الآخر من الزقاق، أسرع إليه يحذوه الأمل في

النجاة.ربما تواجد هناك ذلك الطائر الخارق أو تواجد صغيره الذي أرضعته تلك المرأة "بادة" ذات صباح حين سقط في حجرها فجأة.أمرت المرأة أبناءها بألا يقتلوا واحدا من بني جنسه أبدا.ربما يعود موت ابنها"إبراهيم"إلى غضب ذلك الطائر ذي الوجه البغيض.هل آذاه أحد أبنائها دون علمها فانتقم لبني فصيلته؟ ظل تيمح يبحث عن هذا اللغز لسنين وهو صغير.ويوم صار راشدا،لم يعد يعتقد بوجود هذه المخلوقات أو يصدق تلك الأحداث.باتت في عقله تافهة لا قيمة لها.حتى والذاكرة

تعود به إلى مخلوقات باب بوطويل المدهشة،لم يقتنع أبدا بمسؤوليتها عن تلك الوفيات.حكى يقول:"تغير كل شيء وعدت بتفكيري الى ذلك الزمن عندما أصيبت بنتي

الصغيرة في ذلك الليل من رمضان .عند الإفطار من العام الخامس بعد الألفية الثانية،شربت قليلا من

الماء وهَممت بتناول كوب قهوة مع قليل من

خبزٌ محلى، إذا بتلك الطفلة ثوية تتقيأ ملطخة كل
ما كان أمامها من ماعون
وفراش. لم أصدق ما رأيت . كانت تتقيأ من أنفها
وفمها. يخرج

السائل من معدتها متدفقا قويا كماء مزراب في
يوم عاصف

يكاد يخنقها. لم يحدث أن رأيت ذلك من قبل. بسرعة
وقد تملكني القلق من هول ما ألم بها، حملتها إلى
المستوصف القريب؛ لكنها لم تجد راحة بما قدم لها
الطبيب من دواء. أمسكتُ عن الأكل إلا
قليلا مما يسد الرمق. إصفر منها الوجه و نحل
الجسد. غارت

عينها حتى أوشكتنا تختفيان داخل جمجمتها. ظلت
تخرج من

فمها وأنفها كل ما يلج معدتها من طعام
وسوائل. لم ينفع علم

الطبيب ولا دواؤه. لم تزل زوجتي تشير علي بزيارة
أحد "فقهاء" المساجد لعله يجد لها في الكتاب
شفاء؛ لكن رفضي

لما كانت تراه كان شديدا. " - ألمت بكيانه حيرة
قاتلة: "ربما تناولت طعاما فاسدا هنا او هناك "

يقول في نفسه وقد تملكه الخوف عليها. "أو ربما أفرطت في تناوله". ظلت زوجته تنصح بما أشارت به وتلح، لكن رأيها لم يجد إلى عقله سبيلا. كانت زوجته تحذر من ضربة وطواط. من ضربة "تاجضضت". لكن، أين وقف ذلك الكائن قبل أن يصيبها؟ لم يعبأ له أحد وهو يقوم بطقوسه؟ وهو يستعد لتنفيذ ضربته؟ مر بأحد جيرانه بعد يومين من مرض ابنته كان معروفا باسم "الكوراري"؛ مر به مهموما محبطا من قلة حيلة الطب أمام هذه الظاهرة. عرض عليه الأمر فلم يتأخر الرجل يطلب إحضار الصبية إلى منزله ليعاين حالتها. قدم لها سائلا من خليط بني اللون غير معروفة مكونات. شربت منه قليلا ثم دهن بطنها بما تبقي منه. لم تمض إلا دقائق معدودات حتى انتهى كل شيء. كانت الصبية تجري وتلعب وتأكل كما يحلو لها وكأنها ما مرت بتلك التجربة من قبل. أخبر الرجل تيمح بحقيقة ما حدث لابنته. كانت دهشته كبيرة حين أعلمه أن لهذه الطيور الليلية يدا في ما أصابها. أخبره أنها تنشر رائحتها في الجو، وإذا ما استنشقتها الصغار مرضوا وقد يموتون إن لم يسارع إلى إنقاذهم. هاهي الصبية قد تجاوزت

محنتها.أفلتت من ضربة وطواط كان يحوم في الجو ذات مساء؛أو ضربة "تاجضيضت"استغفلت والديها وكادت تنال منها .

وقفت الباب حاجزا مانعا دون هجمات اللصوص والحيوانات الضالة التي تجوب القرية ليلا؛وكذا دون اعتداءات القوات الجزائرية على تلك الدور في ذلك الجانب من القرية.خلف الباب،كانت قصص وحكايات تنسجها النسوة وهن عائدات يحملن سطول الماء و قد ملأنها من الساقية البعيدة.يحكين أحيانا وهن خائفات.يهمسن القول مترددات.كن يلتقين جميعهن في تلك الساقية التي أخذت اسمهن"تاركا نتسدنان".يحكين عنم يوجد خلف تلك الباب.هناك،يوجد رجل نسجت حوله روايات يسبقها الخوف والهلع إلى مسامع المارة.كانا يقفان معا في تلك الساحة القرية أو في أحد الحقول يتحدثان كما يفعل الكثير من أقرانهما.نطق الضحية وهو يحاور الرجل بكلام مس به شرف محاوره.شرعا يتشاجران.لم يستطع "حمو"استيعاب ما قيل له؛كانت الكلمة من فم الضحية رصاصة أفقدته صواب عقله.حتما لم يكن

الرجل ينوي غدرا بمجاده. كان ينوي تأديبه فقط. لكن القطعة في يد "حمو" كانت عمياء لم تفرق ساعتها بين جدٍ يجِدُّ أو هَزَلٍ. لم تكن تعلم أنها ستمزق القرية أجزاءً متنافرة. أن فعلتها نكراء لا يمكن غفرانها. لكن تلك مجرد قطعة من مادة. لو كانت عاقلة ما سمحت له بحملها في تلك اللحظة. كانت اللحظة عمياء أيضا. وكان الضحية أعمى وهو ينطق تلك الكلمة. لم تغب عن تيمح تلك الصورة البشعة للأخوين الذين كاد أحدهما يقتل الآخر في لحظة عمياء أخرى، فقط من أجل قطرة ماء أخطأ فصرفها لحقله وقد كانت من نصيب بستان أخيه. حمل الأخ الأكبر معوله وانطلق يبغي شق رأس شقيقه. علا الصياح إحدى المنازل فجأة. كانت النسوة في المنزل يبكين وارتفاع عويلهن في اضطراب مرددات "لقد أنزل مخ أخيه". كن يكررنها لمرات عديدة. كان في بستانه يفتح الساقية ليسمح بمرور الماء إلى خضرواته بعد عطش أصابها. ظل شغله وهمه أن ترتوي مزروعاته، أن تنمو وتزداد اخضراراً ونضارة. كان مطمئن البال يعمل في استرخاء حين بادره أخوه بضربة معول على مؤخرة رأسه تهاوى لها كالبناء القديم. سال رأسه دما أحمر

قان.مد الحقل يده يداعب شعر صاحبه وقد لطخته
الدماء.أراد أن يمسك بالجاني.حاول أن يناديه.أن
يسأله عن سبب إقدامه على ما قام به.أن يطلب
منه مسح دماء أخيه وتجفيف جرحه.أن يحمله إلى
حيث يمكن إسعافه.لكن الرجل تركه ينزف
وانصرف.ها هو يبتعد هاربا.-وخز"حمو"خصمه
فأرداه صريعا.زادت تلك القطعة في يده يومها
فرقة بين أهل القرية.انقسم الناس بين من يزعم
الأمر جريمة،ومن يعده حادثا جاء فجأة بغير
قصد،ومن يقول أن ذلك كان دفاعا مشروعا عن
العرض.كان الدفاع عن الأرض والعرض والنفس
قيما لا يجادل فيها ابن امرأة.لقد وقف أهل البلدة
رجالا أمام القوات الفرنسية إبان
الإستعمار،وكالطود المنيع أمام اعتداءات القوات
الجزائرية،فكيف لا يقف الرجل منهم شامخا دون
عرضه أو دون نفسه.أراد أهل الضحية الثأر
لابنهم.لكن باب بوطويل كانت ملاذا أمنا لمن
تسبب في قتله.أخفته أسرته خلف تلك الباب عن
أنظار طالبي الثأر إلى حين وصول الجهة التي تمثل
القانون.لم يحدث أن رأى "تيمح" ذلك الرجل قبل هذا
الحادث.لكنه كان يعلم أنه كان هناك.وأنه حمل تلك

القطعة وضرب وقتل. صار "تيمح" يخاف أن يخرج عليه من فتحة ما من جدار باب بوطويل فيقتله. يقتله ولو على سبيل الخطأ كما حدث في ذلك اليوم مع ذلك الشاب. لم يكن تيمح يلج ذلك الزقاق عبر تلك الباب إلا وصورة ذلك الرجل تملأ أمام عينيه كل مكان فيه. كانت ترعبه. وكانت صورة الضحية تبعث في نفسه الأسى والحزن. بدا في نظر الناس قاتلا. لكن ربما كان بريئا. ربما أن قانون البلدة هو الذي سرع تجريمه. استفاقت البلدة على حدث كاد يعصف بالكثير من رجالها. لقد قرر أهل الضحية الانتقام من رجلين من العائلة الخصم بسبب ما وقع. ولكن باب بوطويل كان لها رأي آخر. فقد منعت خروج "حمو" والرجلين الآخرين اللذين دخلا فجأة على خط الأزمة وأصبحا دون إرادة منهما مطلوبين ملاحقين مهددين بالثأر منهما، كما منعت دخول أهل الضحية ليصيبوا الرجال الثلاثة فتكون مجزرة أكيدة لا تداوى جراحها أبدا. وجدت الباب عوناً لها في أحد رجال القرية المحترمين؛ كان "دودو بلحس" يسابق الخطى لاحتواء الأمر وحصره بين أهل الضحية ومن تسبب في قتل ابنهم. يتصل بالفريقين. يهدأ من روع هؤلاء ومن غيظ

أولئك يسابق الزمن لئلا تنزلق الأحداث إلى
الأسوء. ذهب "حمو" رحمه الله الى السجن يقضي
عقوبته. وذهب الضحية رحمه الله إلى مثواه
الأخير. وحققت دماء كثيرة كانت ستسيل خلف باب
بوطويل .

ارتبطت تلك الباب على مر السنين بسر رجل سجن
ظلما لأنه دافع عن عرضه وشرف أهله. و آخر مات
ظلما بعد أن غدرت به كلمة نطق بها في لحظة
طيش.

وسر طائر لم يره أحد أبدا، لكنه ظل يحصد أرواح
الصبيان بلا رحمة.

وبينها ظل سر " تاغنايت " ينشد إلى الأبد

سر باب بوطويل الذي لا يعلم به إلا
قليلون.....



الفهرس

0 قصة ايش
5 عرس في القرية
19 جنة في المغرب
50 الجزائريون يعتدون
61 شخصيات وأماكن غريبة
77 عصفور في الجنة
84 أبو جمعة والليل
104 رقص الذباب
108 طريق الناقات
129 مس الجن
140 إلى المدرسة
167 إلى المدينة

185	تجريدة النصر.....
191	إلى فجيح.....
228	ليلة خوف.....
247	في الجبل.....
261	رجل ك'جان فال جان'.....
269	طابور أحزان.....
274	لحظة شرود.....
314	صباح مختلف.....
320	مكيدة.....
347	باب بوطويل.....
348	باب بوطويل.....



والصلاة

ملخص الرواية

يتناول الكتاب حياة الكاتب منذ طفولته مروراً بمحطات الدراسة وصولاً إلى مرحلة تعيينه كمدرس بإحدى المناطق الجبلية ثم الحديث عن بعض المشاكل الاجتماعية التي أعقبت زواجه ليختم الكتاب بموع الرواية وهو الحديث عن إحدى الأبواب المشهورة في قريته التي عايش بها أحداثاً مثيرة.

السيرة الذاتية الأدبية للكاتب

ولد الكاتب بقرية ايش على الحدود المغربية الشرقية مع الجزائر. تلقى تعليمه الابتدائي أولاً الأمر بمدرسة القرية قبل أن يتابعه بمدرسة ابن تاشفين ببوعرفة. انتقل بعد ذلك للدراسة الإعدادية بإعدادية سيدي عبد الجبار بمدينة فجيج. انتقل

بعدها للدراسة الثانوية بانوية عبدالمومن بوجدة
دخل مركز تكوين المعلمين بوجدة 1982 ثم عين
مدرسا بإحدى القرى الجبلية - دادا علي—ثم انتقل
بعدها للتدريس بمدرسة النجود بعين بني مطهر
ثم التحق مدرسا للغة العربية بمدرسة موسى بن
نصير بنفس المدينة .

اهتم بالمسح المدرسي وشارك في عدة مهرجانات
مدرسية بمسرحيات اشهرها :

اصلها ثابت وفرعها في السماء ----جنين في رحم
الحنين ---انا واستاذي --- عندما يبكي الدكان

اهتم بالتأليف حيث الف العمل الادبي ""باب
بوطويل "" و ""عيادة اب الافاعي السود""

شارك في تطوير مشروع مؤسسة موسى بن نصير
حيث وضع لبنات "للمدرسة الذكية الجامعة"

ووضع برنامجا لتوظيف الحكي عن طريق توطيق
المطالعة ضمن المنهاج الدراسي..

الف كتابا الكترونيا باللغتين العربية والفرنسية تحت
عنوان : "نورانية اللقاء والعطاء بين تلاميذ مدرس

موسى بن نصير مديرية جرادة واطر من ربوع
المملكة " تكريما للدكاترة والادباء وافنانين
والرياضيين والإعلاميين الذين حضروا امام تلاميذ
مدرسة موسى بن نصير بعين بني مطهر.

والسلام